الفكرة الحضارية
في التناول القرآني..

محمد عبدالعظيم العجمي

الفهرس : -

الفصل الاول: منهج القرآن في التاريخ والحضارة.

١. المقدمة
٢. المنهج القرآني في تناول التاريخ
٣. النسق القرآني في صناعة الحضارة
٤. بناء النفوس، وبنيان الحضارة
٥. بين الفردية والمنهج(صناعة الحضارة)
٦. التأصيل الحضاري، بين الفردية والمنهج١
٧. التأصيل الحضاري، بين الفرد والمنهج٢
٨. المنهج العلوي والعنصر البشري

الفصل الثاني : العقيدة

٩. العقيدة: أول خطوات التمكين الحضاري
١٠. العقيدة وسنة التمكين
١١. الاستخلاف والتمكين والإعمار
١٢. الاستخلاف والتمكين والإعمار(٢)
١٣. التمكين الحق: دنيا وين
١٤. السنن الحضارية، كيف نقرأ ونعتبر؟
١٥. كيف نقرأ السنن ونعتبر

الفصل الثالث : التربية الروحية

١٦. المنهج الروحي في التربية
١٧. فلسفة التربية الروحية
١٨. التاريخ بين الدول والرجال؟!
١٩. نماذج من صور الحاكم المسلم
٢٠. فلسفة العبادة (الصلاة نموذجا)
٢١. فلسفة الأسرة في القرآن
٢٢. العطاء وتقويم المجتمع
٢٣. المرأة المسلمة بين حضاريتن

الفصل الرابع: نماذج تطبيقية للحالة الحضارية:

٢٤. العربية وريادة الصحوة القادمة!

٢٥. اللغة والطاقة الحضارية

٢٦. فقه التعايش والتعارف في المنظور القرآني

٢٧. فقه التعايش والتعارف في المنظور القرآني

٢٨. فلسفة الحب: بين الألفة والتعارف

الفصل الخامس : حضارة الإنسان

٢٩. الاستعلاء الثقافي في مواجهة (الثقافة الغالبة)

٣٠. الإنسان في الحضارات الأخرى

٣١. حضارة القرآن والإنسان

٣٢. الاتصال التاريخي بالحضارة الإنسانية

٣٣. منهج القرآن وكُتّاب التاريخ

٣٤. دورة التاريخ .. بداية ونهاية

٣٥. الامتداد الدعوي لا التوسع الامبريالي

٣٦. في الدعوة القرآنية: جهاد أم قتال

٣٧. خاتمة

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، نحمده حمدا أن جعلنا من "خير أمة أخرجت للناس"، أمة حملت لواء الحضارة منذ نزول الإنسان على الأرض؛ ليست الحضارة بمعناها الشكلي والتركيبي والمادي، لكن الحضارة التي رسخت للتوحيد وعبادة الله كما أمر، وحققت بغية الإستخلاف كما ينبغي لها أن تكون، وحفظت على البشرية قيمها الأخلاقية والإنسانية والحياتية، وحملت على عاتقها إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. يقول د. عبدالحليم عويس"إن فقهنا للحضارة أمر ضروري، والانسجام مع السنن الكونية والاجتماعية هو الطريق الوحيد للتقدم وتجنب المنزلقات" (١)

والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي حمل إلينا هذا المنهج القرآني الرباني طاهرا مطهرا، وعلمنا كيف نأخذ الكتاب بقوة، ولم يتركنا إلا وقد امتطينا سنام المجد به، وأخذنا بزمام الحضارة، وارتقينا سلم الريادة للأمم عربها وعجمها.

وبعد.. فهذه محاولة متواضعة للنظر والتفقه في المنهج القرآني، من خلال أحوال هذه السنن الكونية التي مكنت للأمة المسلمة منذ فجر التاريخ كما أراد الله لها أن تكون ممكنة، وكذا حين أحاطت بها ودالت عليها كما كتب الله عليها في سوابق المقادير، حين أوهنت في الاستمساك بحبل الله المتين، وانتكست عن الريادة والقيادة الإنسانية حين امتدت عينها إلى زهرة الحياة الدنيا، ونكصت على أعقابها حين جعلت منهجها وراءها ظهريا..نسأل

الله التوفيق والسداد والرشاد، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا ممن لهج قلبه ولسانه ـ حين اعترف بعجزه وقصوره ـ فدعا من صميم فؤاده" وقل رب زدني علما".

١. فلسفة التاريخ . د.عبدالحليم عويس

إذا كان الماديون قد أهملوا الإنسان لدرجة أن جعلوه عنصرا غير متفرد من عناصر الطبيعة، وبخسوا قدره لدرجة أن ساووا بينه وبين الأشياء، الوضيع منها والحقير في الكون.. فإن القرآن قد جاء بخلاف ذلك؛ ليكرمه ويحفل به ويحتفي؛ بل ليجعله مدار الأهمية في الكون، ونقطة الارتكاز، ومن سخر له الكون بما فيه؛ حتى قال بعض (الفيزيائيين): "أن الكون قد أعد لاستقبال هذا الإنسان وتهيأ لقدومه".. وسخر له البر والبحر كي يحقق بغية الاستخلاف والإعمار، ويقوم بحق ما أنيط به، ألا وهو تحقيق العبادة لله الواحد وإفراده بها.

فقد جاء القرآن حافلا بتاريخ الكون منذ نشأته، ثم تاريخ الإنسان الذي طرأ عليه، وإن كان نزوله في حقبة زمنية معلومة مشهودة، إلا أنه قد تجاوز هذا الحاجز الزمني القبلي والبعدي، فأوغل في الإخبار حتى ذكر حديث نشأة الكون بشيء من الإيجاز تارة والتفصيل أخرى، ثم ذكر قدوم الإنسان عليه وبداية خلقه بكثير من التفصيل الذي يعجز العقل البشري الآني والبعدي، ويتحدى كشفه المتقدم في الزمن أن يأتي بحجة مباينة لما قدم أو بيان أو أثارة من علم أوضح أو أدق أو أثبت مما أتى بذكره.

وكثيرا ما ينقلنا من بدايات الخلق وأغراضه إلى أخبار الأمم السابقة على مرحلة نزوله، ثم يسقط الحوادث التاريخية على أناس عصره، ويؤكد على نمطية العنصر الإنساني النفسي والعقلي المستعلي بما حف به من النعم ، وما أغدق عليه من الفضائل وما أكسب من مهارة التسخير حتى أسس الحضارة وأسرف في الترف واستغمر في صنائف النعم حتى نسي عهده الأول، فكانت الحضارة سببا في بطره ودافعا إلى تنكره لسابق عهده وحكمة خلقه، فينسى ويبطر وينكر ويدحض ويجحد، ثم يشامّ بأنفه أن جعل له من الملك وأن أجرى له الأنهار وألهم من العقل والعلم ما سخر به السهل والبحر.

ينقلنا القرآن بين حوادث التاريخ غير معني بسنيها وتواريخها إنما فقط بالعبرة المستخلصة ، والدرس المستفاد، والوقفة المعتبرة والقلب المتفقه المتذكر، والسمع المصغي، والعين المبصرة؛ يأخذ بأسماعنا وأبصارنا وحواسنا وعقولنا إلى هذا المشهد الذي يتشكل فيه خلق الإنسان من النطفة ثم العلقة ثم المضغة إلى أن يغدو على الأرض له وئيد، ودبيب، فيجمع ويمنع ويبطش ويفجر .. فيأتي هذا المشهد العجيب واصفا تكوين الخلق الأول (آدم)، والخلق المتناسل من هذا الماء المهين، وهذا التعدد المرحلي من ضعف إلى ضعف متتابع حتى يصير إلى قوة، ثم إلى ضعف وشيبة .

ثم ينقلنا تارة أخرى إلى التاريخ القادم، أو مشهد النهاية بمعنى أدق، وتفاصيل هذا المشهد الذي يعج بالعجائب من الموت والبعث والنشور والحساب والجنة والنار.. وهذه الحوارات المتناقضة المتعارضة بين أهل الكفر وأهل الإيمان والملائكة والشياطين، واستعراض أمر الحياة الدنيا كأنها يوم أو بعض يوم، أو ساعة من ليل أو نهار، أو أكثر أو أقل (عشية أو ضحاها)، والتنابذ بين الشياطين وأتباعهم والتبرؤ والتنصل وتقاذف التهم .. ثم هذا الاحتفاء والتهاني والتداعي بين أهل الإيمان (المقربين وأهل اليمين) والافتخار بالفوز والفلاح والنعيم.

تعرض القرآن للحضارة البشرية التي شيدها العنصر الإنساني بمعزل عن التوحيد والعلم بالله، خالية من القيم والأخلاق، فجاءت وبالا على أصحابها وأسبابا لإهلاكهم واستبدالهم بقوم آخرين، فجاء ذكر عاد وثمود ومدين وإرم وفرعون ذي الأوتاد، والأنهار والأشجار والجنات والقصور، والنحت والتصوير.. وعن هذه الأسباب التي تقام على أصولها الحضارات، وتعكس صور التمكين للأمم وقوة الاستخلاف وعظم الانصياع الكوني لهم، ثم ما تلبث أن تكون هلكة لأهلها، ودمارا ووبالا على أصحابها إذ لم يذكروا فضل من أنعم عليهم ، وظنوا أن التمكين الذي فتح عليهم كان بما عندهم من العلم، وأن الحياة تعطي بأسبابها بعيدا عن رب الكون وخالق الأسباب، فتكون عاقبة الغرور والغفلة الهلكة والاستبدال.

كذلك يعرض لنا كثيرا من هذا الصراع الأزلي بين إبليس وذريته من طرف، وآدم وذريته من طرف آخر.. فيجلي لنا أسباب هذا الصراع وبداياته ومشهد الاستعداء والتوعد، والوعد الذي قطعه الشيطان على نفسه بأن يهلك آدم وذريته إن استطاع لما امتلأت نفسه من الحسد والكبر وحمق الاعتراض على الحكمة الإلهية التي ترفع وتخفض وتكرم وترذل وتصطفي وتبعد بمشيئة سامية لا تشرئب لفهمها نفس بشرية أو ملائكية أو شيطانية إلا أن يفتح ربي من أبواب رحمته علما وفهما!!

هذه المشاهد التاريخية التي تزدان ببراعة السرد وبلاغة الخطاب وفصاحة اللغة وسلاستها، تبز بها كل كتاب تاريخي أتى بعد أو قبل، ثم التوقف لاستخلاص العبرة، مع استحضار كوامن النفس البشرية ونوازعها، واستدعاء حواس الجسد الفطرية لتكون جد حاضرة لاستيعاب الدرس من خلال حضور العقل واستماع القلب .. هذه العبرة التي تتأتى جلية من هول ما أحاق بالأمم السابقة من الصواعق والنوازل والكسف والخسف، وما من به الله على بعضها من التمكين والتوريث والاستبدال من حال الضعف إلى ملاك القوة، وامتلاك الأسباب وتسخير الطاقات البشرية والكونية بما أسلموا وآمنوا وأقاموا منهج الله في أنفسهم وفي الأرض التي مكنوا بها.

نستعرض بعضا من رحلة القرآن التاريخية الثرية الحاضرة ابدا بين أيدينا، وإن انتهت أحداثها وغبرت أشخاصها في ثنايا التاريخ وطي صفحاته، إلا أن المشاهد حاضرة في سطور الكتاب، وقوانينها وسننها لا تعرف التغيير ولا التحويل ولا التبديل .. لنرى من أنفسنا من خلال هذه المشاهد والحوادث ونعرف أماكننا من التاريخ والتمكين وما ينتظرنا في قوابل الأيام والتاريخ والحوادث.

"لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون". [الأنبياء].

المنهج القرآني في تناول التاريخ

تطورت الفكرة التاريخية حسب تطور الفهم البشري من مجرد عملية السرد والتأريخ لتتابع الأحداث إلى شكل أكثر تعقيدا من هذا وأعمق، وهو الارتقاء من الأسلوب السردي إلى الفهم والتحليل والتدقيق؛ والدروس والعبر؛ هذا بعد الجهد الموثق في اقتناء وجمع المعلومات من مصادرها المعتبرة، ثم الانتقاء الدقيق كذلك بين هذه المصادر وتصنيفها حسب درجة التوثيق ..

كما تنوعت المدارس التاريخية من مرحلة بساطة الحكاية إلى شكل النظرية ثم المنهج والأسلوب لكل نظرية ؛ فالمدرسة السردية ثم التحليلية (استخلاص العبر والدروس) إلى المدرسة التأويلية (التأويل الرمزي): وهي التي تعني باعتبار أن كاتب التاريخ لا يخرج عن كونه أحد نماذج العنصر البشري الذي لا يستطيع التجرد الكامل أو الانسلاخ من واقعه أو نفسه، فيغلب طابعه البشري عليه، وقد تميل النفس به ذات اليمين وذات الشمال حين نظرته للأحداث وتسجيله للوقائع.. فلا يستطيع أن يكون الإنسان في النهاية إلا ذاته، فيرى ما يرى ويسجل قراءاته على حدث عاشه أو درسه من خلال هذه الرؤية وهذه الخصوصية، فهو لن يكون إلا بشرا يجري عليه قوانين الخطأ والصواب والميل والانحراف. ومن خلال هذا الطابع البشري من الغضب والميل والتحيز والرضا والسخط، وبالتالي يتنزل كل هذا على طريقة المؤرخ في التناول أو التفسير أو التأويل للأحداث التي يعاصرها.. وربما يلجأ إلى لغة أقرب ما تكون إلى الرمزية للتعمية أو التورية على بعض ما يريد ذكره من أحوال الملوك والأمراء والسلاطين، ومثالب الأحوال والبلاد والأرزاق خوفا من بطش حاكم أو صاحب سلطة، وتحاشيا لحالة الصدام التي دائما ما يدفع فيها الكاتب أو المؤرخ من نفسه وحياته ثمنا باهظا، أو يجر عليه قلمه من الويلات ما قد يضيع به جهده أو عمره.

ولا تزال الدراسة البشرية والتناول لعنصر التاريخ يتراءى لها كل يوم جديد، ويتبدى لها من تراكم المعرفة وتكاثر الخبر ما تطلع به على علم ما لم تعلم، والتزود من بصيرة الفهم والاستنباط والعلم ما يزيد ثراءها المعرفي، ويضيف إلى رصيد العقل البشري لينقله من مرحلة إلى مرحلة ومن درجة إلى أعلى منها، كما يقول (هيجل):

"التاريخ البشري هو تاريخ تطور العقل ، وتطور وعي الإنسان بذاته وبقدراته ، وهو المسار الذي كافحت فيه الروح الإنسانية لكي تصل إلى حريتها.. فالتاريخ ليس إلا تقدم الوعي باتجاه الحرية، إن كل مرحلة من مراحله تمثل درجة معينة من درجات الحرية". (١)

يعدد د. مصطفى النشار، نظريات تناول التاريخ حسب موقعها التاريخي ونمطية الدراسة كما يلى :

"النظرية الدورية في تفسير التاريخ : التاريخ عبارة عن دورات متتابعة ، كما عددها ابن خلدون في خمسة مراحل: طور البداوة ، ثم طور التحضر وتأسيس الدولة ، ثم النهاية في طور التدهور والانهيار.

نظرية العناية الإلهية والتخطيط الإلهي للتاريخ : تبناها القديس (أوغسطين)، وهي فكرة أن الأمر الدنيوي ما هو إلا تحقق لما هو مقدر مسبقا من الأمر الإلهي والذي خطته العناية الإلهية ، وأن الإنسان ما هو إلا أداة في يد المقادير لتحقق هذا الفعل بعناية إلهية فائقة .. حول (المؤقت وهو الإنسان ، والأبدي وهو الله).

نظرية التقدم وتأكيد الفعل الإنساني في التاريخ : التقدم الإنساني يسير بالتاريخ والحضارة الإنسانية في خط متصل نحو الأفضل والأكمل وهو محور هذه النظرية.

بالإضافة إلى نظرية الفيلسوف العربي (ابن خلدون) الذي قدم أول نظرية في (التفسير التاريخي)، ثم تبناها من بعده الفيلسوف الإيطالي (فيكو) الذي عرف في الغرب الأوربي بأنه أول من أرسى قواعد (فلسفة التاريخ).

ثم توالت النظريات الفلسفية المفسرة للتاريخ كان من أشهرها: نظرية التقدم (فلاسفة التنوير) على رأسهم (فولتير وكوندرسيه)، ونظرية العقل يحكم التاريخ (هيجل).. والتفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ (كارل ماركس، وإنجلز)، والتفسير البيولوجي، والتحدي والاستجابة، ونشوء الحضارات (أرنولد توينبي)"(٢)

أما التناول القرآني فيختلف كثيرا عن التناول البشري، فالمسافة بين الأسلوبين هي نفسها المسافة بين الخالق والمخلوق، بين ما هو مطلق وما هو نسبي، بين العلم المحيط والقائل الذي لا يعجزه من أمر الخلق شيئا، بل هو من أوجد الخلق ومن قدر أن يكونوا على هم عليه، ومن مكن لصاحب الملك والإمارة في ملكه وإمارته، ومن خلع على صاحب السلطان سلطانه" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)"[آل عمران].

ولذا.. فهو لا يتكلف ولا يتحرج مما قد يقع تحت تأثيره العنصر البشري فتأتي صياغته منتقصة أو مجتزأة أو مرموزة ثم تترك للقارئ دوره في التأمل والتفكر بعقل لاستنباط ما قد يرمي إليه المؤرخ من معنى لا يريد الإفصاح عنه.

وفي التناول القرآني لعنصر التاريخ لا نملك إلا أن نقطع بالمصداقية التي تعكس الحقيقة الكاملة، حيث التجرد كما بينا من كل ما يشوب العنصر البشري من نقص، وما يعتريه من زلل وسقط، ثم هو لا يقف على الأحداث بكامل تفصيلاتها إنما هو فقط يفصّل حين يتحتم التفصيل، ويقصر حين يستحب القصر مع السلاسة والطلاقة والبلاغة والإتيان على العبرة والدرس بأحسن أسلوب ومن أيسر طريق .

وإذا كان التناول البشري يعتمد في تأريخه على التوثيق والتدقيق في المراجعة والدراسة للوثائق وتواريخها، ثم التعويل على درجة التصنيف لمصداقية الوثيقة ونزاهة الكاتب التي تقيس مدى الاعتماد على نصوصه والاخذ بها، أو نبذها حين يجرب عليه من أهل العلم التدليس أو الكذب أو الاختراع.

يكفينا السرد القرآني كل هذا الجهد من التوثيق والتدقيق ودراسة أحوال الكاتب وظروفه البيئية والاجتماعية إذ يبلغ كلام الله منتهى الغاية في التوثيق والتدقيق والتبيان، فهو الذي "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"، وهو الذي "وبالحق أنزلناه وبالحق نزل"، وهو الذي "ذلك الكتاب لا ريب فيه"، لا يرد علمه، ولا يستقصى خبره، ولا تأتي عليه الحوادث لتزيد من خبره أو تنقص، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تفنى من عبر التاريخ عجائبه ولا غرائبه، ولا يصل المفسرون لمنتهى علمه، ولا يقف البلاغيون على نهاية غرضه، ولا يفنى على كثرة الدرس والتأويل غريبه ولا عجيبه.

وقد يحتج على هذا غير المؤمنين بهذا الكتاب، إذ ليس لزاما عليهم أن يقنعوا بهذه الرؤية إذا كانوا غير مؤمنين بالأصل، ولكن نقول أن هذا الخطاب للمؤمنين به فقط، ولا التفات لغيرهم إلا أن يحققوا من خلال البحث التاريخي ما يذكره القرآن، وما تنطوي عليه صفحاته .. كذلك أن الموضوع المتناول هو "التأصيل القرآني للمنهج الحضاري" وبالتالي فنحن لسنا مطالبين بتحقيق ذلك من خلال المناهج البحثية الأخرى، إلا أن نستعين ببعضها فيما يوافق الرؤية القرآنية .. وأما ما عدا ذلك فلكل كاتب رؤيته ولكل باحث منهجه.

"إن الرؤية التاريخية ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا، أي سورة قرأت، أي صفحة شاهدت، طالعتك هذه العروض المسهبة أو الموجزة إلى مواقف تاريخية؛ لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقا رائعا ومتكاملا للتفسير الإسلامي للتاريخ .

ومن أجل تواجد هذه المساحة الواسعة على هذا الجانب الحيوي في القرآن، كان التفسير الإسلامي أمرا حتما، ما دام كتاب الله يضرب دوما على هذا الوتر الحساس، ويدعو المتأملين والدارسين إلى الخروج في أعقاب مطالعاتهم التاريخية

بنتيجية نهائية عن مصير الحركة البشرية في الزمان والمكان ، ودور الإنسان والقوى الكونية في أمدائها القريبة والبعيدة".(٣)

فالمنهج القرآني يجمع من مختلف النظريات التاريخية (السرد والتأويل واستخلاص العبر والدروس)، ويكفينا بطلاقة المصداقية والتوثيق البحث والتقليب في صحة المصادر؛ كما هو لا يقف على سنوات الحوادث إلا بذكر الترتيب الزمني (البعدي والقبلي) "ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين"، " ثم أرسلنا رسلنا تترى".. "وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة".. "ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس".. "ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات" ..

ثم يأتي القرآن بعد كل حدث ليذكر لنا بعد العبرة والموعظة وخطاب العقول والقلوب، واستدعاء روح الطبع البشري الذي من أصل فطرته الاعتبار بمثاله، والوقوف على ما جرى من خبر القرون الأولى؛ يذكر القرآن عقيب كل حدث أو قصة تاريخية بعضا من سنن التاريخ وقوانينه التي لا تعرف التغيير ولا التبديل، ولا تتوقف أو تتأخر إذا ما تحققت حتمياتها، وتوفرت أسبابها فلابد من تحققها سواء كان ذلك مع أهل الكفر أو أهل الإيمان، وسواء كان من سنة الهلاك أو التمكين.. وهنا نرى أن النظرية القرآنية إن صح أن يطلق عليها لفظ (النظرية) في تناول التاريخ تعتمد كلا العنصرين [التاريخي . التحليلي]، وهو ما عناه ابن خلدون في مقدمته من إيقاع اللوم على صنوف المؤرخين قبله، والذين عمدوا إلى نمطية السرد الخالص دون التوقف عند الحدث بالتحليل والتدقيق واستخلاص العبر والدروس، ولذا سمى كتابه [العبر وديوان المبتدأ والخبر]؛ ثم عمدت المدارس التاريخية بعد ذلك هذا النمط القرآني في السرد والتحليل واستخلاص العبر..

كذلك يحذر القرآن ويوقظ أهله إلى أن الواقع في أحداث القصة ليس مقتصرا على اللحظة التاريخية الراهنة للواقعة أو الحدث أو الأمة، إنما هي لا تخرج عن سنن وأسباب ومسببات تكاد تكون نمطية في التاريخ ربما تكون متحققة في القابل كما تحققت في الماضي ذلك إن وجدت أسبابها وتوفرت مسبباتها دون تأخر أو تنكب أو نكوص كما يقول"وما هي من الظالمين ببعيد".. "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يفعلون".. "وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ".. "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين"." أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير"، فاعتبروا يا أولى الأبصار".. "أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم".

وأن هذه السنن لا يعجزها قوة ولا تحول دون تحققها منعة من أموال أو كثرة في المال ولا في العدد "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا".. "وكذلك حقت كلمة ربك"، "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد".

ينكر أصحاب النظريات التاريخية فكرة حتمية السنن وتكررها ك(هيجل) بحجة أن "الارتداد إلى الظروف المماثلة في الماضي للحكم على الحاضر على ضوء تلك الظروف لا يصح، لأن مصائر الشعوب والدول ومصالحها وعلاقاتها ونسيج شئونها المعقد في الحاضر يختلف أتم الاختلاف عن المصالح والعلاقات ونسيج الشئون في الماضي ، وبالتالي لا داعي إلى العودة إلى الماضي لأن التاريخ لا يكرر نفسه.. " (٣)

وهذا ما يخالف حتمية المنهج القرآني، وما سيتضح بيانه فيما هو قادم.

١. هيجل [فلسفة التاريخ].
٢. فلسفة التاريخ د. مصطفى النشار (بتصرف).

٣. التفسير الإسلامي للتاريخ . د.عماد الدين خليل.
٤. هيجل [فلسفة التاريخ].

النسق القرآني في صناعة الحضارة

ربما تنتج الحضارات ثقافات وقيما بعد اعتلاء بعض البشر سدتها وامتطاء صهوتها، وبعد الأخذ بأسباب الحضارة المادية التي تقود إليها، والتي منها العصبة والهدف والقوة المادية، مع قوة الفكرة ؛ فكرة التغلب والتوسع والهيمنة التي لا تتوفر لكثير من الشعوب وإن ميزوا ببعض طرائق الذكاء والمال؛ إلا أن العامل الشخصي أو الدافع النفسي هو المحرض الأول لبناء الحضارة(١).. وقد عول بعض الفلاسفة على البعد الديني بحجة أنه حامل الفكرة وموقد الشرارة الأولى وصانع النفوس وموقظها من رقدة العدم وغياهب التخلف والرجعية، كابن خلدون وجوستاف لوبون، ومالك بن نبي في كتابه (مشكلات الحضارة).

هذه الثقافة الناتجة تتأتى من خلال الممارسة العلمية والعملية لمنتجات الحضارة، يتجلى هذا في السلوك البشري من العمل الاجتماعي والنتاج الأدبي والأخلاق، والقيم المجتمعية، ووسائل التربية والفنون والعلوم، وطريقة التعاطي مع العلوم ومناحي توجيهها وتوظيفها (الأخلاق العلمية)، والأخلاق المهنية، والعدل الاجتماعي وإدارة الأزمات الاقتصادية من خلال الأخلاق الاقتصادية، والاستراتيجيات العسكرية وسلوكيات الجوار والعلاقات في وقت السلم والحرب.. كل هذا من ألوان الثقافة التي تنتجها الحضارة.

أما الثقافة الإسلامية فالحال بالنسبة لها معكوس، إذ الثقافة الإسلامية هي العامل السابق والرئيس في إنتاج الحضارة الإسلامية، وإذ لم تقم حضارة الإسلام حتى شيدت أصولها على دعائم من الأخلاق والقيم والأدبيات الدينية الراسخة

في النفوس حتى صارت جزءا لا يتجزأ من طبائع هذه النفوس ثم تجلت هذه الطبائع في السلوك حتى صارت مضرب الأمثال في التاريخ في أخلاقيات الحضارة.. "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)"[الجمعة]، " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)" [آل عمران].

((ويزكيهم)).. هذه التزكية أو التطهير هي صميم الإعداد النفسي للنماذج التي أنيط بها حمل شعلة الحضارة لتجوب بها آفاق الكون من شرقه لغربه ، دون أن يختل بيدها أو بداخلها ميزان العدل، مما قد يدفعها إلى الانكباب على زخرف الدنيا من موروثات الحضارات السالفة، أو السطو على مقدرات البشر ممن هم على خلاف العقيدة أو العرق أو الدم ، أو الالتفات بشيء من الحيف أو البغي إلى ما أعطت الحياة من زهرة الكسب للغير ممن اجتاحتهم عوامل الحضارة الإسلامية الصاعدة، حيث صارت لها الغلبة وشاءت الأقدار على غيرها الصغار.

يتجلى بعض هذا الفهم في قوله: "قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة"، وقد عقب القرآن على قول بلقيس مخاطبة قومها بجوابه" وكذلك يفعلون"، كذلك السعي الحثيث في التطهير العرقي والصراع المذهبي والاجتثاث الثقافي أو الهويي الذي يتجلى في سلوكيات الغالب وما يسمونه "سلطة الثقافة الغالبة"، وقد لمحنا هذا جليا في محاولات الاستعمار الحديث في المنطقة العربية خاصة والشرق عامة، حين حاول تغيير اللغة العربية في المغرب العربي، والثقافة الإسلامية في مصر، وانتهاب ثروات تلك الدول المادية والتاريخية دون مراعاة لقيم أخلاقية أو مورثات دينية، أو إنسانية.

ربما يدفع الطابع البشري إلى ازدراء أو هضم شيئ من حق المغلوب؛ لذا فقد كان لزاما كما ارتأت الشريعة أن تتزكى هذه النفوس أولا، ثم تعد إعدادا تربويا نفسيا راسخا لتكون لديها المقدرة على تجاوز كل ما يعترض طريقها النفسي والعملي من مشقة الاختبارات الدنيوية التي جبلت النفوس على الولوع بها، وإمكانية الركون إلى جوارها، وما قد يودي بها مؤخرا إلى ما أودت به فيما نراه في أخلاف الحضارة الإسلامية، مما ينبي عنه الحال فضلا عن المقال.. لذا نجد عمر رضي الله يقتص للقبطي من واليه (عمرو بن العاص) وابنه، حتى يرسخ لمفهوم العدل كقيمة منهجية أصيلة من أصول قيام هذه الحضارة.

وكان لزاما أن تعدل دعوة الخليل (إبراهيم) من "ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم" إلى "ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة".. وهذا منتهى العمق في التربية والإعداد ليكون درسا تربويا لأهل هذا العلم أن لابد من "التخلية قبل التحلية "، أو تزكية المحل وتطهيره قبل شغله وتعليمه.. من هنا كان شعار الإنصاف حتى من النفس ومن أصحاب السلطان فضلا عن السوقة لأصحاب الأديان والعقائد التي دهمها الإسلام لا السيف والخوف والترويع كما دأبت سنن الحضارات من قبلها: "قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)"[النمل].

لقد نزل القرآن طيلة ثلاثة عشر عاما بمكة، وبعدها عشر سنوات بالمدينة.. نزل منجما معلما مربيا؛ حتى كان الواحد من الصحابة لا يتجاوز العشر آيات حتى يتعلم ما بها من الأحكام والآداب والتشريع والعلم، وهكذا كما قال معاذ رضي الله عنه "فعلموا من القرآن وعلموا من السنة "، فعلم هذا الجيل وتخلق بأخلاقيات الحضارة وثقافتها قبل أن تكون الحضارة، فلما جاءت الحضارة كانت صناعتها على عين من الأخلاق والقيم الإسلامية، ولما أذن بفواتها لم تسقط القيم والثقافة، بل بقيا عمادا لقيام الحضارة من جديد حين يؤذن بعودتها.

لقد كان من خصوصية الحضارة التي قامت على التربية القرآنية أنها تخلصت من سطوة الفرد صاحب الكاريزما المنوط به صناعة التاريخ أو الأمة؛ الذي يلوك شعارات الفخر والحماسة على الشعوب ليل نهار، ثم ما تلبث الجماهير أن تفجأ بخوائه حين يجد الجد وتشتد الأزمة .. فما من زعيم إلا وهو مهزوم أمام منايا الدهر، ومدحور أمام عجلة التاريخ مهما كانت مقوماته النفسية والروحية والبدنية.

وقد رأينا من نماذج الزعماء في التاريخ ماهو غائبنا عن ذكر الأمثلة وإن كان لابد فلا يخفى علينا ما أودى به رواد الحضارة الحديثة، وما تمخضت عن سلوك لزعماء الحرب العالمية الأولى والثانية، وما فعله جنكيز خان بالمغول في المشرق العربي الذي هدم فيه مكتبة بغداد، وأوقدت فيها النيران، وطرحت الكتب لتكون جسرا يعبر عليه نهر الفرات.

وما خلفت الحرب العالمية الأولى والثانية من ملايين القتلى وصور الخراب والدمار الذي حل بالعالم؛ وهو ما يوحي بما أصاب البشرية من جراء تخلف الحضارة الإسلامية التي جاءت لحفظ الحرث والنسل، وترسيخ قيم البناء لا الهدم.. وكذا كان لدينا من نماذجنا الشرقية ما استجلب على الأمة أن تدفع الأثمان الباهظة من الأرواح والأموال والمقدرات.. لا زال نزيفها جار حتى الآن.

كذلك لا يخفى علينا حركة التحول التاريخي التي ألمت بالمنطقة العربية بعد سقوط الخلافة الإسلامية والتي تمحورت حول دور الفرد الثائر، والقوميات المتباعدة (العربية والطورونية والمصرية والشامية و...)، والتي أفرزت كثيرا من الشخصيات المميزة إما بكارزما خاصة؛ أو بمقومات عقلية متميزة، إلا أنها كانت أبعد ما يكون عن الفكرة الإسلامية التي لا ترسخ للفرد أو تلتف حوله كما تفعل الثورات فربما تموت بموته أو تحيا بحياته كما رأينا في بعض الزعماء الحداثي في المنطقة العربية .

يقول د. مصطفى النشار"إن الخلفاء المسلمين أنفسهم قد فشلوا في أن يجعلوا تصورات المؤرخين والعلماء في شتى فروع المعرفة خاضعة لإرادتهم، أو متأثرة بأفكارهم .. لقد تجلت هذه النظرة الحضارية للتاريخ عند المؤرخين المسلمين في مؤلفاتهم التي حملت في معظمها عناوين دالة على ذلك، فهناك طبقات الفقهاء للشيرازي ثم الشافعية للسبكي والحنابلة لأبي يعلى، وهناك طبقات المتكلمين والمعتزلة (لابن المرتضي) والأشاعرة (لابن عساكر) وطبقات الصوفية للسلمي وطبقات الشعراء لابن سلام، وطبقات الأطباء وغيرهم.."(٢).

وذلك مما يوحي أن التاريخ الإسلامي قد ركز على العنصر الأكثر فاعلية في التأريخ للجانب الحضاري وهو الفرد المتحقق الأكثر نفعا وفائدة لأمته علميا وثقافيا مما يخدم رسوخ الحضارة واستمراريتها؛ لا تأريخ تبعية وحركة مدارها

الأمراء والحكام وأصحاب السلطة من مثل ما طرأ على مدنيتنا المفتعلة في العصر الحديث، والتي أخضعت مسار الحدث للأفراد لا المنهج، وبالتالي فقد صارت تحول عليها قوانين التحول والصيرورة والحتميات التي تدور على الأفراد من الإخفاق والانتكاس والهزائم، مع جبرية التراجع الحضاري طبقا لقوانين الحضارة وحتميات التاريخ.

يعرف على عزت بيجوفيتش الثقافة والحضارة والفرق بينهما، فيقول:"الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان وتأثير الإنسان على الإنسان، بينما الحضارة هي تأثير العقل على الطبيعة .. تعني الثقافة الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فهي فن يتعلق بالوظيفة والسيطرة وصناعة الأشياء تامة الكمال؛ الحضارة هي استمرارية التقدم التقني وليس التقدم الروحي ، كما أن التطور الداروني هو استمرارية للتقدم البيولوجي وليس التقدم الإنساني.

الثقافة شعور دائم الحضور بالاختيار وتعبير عن الحرية الإنسانية، وخلافا لما تذهب إليه الحكمة الإسلامية بضرورة كبح الشهوات، يحكم الحضارة منطق آخر جعلها ترفع شعارات مضادا"أخلق شهوات جديدة دائما وأبدا"، الحضارة تعلم أما الثقافة فتنور ، تحتاج الأولى إلى تعليم والثانية إلى التأمل."(٣)

وكذا يرى د. عبدالحليم عويس تفسير الظاهرة القرآنية للتاريخ الإسلامي، وتفسير التاريخ كتجسيد للظاهرة القرآنية والسنة النبوية من خلال حركة التاريخ كما سطرتها الآيات وفصلتها السنة ثم جسدها التاريخ لهم وعليهم واقعا شاخصا بحلوه ومره، ونجاحاته وإخفاقاته:

"تاريخنا الإسلامي كتاب كامل من التكاملية التاريخية، يضم بين صفحاته كل صور التقدم والتخلف، وهو معلم عظيم اشتملت صفحاته على كل تجارب التاريخ البشري، وليس ذلك لأن القرآن الكريم قد حكى على نحو تركيبي كل صور التقلب والحركة والهبوط والارتقاء التي مر بها الموكب البشري، والتي تغني التطور الإسلامي وتكفل له الاندفاعة العاقلة .. ليس مرد الأمر إلى ذلك وحسب، بل لأن كتاب التاريخ الإسلامي نفسه قد شاء الله أن يكون له من التكاملية والحبكة والتنوع بحيث يصلح كمرجع تال للقرآن والسنة يرجع المسلمون إليه ويتعلمون منه ، ويتلقون منه تلقي التلميذ من الأستاذ" (٤)

١. مقدمة ابن خلدون .. بتصرف
٢. فلسفة التاريخ د. مصطفى النشار
٣. الإسلام بين الشرق والغرب(على عزت بيجوفيتش).
٤. أوراق ذابلة من حضارتنا (د. عبدالحليم عويس)

بناء النفوس وبنيان الحضارة

يتشابه بنيان العمل بل يتطابق مع هذه النفس التي أخرجته، وما كان ليحيد عن تكوينها الفكري شيئا ولو يسيرا!! ومهما جدّ الإنسان واجتهد في إخراج عكس ما بداخله، فلن يفلح؛ بل تفضحه دواخله من نفسه، وليس يكشف من طريق آخر، فهو يظهر من القول والفعل ما يشي عما بداخله، وقد رُتب له حينا من الدهر وأعد له إعدادا، ثم يخرج عفوا أو عمدا حين تغالب الدواخل صاحبها فتغلبه معلنة عن نفسها، ويستبين ـ طوعا أو كرها ـ ذلك المكنون.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الفطرية ، بل جعلها مقياسا لصدق دعاوى البشر فيما يدعون؛ لا أن يحكم الناس على دواخل بعضهم بعض، ولكن أن تفصح الأعمال عن دعاوى النفوس من الإصلاح والإقبال والمحبة والإحسان، فما تلبث أن تطابق الأعمال الدعاوى أو تخالفها فيكون الحكم عليها عن بينة وآية .

هكذا يقارب القرآن الأعمال مع النوايا "وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى".. "قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر".. " يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم".. "ولتعرفنهم في لحن القول"

إن هذا المرآة النفسية لا تعكس إلا ما يموج بداخلها من الخبيث والطيب، ولا يجوز لها أن تناهض فطرتها التي جبلت عليها، وإلا لالتبس في الكون الحق بالباطل، وعمي على البشر الصالح من الطالح، والغث من السمين.. ولكن أبى الله إلا تنبئ كل نفس عما انطوت عليه وتعلن عما أضمرت دواخلها، شاءت أم أبت.

وهذه قاعدة أصولية في العمل أسس عليها القرآن قبول العمل، فلا يقبل إلا أن يطابق ظاهره باطنه، ويخلص فيه القلب قبل اليد واللسان، وما خالف ذلك فهو مردود مرفوض ، بل مأزور غير مأجور، وقد أكده القرآن في قوله " إن الله لا يصلح عمل المفسدين"، "ولا يفلح الساحر حيث أتى"، "إن الذن يفترون على الله الكذب لا يفلحون "، "إنه لا يفلح الظالمون".

وحين نمرر هذه القاعدة نجدها أساسا متينا ومقياسا عدلا في الحكم على الأعمال العامة والخاصة .. في الدول والشعوب والمجتمعات والمؤسسات، وهذا ما يتجلى في قوله "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)"التوبة.

إن دعاوى الإصلاح والإعمار والإحسان لتلوكها الألسن ليل نهار، وتدبج لها وسائل الإعلام (الإكذاب) صباح مساء، وقد نرى من بعض مظاهرها قليلا أو كثيرا كما ادعى من قبلنا من تأسيس مسجد لإقامة الصلاة، بل وأقسموا جهد أيمانهم ما أرادوا بذلك إلا الحسنى، ولكن شهد الله على كذب دعواهم وبطلان عملهم..

ولو كان هينا أن تصح أعمال الدعاة وتخلد وتنفع بغض النظر عما أسست عليه هذه الأعمال من فساد النفوس وبطلان الفكر الذي قامت عليه لانصلح كثير من حال الكون ولأرغد وجه الحياة، لكن كما قيل "إن الناقد بصير"، والنوايا الفاسدة لا تنتج أعمالا صالحة .

لقد شاعت في بلادنا منذ عصر النهضة وسقوط الخلافة، شاعت أفكار وفلسفات ورؤى ودعوات إصلاحية، وأيدولوجيات وأفكار مستوردة أو مستهجنة أو مستولدة؛ فمن القومية العربية والبعث العروبي إلى الاشتراكية والرأسمالية إلى العلمانية والليبرالية وصولا إلى الحداثة، وما بعد الحداثة .. فأي هذه الفلسفات والرؤى والأفكار أثمر شيئا في بلادنا رغم ما جد به دعاتها وأجهدوا في اعتناقها ودافعوا عنها، فرضا بالقوة وقهرا، وكتابة وتدبيجا ، وإعلاما وصحافة ، ونوادي اجتماعية، وروابط وتجمعات واتحادات ونقابات!!.

قد آل كل ذلك إلى بوار ولم تغن عن أصحابها شيئا، ولم تنتفع بها بلادنا شبرا أو ذراعا، وإن آثارها الهدامة على بلادنا لا تخفى على ذي عقل، ولا تخطؤها عين حيث ولت شرقا أو غربا، ولم تفلح دعاوى المبطلين الذي أجهدوا أن يخرجوا هذه الأمة عن ناموسها الطبيعي الذي نشأت عليه وأثمرت على يديه حيث لم تثمر قبله حين كانت في جاهليتها، ولم تثمر بعده حين تخلت عن أصولها التي قامت عليها حضارتها، فسمت معها وسمت بها.

"أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)"[التوبة.] إن هذه القاعدة التأصيلية في بناء الأفكار والرؤى الإصلاحية ، هي ذاتها الأصل في بناء الحضارات المستنبتة والمستولدة من ثقافة الصدق والمطابقة بين أعمال الباطن والظاهر، وأن المنطلق الذي تهب منه الحضارة لا يكون اعتمادا على دوافع نفوس مريضة ، ولا شيفونية زهواء، ولا نرجسية عمياء لا ترى في الكون إلا نفسها، ولا تنشد إلا أن تخلد أسماءها وترضي غرور أمراضها ودواخلها الخربة.

قال القرطبي رحمه الله "وَالْجُرُفُ: مَا يَتَجَرَّفُ بِالسُّيُولِ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَهُوَ جَوَانِبُهُ الَّتِي تَنْحَفِرُ بِالْمَاءِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجَرْفِ وَالِاجْتِرَافِ، وَهُوَ اقْتِلَاعُ الشَّيْءِ مِنْ أَصْلِهِ." هَارٍ" سَاقِطٍ، يُقَالُ. تَهَوَّرَ الْبِنَاءُ إِذَا سَقَطَ، وَأَصْلُهُ هَائِرٌ، فَهُوَ مِنَ الْمَقْلُوبِ" وهكذا جعل القرآن الحكم على هذه النفوس المريضة ، وعلى أعمالها بالانهيار والبوار إذ لم تكن ثمة مطابقة بين ما تطويه النفوس من سوء الطوي، وما تظهره الأعمال ولو كان ذلك في إقامة مسجد أو أبنية وزخرفة وبناءات وتشييد بدعوى الحضارات.

"وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) " [البقرة].

وهنا يؤكد القرآن كذلك على ضرورة (تثبيت) النفس وانطوائها على نوايا الخير وبغية الإصلاح، ومتى ما تحقق ذلك حتى يؤتي أكله أضعافا مضاعفة، ثم تكون المكافأة على قدر عين الناقد البصير، إذ يوفي كل عمل بقدر ما نوى ، إما وابل من الجزاء، وإما طل .. وجماعه كله خير طالما صلحت الدواخل، وطابقت الأعمال النوايا.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

لكن هذا مثل آخر لمثل هؤلاء الذين خلت أعمالهم من ثبات النفس والتبييت على الخير والإصلاح؛ فما تلبث هذه الأعمال أن تبور حين ما يكون صاحبها في أمس الحاجة إليها ، حين تنقطع به السبل، ويمتد به العمر، وتوهن منه القوة القادرة على العمل والعطاء، حينئذ يسقط في يده، ويحترق ما قدم بين يديه إذ لم تنطو نفسه على نية أصيلة صادقة.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) [التوبة]،

هكذا تقطّعٌ تلك النفوس وقلوبها حسرة على بنيانهم المشيد على أسس من النفاق والشك والريبة، وهكذا جزاء كل من تصدر لدعوى باطلة أو فاسدة لم يرد بها وجه الحق، ولم تخرج إلا من نفس دعية مريضة ابتغت ذكرا بين الناس وإشباع غرور أسير في نفس مريضة ما لها من قرار.

وهكذا لا تعرف الشريعة الإسلامية هذا الانفصام بين الداخل والخارج، أو الظاهر والباطن ؛ إنما تؤسس وتؤصل لنفوس طيبة وأعمال صالحة تصلح بها الحياة ويرشد بها الكون، وتبقى النواتج عنها من آثار الثقافة والحضارة باقية خالدة، وإن أتت عليها يد التخريب ، كما فعل المغول والغرب في تراث ما شيدته الحضارة الإسلامية، وإن خبت مظاهرها وعفت آثارها إلا أن ثقافتها باقية لم تخب ، ولا يزال صداها في الغرب مدويا يعلن كل حين علماوه وحكماؤه الإذعان إليه ، إذ يدخلون في الإسلام بعد قناعة عقلية وبحث علمي دقيق مستمر لسنين عديدة.

إن الحضارة الأوربية لم تثمر يوما ما حين ظل أصحابها في مجاهل التاريخ قرونا عدة ، حتى جاءتهم ثقافة الإسلام وعلومه فانفعلوا بين هذا وذلك، وعلموا أن العمل الصالح الهادف إلى بناء الحياة الصحيحة هو الأساس المكين في إعادة استيلاد الحضارة على أسس راسخة بعد كمونها.

" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)"[إبراهيم].

بين الفردية والمنهج(صناعة الحضارة)

قد يكون بعض الأفراد محور الحدث التاريخي، ذلك بما ألهموا من إرهاصات القدرات الفردية العقلية، والشخصية (الكاريزمية)، والنبوغ الفكري؛ والأدبي والعسكري .. ولا يتكرر أمثال هؤلاء في أزمان التاريخ إلا نادرا (الإسكندر الأكبر، أرسطو، سقراط، نابليون، نيوتن، إينشتاين، ماركس ، لينين،..)..

والفارق في فكرة التكوين بين الحضارتين الغربية والإسلامية فارق كما ذكرنا بين جهد بشري عقلي يصيب ويخطئ، ومنهج سماوي منزل بوحي شمولي لا يدع شاردة ولا واردة إلا أتى عليها إجمالا أو تفصيلا .. أو أجملها ثم ترك تفصيلها وتطبيقها للعنصر البشري.

فالحضارة الغربية قد كانت بجهد بشري مدفوع من أشخاص ذوي نبوغ وكاريزمات ومقومات تتمايز كثيرا عن أقرانهم من البشر، هؤلاء منوط بهم لما ألهموا من هذه المواهب أن يبذروا بذور التغيير الحضاري، ويستلهموا فكرها، ويؤسسوا عمدها العلمية والثقافية والروحية والعسكرية والاقتصادية.. وليضعوا تلك الفلسفات التي يهتدي بها من يعنوا بترجمة مضامينها إلى واقع عملي يقود بدوره إلى بناء حضاري؛ مثلما حدث إبان عصر النهضة الأوربية التي قادت إلى ولادة

الحضارة الحديثة على يد كوبرنيكوس وجاليليو ونيوتن ودانتي وميكافيللي ومارتن لوثر.. ومن قبلها كانت الحضارة اليونانية وريثة الفرعونية والبابلية.

لم تكن الحضارة الغربية قديما ولا حديثا مدفوعة بفكرة دينية كما يدعي البعض أن المسيحية كدين هي مولدتها، إنما كان الرومان ورثة اليونان والبطالمة وامتدادا لهم، ثم جاءت العقيدة المسيحية بعد حقب من حكم الرومان حين اعتنقها الامبراطور قسطنطين (٣٣١ م) ، ثم راح من بعده يفرض مذهبها على رعايا دولته، بل قد راح يفرض مذهبه على أصحاب المذهب الأصليين من مسيحيي الشرق (الأرثوذكس)، حيث أراد أن يدخلهم كرها تحت عقيدته (الملكانية) في حين كانوا هم على (اليعقوبية) ولا مجال هنا للتفصيل..

إنما أراد الرومان أن يستغلوا اعتناقهم للمسيحية ليفرضوها على أقطار الأرض مذعنين كارهين غير طائعين بعد أن نصبوا أنفسهم سدنتها ورعاتها دون تفويض من الله؛ هذا على بطلان عقيدتهم بعد طول الأمد عليها، وتقادم العهد بينها وبين بعثة المسيح (عليه السلام) ورفعه إلى السماء كما أكد ذلك القرآن مبطلا ومفندا ادعاءاتهم ، وبعد أن بدلت عقيدتها من التوحيد إلى التثليث والتحريف؛ ثم استشرت بين طوائفها الحروب، حتى صدق القرآن عليهم قوله" وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)"[المائدة].

لقد استغلت أوربا فكرة العقيدة المسيحية لتخضع بها شعوب الشرق، وتتخذ منها ذريعة لغزو البلاد في حقبة عرفت ب (الحروب الصليبية) لم تكن إلا تحت ستار المسيحية المدعاة؛ وفي حقيقتها إنما كان يغذوها العداوة والبغضاء، والطمع في ثروات الشرق؛ في حين لم تعرف من المسيحية إلا الصليب والتثليث والتي هي منهما براء؛ ولم تعرف من نظم الحكم إلا السيف وسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل، ثم جاءت من بعدها الحضارة الحديثة وريثة الصليبية القديمة لتكلف العالم في حربين عالميتين أكثر من ٦٠ مليونا من الأرواح أزهقت بغير حق، إضافة إلى الأموال؛ في ردة حضارية مقيتة لم يزل يدفع العالم من أثمانها حتى الآن.

وحين طرأت فكرة المنهجية في الحكم والإدارة في العصور الحديثة، وحين ارتقى العلم سدة الحياة ، وأخذ الإنسان حظه من العلم حتى ظن أنه بلغ الذروة وتربع على القمة، جاءت النظريات الحديثة في التناول السياسي والاقتصادي والاجتماعي تؤطر وترسخ لمفاهيم المصلحة الفردية على حساب المصلحة الجماعية (الرأسمالية) لتظل الكثرة من الناس جميعها مستعبدة لفئة قليلة، ولتبقى مناطات التحكم في العالم في أيدي مجموعة من البشر على حساب العالم؛ ولتحيي فكرة جاهلية اندثرت منذ قدوم الإسلام (استحلال الربا)، واسترقاق البشر، واستئثار القلة البشرية بالكثرة المالية، واستحواذ الثروة على حساب ابتزاز الفقراء وامتهاض حقوقهم.

ثم طرأت الشيوعية بماركسها وإنجلزها لتناطح الرأسمالية وتحاول أن تغلبها، لتقدم (المصلحة العامة) على المصلحة الخاصة، وإن كانت دعوتها ظاهرها الرحمة، إلا أن باطنها الظلم والقهر؛ حيث نهضت لتنبذ فكرة التملك الخاص

واستحلال الحق الفردي وتضييعه لحساب الحق الجماعي، ولتجعل الجميع شركاء في الإنتاج مهما تنوعت وتعددت وتشعبت القدرات البشرية من القوة والذكاء والجهد والتحقق المالي والعقلي..

ولتقول أن العنصر المادي هو الذي يدير عجلة التاريخ من وراء الستار ، وينتج الحضارة من خلال الحاجة المادية الملحة للمجتمعات الاشتراكية دون أيما اعتبار لدين أو خلق أو قيم روحية.

ثم تأتي من ورائها الليبرالية (التحررية)، التي تعلي من قيم الحرية؛ ليست الحرية المنضبطة بالقيم والمثل والخلق، إنما الحرية المترامية الأطراف، الباهتة المعالم، المتمايعة والمتماهية الحدود، التي تخرج الإنسان من ضوابط القيم وتعبده لخالقه وبارئه، إلى عبوديته لنفسه ورغباته؛ وانفلاته من كل حد يمكن أن يحول بينه وبين ما يشتهي.. حتى غدا العالم غارقا في عالم من الشهوات والفجرات والموبقات التي تفنيه رويدا رويدا بعد أن تفنى الأخلاق والقيم .

ينقل (د. محمد بن موسى الشريف) عن صاحب الظلال من كتابه "في التاريخ فكرة ومنهاج"، يقول: "أمامنا في التاريخ القريب نسبيا الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة والتلهي بالنعم ، أمامنا الشواهد الكافية ، من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان ..

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفا باتا من تفيسره لأطوار الامم وأحداث التاريخ ، وذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها.."(١)

هكذا يدلف العقل البشري إلى أروقة الحضارة رويدا رويدا بما أوتي من المنح الفطرية، لكنه لن يستطيع أن يؤصل منظومة شمولية تحوي في طياتها كل ما يخص العنصر البشري من جوانبه النفسية والاجتماعية وعلاقاته الاقتصادية والقيمية إلا أن يكون هذا من خلال منهج رباني متكامل يشمل مجموعة العلاقات التفاعلية:

أولا: بين الإنسان وربه: من التعرف عليه من نعمه وآلائه الكونية والكتابية، وما يجب عليه تجاه خالقه من تحقيق العبودية له كما أمر وشرع قولا وفعلا.

وثانيا: بين الإنسان ونفسه وما يجب عليه من حفظ الفروض التي أمر بها الشرع (العقل والنفس والدين والعرض والمال).

وثالثا:بين الإنسان ومحيطه الاجتماعي (الأسري والبيئي والمجتمعي، والعلاقات بين الجماعات والشعوب والدول وأرباب الأديان).

ثم رابعا وأخيرا: بين الإنسان والكون.. هذا الذي يتعاطى معه ليل نهار، وهو الذي ينبئ في كل ذرة من ذراته على طلاقة القدرة الخلقية، وبدعة الآيات الكونية الربانية والتي توحي في كل لحظة ولفتة إلى فضيلة التوحيد وشرف العبودية.

لقد جاءت منهجية القرآن لتؤصل لحضارة أبدية إن البشر أقاموا أصولها، وعملوا بمقتضى تعاليمها.. هذه الحضارة اعتمدت على عنصرين أساسيين هما: الإنسان أولا .. ثم المنهج الذي يقيم هذا الإنسان ويقومه.. ومن خلال هذا المنهج الشمولي الذي احتوى منظومة هذا الإنسان الحياتية بأدق تفاصيلها، ينطلق الإنسان في أرجاء الكون ليحقق

العبودية لله قائما بها وداعيا إليها، ناشرا دين الله في ربوع الكون معرفا بهذا الإله الواحد ، صالحا مصلحا يحفظ الحرث والنسل ويحقق بغية الاستخلاف الحقيقية، لا التي تقوم على إبادة العنصر البشري وإتلاف مقدرات الكون بدوافع نفسية مرضية من (طمع أو تسلط أو شهوة الجمع والمنع، أو أو ... بغض نفسي للبشر والكون)." وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)"[البقرة].

أما المنهج الإسلامي فهو الذي ربى الإنسان أولا فصنعه على عين، فأخلص قلبه لله وأخلص العبادة له و أفرده بالتوحيد، ثم انعكست صورة هذا التعبد متحققة في النفس والعمل والعلاقة المجتمعية والكونية ؛ لم يكن شيئا من هذه العلاقات بمنأى عن صاحبه، إنما كان المنهج كله متناولا بتفاصيله الداخلية (النفسية) والخارجية (المجتمعية والكونية) لا ينفك أحد العنصرين عن الآخر، لذا جاء وصف القرآن لهذه الأمة التي قامت بهذا الأمر كما أريد لها من الإعداد الرباني من خلال المنهجية القرآنية، وكما قامت به الأمة تحقيقا وقولا وفعلا فاستحقت أن تكون "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)"[آل عمران].

لا ندعي العصمة إلا من خلال كليات المنهج الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة الصريحة، وأما ما ترتب عليه من الاجتهاد والتفصيل والتبيين للأحكام والأحوال، وما كان بجهد بشري فالخطأ فيه وارد، لا تخلع عليه عصمة ولا تدعي له، وكذا ما يتأتى من خطأ التطبيق والتناول وما يصدر عن خطأ من العنصر البشري لا علاقة له بعصمية المنهج ونزاهة التنزيل؛ إنما تقدر الأمور حسب مصدرها (إلهي أو بشري).. لكن تظل طلاقة الوصف (الخيرية) التي منحت، والتزام المنهج الرباني هو القوام الأول والأخير للحضارة الإسلامية بما لها وما عليها.

١. درسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف).

التأصيل الحضاري بين الفردية والمنهج2

وقد قدر لما سبق من الحضارات البائدة أن تكون كينونتها واستمراريتها بقدر ما حوت من طاقة مستلهمة من عنصرها البشري، وما اجتهد فيها البشر (غير المعقولين) كي يطيلوا أمدها التاريخي.. فإلى أي مدى تستمر حضارة ما؟!

لا يمكن ـ مهما اجتهد البشر ـ مع العنصر الزمني أن يضمنوا بقاء حضارة إلا بقدر ما تمدها طاقتهم، فيكون بقاءها ببقاء شخوصهم أو أفكارهم قدر ما استطاعت هذه الفكر أن تخترق حجب الزمن، وما استطاعت الفكرة التالية أن تمدها لتبقى من وسائل العلم والأدب والفن والفلسفة والنتاج العقلي على اختلاف مشاربه.. ثم ما تلبث كما قال (مفلسف التاريخ) ابن خلدون أن تندثر بعد التراجع والتأخر حين يدهمها عامل الزمن، وحين لا تكون قادرة على السير بموازاته أو استباقه.

وكما يقول (لوبون): " وهذه هي دورة الحياة الخاصة بشعب ما، الانتقال من حالة البربرية إلى حالة الحضارة عن طريق ملاحقة حلم ما؛ ثم الدخول في مرحلة الانحطاط والموت ما إن يفقد هذا الحلم الذي تبنته الجماهير قوته".(١)

أما الحضارة الإسلامية فهي كما ذكرنا ليست ذات عنصر بشري إلا في التناول والتطبيق، أما في الأصول والمنهجية فهي إعداد إلهي رباني محفوفة محفوظة بعين الحق، كما هو محفوظ بها أهلها وبمنهجها إن هم أقاموه على الوجه الذي رضيه لهم منزل المنهج؛ ثم ينتقص من تمكينهم بقدر ما يغفلون أو يتهاونون أو ينتقصون من قوة الأخذ، والاستمساك

بشرائع الوحي ،، هنالك يسري عليهم ما سرى على الأمم من قبلهم وما يسري على من بعدهم من حتميات الكون والزمان، وعوامل النهوض والانهيار.

وقد أكد لهم هذا من خلال الوحي المنزل أنه ثمة فارق أكيد بين قدسية المنهج وبشرية التطبيق، وأن للثانية أسبابا وسننا وحتميات تسري على البشر جميعهم من خلال الاجتهاد والنكوص؛ فالسنن لا تعرف المحاباة ولا المجاملات حتى مع أصحاب المنهج العلوي إن هم أهملوا أوقصروا .. وقد تجلى ذلك في بدايات حوادث الدعوة وجهادها وإخلاص أصحابها، وكذلك مع وجود الرسول الكريم بين ظهرانيهم في غزوة أحد ، حين تحقق النصر بعدما بذلت أسبابه المادية والمنهجية، فلما تولى الأصحاب إلى شيء من متاع الدنيا كان الجزاء الإلهي سريعا، وكان تحقق حتميات السنن قريبا، لكيلا يظن ظان أن ثمة محاباة أو مفاضلة لأصحاب المنهج في ظل التقصير.

"وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)"[آل عمران].

إن عصمة المنهج لا تعني بحال عصمة الأتباع إلا بقدر الالتحام والاتحاد بهذه العصمة العلوية والاقتراب منها، فأما إذا حدث انحراف عن الصراط وتنكب عن السبيل، وأغفلت كليات المنهج وجزئياته، وجعل علمه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، وحرف الكلم عن مواضعه، وحرف الكلم من بعد مواضعه.. واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. فإن هذا إيذان بالزوال، وإعلام بالنهاية وتخلف التمكين، وأفول شمس هذه الحضارة وغوار نجومها.. ذلك ما جرت سننه على الأمم من قبلهم والتي عدد لهم القرآن ذكرها؛ (بنو إسرائيل) على رأسها وهم جل حديث القرآن وأمثاله.

وقد أخبرهم الهادي صلى الله عليه وسلم بتحقق مجريات الحوادث، ووقوع السنن عليهم بما يسلكون من سبل الأمم من قبلهم "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ، لَتَبِعْتُمُوهُمْ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: " فَمَنْ؟ " (مسند الإمام أحمد).

"عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»[صحيح البخاري: باب ما ذكر عن بني اسرائيل].

لقد أكد القرآن رغم هذه المكانة التي أولاها للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا التعظيم والتوقير لحامل الرسالة ومبلغ المنهج"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) "[الفتح]، أكد على انقضاء هذا المبلُّغ وحتمية البشرية التي اقتضت مثالا عمليا لتطبيق هذا المنهج، لكن هذا المنهج لا يكون إلا امتدادا للبشرية جميعها فلا يفنى بفناء مبلغه ولا ينقضي بقضائه.. وقد ظل يؤكد على هذا حال حياته وقبل

موته حتى يكون الأتباع على بينة من هذا فلا يصرفهم رحيله ولا مفارقته عن القيام بمنهجه واستكمال ما بدأ، ولا التقاعس عن تبليغ الرسالة التي أنيط بهم حملها.. ولا تثنيهم الفجيعة بموته عن الضرب في أصقاع الأرض وبقاعها لذلك.. "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)"[آل عمران].. "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠)"[الزمر].

وقد وعى أبوبكر رضي الله عنه هذا المعنى دون غيره، حتى ذكرهم به عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أكد على إنفاذ بعث أسامة وقتال المرتدين رغم معارضة الصحابة رضي الله عنهم، حتى لا يكون أول عهدهم بعد موته مخالفة أمره أو الاجتهاد فيما شرع في عمله، وليقطع الطريق على كل ذي عقل أن يعمل عقله فيما أمر به صلى الله عليه وسلم ، إلا أن يكون فيه مجال للاجتهاد وإعمال العقل فهذا مما أمر به من (الاستنباط والاحتكام) إلى المنهج وأصوله.

هكذا يتجلى مدلول هذا المفهوم الرباني " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ".. والإخراج هنا بمعنى (الابتعاث والتكليف) كما ذكر (ربعي) رضي الله عنه "لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدينا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".. فهي أمة مبتعثة باستكمال رسالة نبيها وتبليغها إلى أهل الأرض بهذا المنهج الرباني الذي خلف.. وقد شرفوا بأن تكون لهم مهمة الأنبياء من قبلهم، من تلقي العلم وتبليغ الوحي.

"ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم ـ وهم حملة رسالة الأنبياء، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنساني ـ انحطاط شعب أو عنصر أو قومية، فما أهون خطبه وما أخف وقعه، ولكنه انحطاط رسالة هي للمجتمع البشري كالروح، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدنيا والدين".(٢)

غير أن ثمة فارق كبير ـ رغم تحتم السنن ـ بين الحضارة الإسلامية وحضارات العالم (قديمها وحديثها) وهو أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة قابلة للفناء ولا الاندثار، إنما هي بالنسبة للحياة، حال من (صعود وهبوط)، و(سطوع وأفول)؛ ذلك أن قوام هذه الحضارة كما ذكرنا قواما سماويا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنطبق على عنصره مجريات الحوادث من حيث الفناء، أو الفترة الزمنية المحددة إنما تجري عليه مجريات التراجع والتقدم حسب قدرة أنصاره على التمسك والتطبيق ، لكنها حضارة لا يرومها الفناء ولا التخلف عن الركاب إن تحققت المقومات والأسباب .. فهي التي قامت على عمدها البشرية قديما من لدن آدم، وهي الهيئة التي أراد الله استخلاف البشر في الأرض عليها، وهي التي لا تقوم الساعة إلا حين لا يكون في الأرض موحد يعبد الله تعالى.

١. سيكلوجية الجماهير (جوستاف لوبون).
٢. (أبو الحسن الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

التأصيل الحضاري بين الفرد والمنهج٣

"لقد كانت للعرب دولة من الكلام.. لكنها ظلت بلا ملك حتى جاءها القرآن" .. هكذا تحدث الرافعي رحمه الله عن هذه المملكة الجديدة التي لم تعرف البشرية مثلها، وهذا المَلِك الذي جاء يؤسس ويكمل، ويبني وينقض، ويقيم ويعزل، ويضع ويخفض، ويجعل لهؤلاء الشراذم ذكرا في الأولين والآخرين "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون".. "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون" .. ".

لقد جاء هذا الملك ينقض أخلاق الجاهلية وأعرافها وعباداتها ويبطل منطقها، ويقيم مكانها دولة من العبادة والحكم والأخلاق والقيم لقيادة البشرية، لا حتى يحين زمان نبي بعد فترة من هذه الرسالة، إنما حتى قيام الساعة؛ ولذلك شاء الله أن يكون هذا المنهج مكتوبا مقروءا .. فقال "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" ، "كتاب أنزلناه إليك مبارك

ليدبروا آياته.. ".. وقال: "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون".. "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون".. "وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا"..

كما جعله كذلك رفعة وذكرا لمن اتخذه منهجا ونبراسا، وعمى على المعرضين ووقرا في آذانهم "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)"[فصلت]، وبه اكتسبوا واكتسوا هذه الخيرية التي فضلوا بها على العالمين، وورثوا هذا العهد الذي جحده بنوإسرائيل وحرفوه ونبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا؛ فشاء قدر الله أن يستبدلهم ويستخلف من بعدهم هذه الأمة الوارثة حتى قيام الساعة.. وعلى إثرها أيضا تألبت عليهم الأمم ورموهم عن قوس واحدة، واجتمعوا عليهم من كل صوب وحدب، وناصبوهم العداوة من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وزاغت بهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ... كل ذلك ليعلموا أن الأمر جلل وأن الحدث عظيم، وأنه لا يقوم به أولوا الهمم الخاوية، ولا القلوب الضعيفة، ولا العزم الخائر .. إنما انتخب له من حقبة التاريخ رجال جاء وصفهم كما ذكر القرآن:

"لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)"[التوبة] .. "رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)"[النور] .. "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)"[الأحزاب].

ولنتأمل بعض أوصاف الرجال التي عددتها الآيات، ونقارن بينها وبين عادات وأوصاف رجال الجاهلية التي عدها (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه حين وفد على النجاشي.. فقال: أيها الملك! كنّا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله، وألانشرك به شيئا، ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام..

وعدّد عليه أمور الإسلام؛ قال جعفر: فآمنا به، وصدقناه، وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فتعدّى علينا قومنا فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألانظلم عندك ..." (١)

ثم انظر بعض أوصاف الرجال حين هذبها القرآن، فخضد شكوكتها، وألان قناتها، وأخبت قلوبها لله..وأذلها على المؤمنين وأعزها على الكافرين، فكانت على ما يرضي الله، وما يصلح به حال البشر والكون، فجاءت كما في سورة التوبة: تقوى الله ورضوانه والطهارة البدنية والنفسية من الشرك والخبث، والنجس والرجس، وفي سورة النور: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية من لقاء الله في يوم لا تثبت فيه إلا قلوب المؤمنين الصادقين المخبتين.. ، وأما في سورة

الأحزاب: فجاءت كأنها نتائج مترتبة على الأوصاف السابقة من الإيمان والتقوى والخشية فكان الثبات أمام الأحزاب والتصديق بوعد الله بالنصر أو الشهادة، وبيع النفس والمال لله لقاء الجنة وابتغاء رضاه والدار الآخرة .

إن دولة الكلام وإن اتسمت في أيام جاهلية العرب بالفصاحة والبلاغة والطلاوة، وحسن السرد والسجع والرجع، وطرابة الوزن، وحداء النغم، وسلاسة اللفظ وقوته؛ إلا أنها لم تكن ذات يوم منهجا ولا خلقا ولا دينا .. إنما كانت للفخر والرثاء والغزل والحماسة ؛ والجهالة أحيانا؛ فلما جاء القرآن أفحمهم بلاغة وطلاقة وطلاوة وعبارة وسجعا وجرسا.. لكنه كان مع كل هذا وعاء لمنهج علوي لا يتأتى إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تسم لغة ولا عقل لمقارعته، ولا تشرئب نفس لها قلب أن تأتي بمثله أوشيء من مثله ولو اجتمعت نفوس الجن والإنس فكان بعضهم لبعض ظهيرا..

فقد ارتقى بفصاحة اللغة وعلويتها وقداسة المنهج وحاكميته على كل ما سبقه ، وما يأتي بعده " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)"[التوبة]. لم يكن هذا الكتاب إلا ثورة على البشرية المغرقة في مجاهل السرف والترف والانتكاس لثوابت الفطرة وأصائلها، والسادرة في التشرذم والعنصرية والاستعلاء لبعض البشر على بعض، والاستعباد لبعضهم البعض، والتحايل على مقتضيات تعاليم الأديان السابقة، والأخلاق الصالحة؛ ثم الانحدار المتردي إلى مدارك الجاهلية الدينية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية، والاحتكام إلى شريعة أقرب ما تكون إلى شرعة الغاب.. إلا أن شرعة الغاب ليست متفلتة من أطر الفطرة وقوانينها، ولا ناكصة عن جبلتها التي خلقت عليها؛ إنما هي تحفظ دوما توازنها البيئي والنوعي والحتمي ولا تعدو إلا على ما يقيم حياتها ويحفظ بقاءها ثم هي ممسكة عازفة عما سوى ذلك.

أما البشرية فقد كانت مفسدة طاغية ظالمة لنفسها ونوعها وكونها، وعادية على ما سواها من الخلق في الكون الذي سخر لها "وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)"[البقرة].

ثم جاءها هذا الملك (القرآن) ليقيم ما تصدع من بنائها العقدي والخلقي فيردها إلى عهد الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها، ويعدل ما غيرت من خلق الله "ذلك الدين القيم "، ويضع عنها إصر التقاليد المجتمعية والعصبية الجاهلية التي أزهقت الأرواح، وقطعت الأرحام وأفسدت ذوات البين وأهدرت الأموال فصرفتها في غير صلاح البشر وفي غير رضا ربهم (الرزاق)..

وليعيد صياغة هذا البناء النفسي على أسس الفطرة الحميدة، وأصول الشرع العلوية القويمة .. ثم ينطلق به حامله في أرجاء الأرض وأطرافها، مشرقها ومغربها مبلغا ومؤديا وحاكما ومحققا مراد الخلافة في الأرض بالإصلاح والإعمار"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)"[البقرة].

١-فقه السيرة (الغزالي) الجزء الأول.

المنهج العلوي والتناول البشري

"وهكذا لم يتخذ المسلمون من السياسة محورا للتاريخ بل اتخذوا الدين الأساس ونقطة الانطلاق ومن ثم انطلقوا إلى التأريخ لأعمال الأمة ممثلة في علمائها ومفكريها؛ فهم لم يسجلوا أعمال الملوك بقدر ما سجلوا فكر العلماء والفقهاء والمحدثين والصوفية والشعراء، ولم يتصور المسلمون ومؤرخوهم أن الامة مجموعة أصفار لا قيمة لها إلا بالواحد وهو الحاكم كما هو الحال في التصور القائم على" أن التاريخ من صنع أفراد"؛ وإنما تصورا الحضارة الإسلامية قائمة بفكر علمائها لا بسيرة خلفائها، كما كان تصور المؤرخين المسملين أن الفعالية في الحضارة الإسلامية للأمة جميعا .. لا للأفراد" (١).

لم يكن بناء المنهج القرآني للحضارة متمحورا حول الفردية حتى ولو كان صاحب الرسالة المنزل عليه الوحي، فجاءت الآيات تؤصل لهذا المعنى وتؤكد عليه " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) [آل عمران].. تلك الفردية التي أقضت مضاجع الأمم قبل الإسلام وأذلت الشعوب وأصغرت من أمرها وحقرت من شأنها، حتى صنفتهم كما كان في (فارس والروم) إلى الملوك والسوقة.. فكانت نقمة الشعوب على حكامها وبطانتهم وملأهم أشد من احتقار هؤلاء الكبراء لشعوبهم وعبيدهم .. وإلى ذلك كان يعمد أمر الجاهلية في الجزيرة العربية من تقسيم إلى سادة وعبيد ووجهاء وضعفاء.

فجاء القرآن على غير إلف البشرية السابقة، ليهدم لهم ما تصدع من دساتيرهم التي غايرت الفطرة وبدلت قوانين السماء بقوانين الأهواء، وأفسدت ذوات البين ، وغيرت السنن الإلهية التي جعلت من الناس "شعوبا وقبائل لتعارفوا" .. واخترعت من عند أنفسها مقاييس ما أنزل الله بها من سلطان، عارضت في شكليها ومضمونها ما أثبته الله للتفاضل "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

إن هذا الخطاب الذي يخاطب القرآن به المؤمنين بعد غزوة أحد بعد حالة التصدع التي أصابت نفوسهم، ليس فقط من أثر الهزيمة، إنما كانت مما أشيع بينهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل .. فأراد أن يهيأ تلك النفوس إلى استقبال هذا الحدث الجلل وإن لم يتحقق في تلك الساعة، حتى تكون على استسلام له فيما تستقبل من أمرها وهو أمر ماض لا محالة، قد جعله الله سنة على رقاب خلقه جميعهم على تفاضل درجاتهم ، فخاطب بذلك نبيه قبل تحققه قائلا "إنك ميت وإنهم ميتون " ..

ثم خاطب به المؤمنين كما سبق في قوله "وما محمد إلا رسول ... الآية " وتأمل هنا أسلوب الاستثناء الذي يفيد القصر (إلا رسول) وهو يعلم أن اقتصار رسالة هذا النبي على التبليغ عن ربه فقط، ولم يكن من شأنه الخلود، ولم يسبق لأحد قبله ولا لأحد بعده "وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)"[الأنبياء].

وبما أن الموت ماض على صاحب الرسالة، فإنه لابد أن يخلف من بعده مبلغين يؤدون ما أدى إلى ما تبقى من الخلق حتى يصل التبليغ إلى مشرق الأرض ومغربها، ولن يكون هذا إلا من هؤلاء الأتباع الحواريين الذين أشربت نفوسهم هذا الدين واضطلعوا بمهمته ، واصطفوا كما اصطفي صاحب الرسالة أن يكملوا التبليغ (وليس الدين)، فالدين قد أداه على وفق ما أراد الله كاملا غير منقوص"....أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)"[المائدة]؛ أما الدعوة فهي شأن الأتباع كما كان حال من قبلهم " وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)"[آل عمران].

إذن فرسالة القرآن الحضارية كان أداؤها منوط بعد الرسول بأمة التبليغ والصحبة من بعده ، لتعلم أن هذا المنهج ليس من صنع بشري، ولا حكرا على صاحب فكرة ولا فلسفة ولا تنظير كحال اليونان (أرسطو وسقراط وأفلاطون وأبوقراط.. أو كحال الشيوعيين ماركس وإنجلز.. ولا زعيم سياسي كاستالين ونهرو ولينين وتشرشل وهيرتزل، ولا حكيم هندي كغاندي وبيدبا، ولا قائد عسكري كنابليون والإسكندر وجنكيز خان، ولا ثائر تاريخي ك جيفارا وكاسترو.. ولا أي من هؤلاء بوصفهم أو شخوصهم .

هي الرسالة التي توحد فيها مصدر التنزيل (الله العزيز الحكيم) ، والمنهج (الكتاب والسنة)، والمبلغ (النبي صلى الله عليه وسلم).. ثم آلت إلى من بعدهم متوارثة بكل ما جاء فيها من قول وفعل وحكمة وقوة ودعوة وحكم وفرقان وعلم .. لتكون منهجا يقيم حضارة البشرية على أسس ربانية علوية، يحتكم فيها إلى هذا المنهج في كل خلاف واتفاق.. وهذا مما دعته ضروة الأبدية التي اقتضتها حكمة المنزل ألا يكون بعدها من رسالة ولا رسول، فكان لزاما أن يتسم هذا بالشمولية والاستمرارية والأبدية والعلوية التي لا تدانيها فلسفات البشر ولا اجتهاداتهم.

ربما يطرح هنا سؤال يقتضيه السياق أن الحضارات السابقة وإن اتسمت بالنقص فإنها قد أثبتت هيمنتها على البشرية فترات من الأزمنة واستطاعت أن تخضعها لحكمها ورؤاها دهورا، وقد أثمرت رغم قصورها علوما وفنونا وآثارا، وقطعت في طريق الحضارة الإنسانية أشواطا لا بأس بها من الإنجاز العلمي والتقني.. لكن المستعرض لحقب هذه الهيمنة والمستقرأ لفترات التسيد للعقل البشري غير المسترشد بالملأ العلوي يجد هذه النكبة الحضارية التي أزهقت فيها روح العنصر الإنساني، وتغولت فيها عناصر المادة بكل صورها وزخرفها وجمودها.

ليس أدل على ذلك من شواهد التاريخ الحديث الذي استدار فيه الزمان على أصحاب المنهج السماوي بما أسرفوا، واستبدلوا بدعاة الحضارة المادية الغربية التي أزهقت الأرواح وأهلكت الحرث والنسل، واستبدلت البشرية من بعد أمنها خوفا، ومن بعد الشبع نهما وجشعا وتسلطا وتفحشا.. اقرءوا إن شئتم ما سطر العالم الرباني: (أبوالحسن الندوي) في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".، وما كتب جوستاف لوبون عن الفكرة الدينية ودورها في الحفاظ على القيمة الإنسانية ، وبغيابها لا تسود إلا المادية التي صنعت بالإنسان ما صنعت مما رأينا في الحضارة الحديثة:"أجل، إن المعارف العلمية غيَّرَتْ ناحية الحضارات المادية تغييرًا عميقًا؛ غير أن المعتقدات الوجدية دينيةً كانت أو سياسية ظلَّتْ قادرةً وحدها حتى الآن على إيجاد اتحاد المشاعر والأفكار الضروري لثبات الذاتيَّات الجمعية."(٢).

ثم إن الحضارة البشرية لم تكن غاية أو هدفا في حد ذاتها؛ إنما كانت حالة من الانعكاس المادي للفكرة العقلية العلمية البشرية، والفطرة الإنسانية التي أودعت في قلب هذا الكائن المتفرد الذي تفتق عقله عما أودع في الكون من علم وفن وتجربة وقابلية للتطور، وفكرة تقدمية ديناميكية طبيعية تندفع إلى المستقبل مع كل اكتشاف وكشف عقلي وكوني متلازمين.

فالحضارة هي هذا النتاج الطبيعي لانفعال العقل البشري مع الكون، ثم تبقى حالة الروح قابعة أو قانعة أو خاملة حسب ما يقدم لها من مادة البعث الروحي (الفكرة الدينية)، ولا يناط نموها بانتشاء الحضارة المادية.. ولذا كانت قيادة الكون

والحياة في الأولى منوطة بهذه الفئة المؤمنة المصلحة حتى تنضبط المادية بالروح ، بدلا من أن تفسد الروح بالمادية كما شهدنا في حقب التاريخ التي جنت بماديتها على بني جنسها.

١. فلسفة التاريخ (د. مصطفى النشار)
٢. فلسفة التاريخ(جوستاف لوبون)

العقيدة: أول خطوات التمكين الحضاري

إن منطلقات الحضارة الأولى لا تبدأ إلا من دافع لدعوة روحية ـ كما يقول: جوستاف لوبون في كتابه (فلسفة التاريخ) ـ من (عقيدة ـ أرضية أو سماوية)، أو فكرة نفسية، تتبناها بعض النفوس الملهمة الحالمة، من بذرة هينة لينة تسري دعواها بين النفوس المقبلة، فتتلقفها شواكل الأرواح من البشر حتى تطير من أفق إلى أفق ومن واد إلى واد، ومن نفس إلى نفس حتى تصبح (دعوة) صاخبة رائجة، ربما لا يقف في سبيلها قوام الجيوش الجرارة ولا الأبطال الأفذاذ ؛ حتى تأخذ حظها مما قدر لها من التمكين والتاريخ.

ليس شرطا أن تكون الدعوة أو (العقيدة) ذات قدم راسخ في الحق، إنما يكفيها أفول سنن من كان قبلها من الأمم أو الحضارات، ثم إيمان أصحابها بها وقيامهم بحقها حتى تكون على بينة مما تأتي وتذر، وحتى تخط لنفسها خطا حضاريا أو تاريخيا خاصا بها..

فلم تكن هجمة التتار التي اجتاحت المشرق العربي على أسس أو أصول من منهج سماوي، لكنها اجتاحت أصحاب المنهج السماوي الذي غيروا وبدلوا فأذنت عليهم المقادير بأفول شمسهم، وغروب حضارتهم إلى حين حتى عادوا إلى صوابهم الذين كانوا عليه.

ولم تكن كذلك دعوة نابليون (الوضيع النفس) إلا هبة روحية قتالية من شجاعة سرت نسماتها بين جنبيه، وألهم توظيفها حتى جعل من شراذم بلاده جيوشا تطوف الشرف والغرب، ويحسب لها بين الدول والامبراطوريات حسابا.. وعلى هذا النمط من الفراغ الأرضي والمنهجي في الكون سرت دعوات (الشيوعية ـ ماركس وإنجلز) حتى عمرت ما قدر لها أن تعمر ثم تخبو روح مدادها على حسب ما حوت من عقل وقيم وأخلاق وقوة عسكرية.

وأما الكشف العلمي الذي ابتعث روح الحضارة الحديثة من مرقدها، فلم يكن إلا نفثة حياة بعد طول ممات، ضرب على نفوسهم من كهنوت الكنيسة قد ربا على الألف عام، حتى اشرأبت لها دعوات العلماء والمفكرين، والمارقون من سلطة الكهنوت كالبروتستانت، تحطم أغلال الجهل والتخلف والانزواء في كهوف التاريخ الحضاري، وقد شابت في زمان الغيبة الرؤوس وذوت الأرواح، وتقادم العهد بالعقل والعلم .. فجاءت هذه الصحوة مستنكرة مستنفرة، متمردة على تسلط القرون، وغيبة العصور، فأيقظت روح الحضارة من سباتها، وألهبت فيها نهمها العلمي والبحثي، ونفثت في روعها من روحها حتى أثمرت ما أثمرت... إلا أنها قد حطمت وأنقضت بقدر ما ابتنت، فأتت على بقية مما ترك الأولون من تعاليم المسيحية فأذرتها مع الرياح، وأقامت بدلا منها شكلية الحضارة، وأزهقت في سبيلها بقية الدين والأخلاق.

أما حضارة الإسلام فلم يكن ثم إلا هذه الدعوة (السماوية) التي نظر الله فيها إلى أهل الأرض فمقتهم جميعا (عربهم وعجمهم) إلا بقايا من أهل الكتاب ، فقد فسدت الدعوات السماوية (الشرائع الأول)، حتى استبدل أصحابها الخبيث بالطيب، والذي هو أدنى بالذي هو خير.. وكانت على شاكلتها دعوات المصحلين والقادة والفلاسفة من اليونان والرومان والفرس والهنود والصين، حتى آلت البشرية إلى ما كانت عليه قبل الإسلام..

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة لطل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عم (١)

فكان لزاما أن تكون رسالة السماء هي البديل الذي لا غناء عنه لهذه المذاهب الباطلة المفسدة المجحفة، سواء فيها من أتت بعدها أو كانت من قبلها، وسواء كانت علوية ـ أتى عليها التحريف والتبديل ـ أم كانت أرضية لا تقوم لله بحق في عبادة، ولا لخلقه بشيء من العدل والمساواة.

إذن فقد كان المنهج هو محور الحدث ومداره، تعلو سنام هذا المنهج (العقيدة) عقيدة التوحيد، ثم يأتي تفصيل كل أمر لها تباعا وليس قبلا.. وقد حققت الحوادث التاريخية ودورات التاريخ على هذه الأمة هذا الطرح، وقد صرح بهذا القرآن وألمح، في التفصيل والإجمال؛ إذ جعل العقيدة مدار التمكين.. وكلما انتقص من جناب التوحيد فرع أو ركن، كلما وهن من قوة التمكين على إثره.

وقد أكد لنا التاريخ بحوادثه تلكم الحقائق وسجلها القرآن جلية بينة ؛ إذ ذكر من حال بني إسرائيل ما ذكر من تخليهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول ما بدأوا في الاختلاف، ومن تطاولهم على الأنبياء وقتهلم ، واستحلال ما حرم الله من الفواحش والربا، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه وجعله قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، وتطاولهم على ربهم بذكرهم له بما لا يليق بكماله ، حتى استبدل الله قيادتهم للبشرية بغيرهم من الأمم "ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون".

كذلك ما مر من حقب التاريخ الإسلامي من الضعف والهوان واحتلال الأوطان، ولم يكن ثمة تمكين إلا بعد أن رجع الناس إلى دينهم ووحدتهم واعتصموا بحبل الله جميعا، ونبذوا الفرقة وغلبوا المنهج وحكموه فيهم فكان لهم النصر، وإن عهد صلاح الدين وتحرير بيت المقدس، والمماليك وتحرير العالم الإسلامي من المغول والتتر والصليبيين لخير شاهد على ذلك.. وحتى في العصر الحديث في حرب العاشر من رمضان لم يكن ثمة نصر إلا بعد أن أفاق الناس إلى دينهم وثابوا إلى ربهم فتحقق لهم ما كانوا يرجون.

وقد وعى نبهاء الأمة وعلماؤها الربانيون هذا الأصل القرآني، يفصله الدرس التاريخي جيدا، فانتبهوا كلما أحاط بالأمة عدو تسلط عليهم من خارجهم، أو نزعت من بين أيديهم نعمة ك(الأمن أو الشبع) هبوا يوقظون الخلق للعودة إلى تصحيح معتقدهم واستقامة مسارهم في الطريق إلى الله.

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)"[النور].

فسنة التميكن لا تمنح لأهل الأديان جزافا ولا محاباة، إنما اصطفاء وابتلاء.. لكن ليس إلا على لظى نار البلاء والتمحيص، وبذل الأنفس والأرواح، ولوعة الخروج من الأموال والأبناء، ومكابدة الهجرة ومصابرة الاختبار، وزلزلة الحروب، ومطاعنة الأسنة والرماح، والاستهانة لحد السيوف، والصبر على شظف العيش ومقاطعة العشيرة ومنابذة الآباء والأبناء، وتحمل سخرية الملأ والكبراء وازدرائهم" وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي" ... "إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون"..

وكذلك الثبات حال الوهن والاستضعاف، والتخلي عن إلف المساكن المرضيّة، والمراتع المؤتلفة، وفخر الآباء والأحساب والأنساب.. فرارا من كل هذا إلى الله ورسوله؛ حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ذلك حتى من النفس التي بين جنبيه !!..

فأي بأس هذا وأي ثمن بهظ يبذل لقاء التمكين، ويدفع مقابل العقيدة حتى يقال لهم "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)"؟!

"وليس يرتاب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث ، ويستقصون في أسباب نشأته، ويتشبثون عند الخاطر من ذلك إذا أقدموا عليه، وعند الرأي إذا قطعوا به، أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو عليه في كل ما يستطيل به، وفي تقدمه وانبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه، وفي نموه واستبحار عمرانه، فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية.. وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلة في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصنيفها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتع منها.. وأخذه على ذلك بالبحث والنظر والاستدلال والاستنباط ".(٢).

إن الثلة المؤمنة التي ذكرها القرآن الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى الله ورسوله، وينصرونه، وكذا الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، هؤلاء وهؤلاء هم تلك النواة التي بذرت في هذه الأرض الحجازية الجرز، وقد أتاها مدد السماء فأثمرت وأينعت واستوت على سوقها تعجب الزراع لتغيظ بهم الكفار.. لم يكونوا إلا نتاج هذه العقيدة السماوية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم مستخفيا خائفا، ثم مطاردا عائلا، ثم أذن الله له بالنصر والتمكين.

" لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)"[الحشر].

ثم سرت تلك الدعوة كما تسري النار في الهشيم حتى جابت أطراف الأرض من مشرقها لمغربها، تذعن لها كل راية جاهلية، وتتبعها كل بقايا نفحة سماوية، وتستذل لسطوتها كل عصبية جاهلية أو أتباع لدين فاسد أو عقيدة منحرفة محرفة .

"الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)"[الحج].

١. قصيدة: نهج البردة".أمير الشعراء (أحمد شوقي).
٢. تاريخ آداب العرب (الرافعي).

العقيدة وسنة التمكين

هل التمكين المقصود هو: التمكين العقدي، أم التمكين الحضاري؟!! هناك خلط في الرأي بين مفهوم التمكين ل (العقيدة)، والتمكين الحضاري.. لكن القرآن أتى ليصحح هذا الرأي ويزيل اللبس؛ فإذا كان التمكين يعرض لبعض النماذج من الحضارات البائدة التي عرجنا على مثلها (فارس والروم قديما) والحضارة الغربية (حديثا)، والتي أخذت بأسبابه الكونية الظاهرة، وهي التي جعلها الله طوعا ومعطاء لمن انفعل بها وثابر على الأخذ بها.. لكن لا يكون هذا إلا في غياب أهل العقيدة السماوية وتخاذلهم عن نصرة منهجهم والأخذ بأسباب القوة فيه ... حينئذ تدور عليهم سنن التبديل كما كانت لهم سنن التمكين، وهذا مسطور في الكتاب لا مراء فيه ولا شبهة في فهمه (آيات محكمات).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)"[البقرة].

"وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)"[الأعراف].

"وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) "[الأعراف].

"قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)"[الكهف].

"يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)"[مريم]. "... "وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)"[الحج].

ثم يقول لهم في آيات أخر "...وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)"[محمد].

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)"[المائدة].

فهناك خصوصية فارقة بين تمكين العقيدة، وتمكين الحضارة .. فأمر العقيدة لا يقبل القسمة ولا يحتمل المقاربة أو الأخذ ببعض الكتاب والكفر ببعض، أو جعله قراطيس يبدى بعضها ويخفى الكثير كفعل بني إسرائيل؛ إنما هو قول فصل وأخذ بقوة ، وهذا هو أساس التمكين الحقيقي الذي يؤسس عليه صرح الحضارة.

ومن هنا: فقد مكن لبني إسرائيل حين صبروا على البلاء من فرعون وقومه لما حملوا راية التوحيد، فقال الله عنهم "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)"[القصص].

وإذا كان (مالك بن نبي) قد حصر عوامل الحضارة الأساسية في ثلاثة عوامل هي: الحضارة = الإنسان +التراب + الوقت (١).. فإن الإنسان هنا بالنسبة للحضارة الإسلامية الحقيقية لا يعني إلا الإنسان الفطري الموسوم بالتوحيد، المستمسك بعقيدته الصحيحة، وليس هذا الإنسان الذي جرفته الحضارة المادية حتى أذهبت معالمه، وطمست فطرته البشرية النقية المتشوفة بطبيعتها إلى التوحيد الذي جبلت عليه.. والتي سمت بروح هذا الإنسان فخلّقته بالقيم والمثل والأخلاق والآداب، حتى استحق الاصطفاء والقيام بحق الاستخلاف في الأرض من الإصلاح والإعمار.

لم يبق من معالم هذا الإنسان وطبيعته إلا هذه الطبيعة الجسدية اللاهثة خلف المادة، تولي شطرها أينما ولت متحللة من قيم الفطرة وأخلاقها، باحثة عن شكل العلم البشري المتفلت من ضوابط القوانين الإلهية، والرفعة الربانية التي وهبه الله إياها عن قدر وتقدير"يرفع الله الذي آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات".

إن التمكين الحضاري متعلق في حقيقته بالتمكين العقدي وهو المراد الأول من حقيقة الاستخلاف " وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)"[الأنبياء]، وهي حقيقة قرآنية توحي بأن الإرث الحقيقي لا يكون إلا لحملة رسالة التوحيد، وما يزال منوطا بهم ما يزالون قائمين

بحقه، حتى إذا غلبت عليهم طفرة الحضارة المادية فاتسهوتهم زينتها واختبلهم زخرفها، وعفا من أذهانهم عهد آبائهم الأولين الذين أصلوا لهذا التمكين وحق لهم هذا التدويل بما أخلصوا دينهم لله .. " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)"[الأنعام].

ولعل هذا هو ما عناه (مالك بن نبي) في قصده من عنصر (التراب)، وهو الأرض.. وهي أيضا هذا العنصر المتعبد لله بخلقه، الطائع لما أمر"قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)" [فصلت].

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)"[الأحزاب].

تلك هي الأرض التي تمتثل لأمر الإنسان المؤمن المتمكن بها؛ في الحكم والسياحة والإدارة والإعاشة ؛ لا الأرض كما يراها العنصر (الغربي) والحضارة الغربية حين مكن فيها بأمر إلهي فاستبد واستعلى، واستعدى على الأرض ذاتها إذ جعلها مرتعا للبغي ، وحقل تجارب للتفجير والتدمير والإهلاك للحرث والنسل، وإهدار حق الغير فيها، والتوسع الامبريالي على حساب حق الآخرين، والبغي على ما من الله به على أهلها من الخير والنعم..

فكان هذا النموذج الغربي الممكن بالحضارة والعلم أسوأ ما عرفته البشرية والأرض، بل بز بسوء أخلاقه وأفعاله ما ذكره القرآن عن هذا الطاغية المستعلي (فرعون) حين طغى وبغى واستعدى واستعلى على أهل الأرض، فقال" إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) [القصص].

أما عنصر (الوقت) كما ذكره بن نبي، وهو المقصود به الزمان اللازم لإدارة دروة حياتية حضارية، حسب مقتضيات الحال الحضارية من العصبة والبداوة ، إلى التهيؤ والتحضر، ثم التراجع والانحدار.. هو كذلك مخلوق لله ومعبد بأمره، ناتج من حركة المكان في السموات والأرض، ومن تعاقب الليل والنهار، وكلٌّ يجري بأمر ربه .

وقد طبع الإنسان الأول متهيئا لهذه الخاصية (الاستخلاف) بكل ما تحمل الكلمة من معناها، حيث فطر على التطلع والتطور والضرب في مناكب الأرض والبحث في عطاءاتها، لتحقيق مضمون هذه الفكرة الحضارية التي تعكس الصورة الحقيقية لهذا النوع المستخلف، المدعم بهذا العقل الذي يخصصه عن الكون بما فيه، ويتيح له كثيرا من الهيمنة والريادة على الكائنات.

إذا كان الإنسان قد مكن ليقوم بحتمية صناعة هذه الحضارة، فإنه في المقام الأول قد فطر على التوحيد وما خلق إلا للعبادة "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ، فهي الحقيقة الأولى الذي نزل للأرض من أجلها، ثم يأتي التمكين تباعا للتعبد، وهذا ما نص عليه صريح القرآن في أكثر من آية.

لكن (وول ديورانت) يرى غير ذلك في قصة الحضارة: "أن عوامل الحضارة تتلخص في مجموعة عوامل: موارد اقتصادية ـ النظم السياسية ـ التقاليد الأخلاقية ـ التطلع للعلوم والفنون).. ، فهو يراها مجرد نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي (أولا)، ثم هي تتألف من العناصر الأربعة السابقة.. ثم وهذا هو ـ المحك ـ أنها تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحركت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء.. ثم لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها" (٢).

وهذا الأمن من القلق والاضطراب المذكور في قصة الحضارة، لا يتأتى إلا من فضيلة الإيمان والعقيدة، والذي خص الله به عباده المؤمنين، فكتب لهم به الأمن والطمأنينة "فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)"[الأنعام]. والتي يخص القدر بها من هم أهل لها؛ ثم هذه العوامل الاقتصادية والسياسية والأخلاقية لا تتحقق إلا من جراء الفكرة العقدية التي تبث روحها في النفوس فتفزع بهذا الوازع الديني، وبهذا التأييد الملهم إلى إخضاع مفردات الكون بما فيها بقية الإنسان إلى نفس الفكرة ثم الوصول بها إلى حالة من التوافق المجتمعي والسياسي والأمن من الاضطراب الذي يحقق الاستقرار ويبدأ معه فكرة تكوين الحضارة.

١. مشكلات الحضارة (مالك بن نبي).
٢. قصة الحضارة (وول ديورانت).

ااالاستخلاف والتمكين والإعمار

وقد فرق القرآن بين المصطلحات التي تتناول هذه الفكرة، منها مثلا (الاستخلاف): وهو في أوله إقامة الإنسان في الأرض بفطرة بيولوجية ونفسية وعقلية تؤهله من الاستمرار وتحقيق الغرض من نزوله إلى الأرض .. ثم (الإعمار): وهو درجة أقل من الاستخلاف: إذ الإعمار منوط بصنف من البشر خضعت لهم ـ على فترة من الزمن ـ بعض عوامل الحضارة فعمروا في الأرض، ولا يشترط أن يكون هذا الإعمار باستخلاف إلهي على سبيل إقامة الشرع، ولكن قد يكون بتمكين (كوني) لا شرعي.

وأما فكرة التمكين الحقيقية فهي لا تكون ولم ترد في الغالب إلا مع الثلة المؤمنة القائمة بحق التوحيد والتعبد لله ثم يأتي لها التمكين تباعا بعد الابتلاء والصبر والتمحيص..

"فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا.. أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها"(١).

إذا طبقنا فكرة العوامل التي يطرحها (ديورانت)، والتي يرى من خلالها تحقق الحضارة باجتماعها، لكن رغم توفر الكثير من هذه العوامل إبان الجاهلية الأولى، فإن العرب لم يتمكنوا من مجرد النزوع لتحقيق دولة ولا إقامة كيانات سياسية تقودهم إلى التطلع الحضاري.. وقد عمروا قبل الإسلام قرونا في شبه جزيرتهم، لم ير منهم، ولم يخلّفوا إلا بعض الفصاحة اللغوية وبعض مكارم الأخلاق ، كاد كثير منها أن يغيب أو يندثر مع الزمن لولا مجيء القرآن، ولم يتحقق لهم شيء من الاجتماع السياسي إلا في بعض الحالات التي لم يطلق عليها اسم (الدولة) بحال من الأحوال، ولم تثمر شيئا من منجزات الحضارة التي ذكرها التاريخ، ك(الغساسنة في الشام، والمناذرة في العراق، ومملكة الحيرة).

ولم تكن هذه العوامل التي ذكرها (ديورانت) بفاعلة؛ وقد تواترت في أيد العرب، وأوفرت بها بيئتهم العربية، فلم يفطنوا لتفعيل شيء منها ليصنعوا لأنفسهم ذكرا أو ثقافة أو حضارة، اللهم إلا هذه البقية من القصائد والنصوص الأدبية، وقد تحقق لهم وبقوة عنصر (الإنسان)، والاجتماعي السياسي في بعض صوره البسيطة، والعامل الاقتصادي وإن كان بدائيا في هذه الثروة الطبيعية من الأرض والرعي مع الكلأ، والتجارة بين أطراف الجزيرة ..لكنه لم يكن ليحقق أو يخرج دولة، أو شبه دولة، أومنتج حضاري أوثقافي.

"ومن المعلوم أن جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العناصر الثلاثة (الإنسان والتراب والوقت) راكدة خامدة، أو مكدسة، لا تؤدي دورا ما في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت تلك الروح بغار حراء ـ كما تجلت قبل بالواد المقدس ـ نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة"(٢).

لقد من الله على قريش بما وهبهم من نعم (الأمن) و(الشبع) " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)"[قريش]، وهما من أوائل نعم التمكين والتحقق الحضاري، فلم يكن ثمة اضطراب أمني أو مجاعة مهددة بالفناء، إنما كان حال من الاستقرار والثبات؛ وقد ذكرهم فيما قبل هذه السورة بـ(سورة الفيل) الذي أهلك فيها من أراد بيته وحرمه بسوء، وكانت تلك لهم فضيلة على سائر العرب بتمكينهم من هذا الجوار الشريف الذي رفع ذكرهم قبل الإسلام بين العرب"أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)"[القصص].

وهنا لطيفة: حيث لو كان تحقق للعرب، أو لقريش دولة ـ رغم سيادتها وزعامتها على القبائل ـ لكان هذا أشد عنتا وتسلطا وتصلبا في مجابهة دعوة (التوحيد) القادمة من خلال الوحي، وربما كان وأدا لها في المهد من تصدي دولة ممكنة لها؛ لكن الله لم يشأ ذلك حتى يكون قيامها وتحققها تحت راية القرآن ـ كما ذكر الرافعي.

إنما أزهرت ذلك وأثمرته، وأكثر منه نفثة الحضارة.. تلك التي هبت في أرواحهم، وهبوا بها.. ولم تكن إلا من هذا الكتاب الذي حمل لهم هذه المنهجية المهلمة على رأسها (التوحيد) فمكن له في نفوسهم أولا، وأذهب منها حمية الجاهلية التي تفرق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني، وتقطع ولا توصل .. ثم ألف بين قلوبهم وجمعهم على المحجة البيضاء" وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)"[الأنفال].

وأنهض همم هذا الجيل من رعاة الشاة والإبل إلى مصممي الحضارة وناقليها إلى ربوع الأرض من مشرقها لمغربها، معلمين مبلغين مؤدبين ومصلحين وصالحين، تسامي جباههم جباه القياصرة والمناذرة والأكاسرة بل تعلو عليها، وتسمو فوق هاماتها، بما وهب الله لهم من منهج العز، ومداعي الفخر، وخيرية الاصطفاء في "كنتم خير أمة أخرجت للناس"، وهذا هو مبعث التمكين الحقيقي الذي يُنزل المتسلطين من شواهق الأبراج المشيدة والقصور العالية، إلى مواطئ سنابك الخيل وأخفاف البعير .. وما هي إلا عزة التمكين، وسنة الاستبدال من الخبيث إلى الطيب.

انظر إلى أبي الحسن الندوي (رحمه الله) واصفا حال هؤلاء البشر وتبدلهم من حال إلى حال، ومن ضعف إلى قوة، ومن جاهلية إلى إسلام، ومن شرك إلى توحيد؛ وما فعل بهم الإسلام بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا.. يقول:

"حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الأخرة، وفي اليوم رجال الغد، فلا تجزعهم مصيبة، ولا تبطرهم نعمة، ولا يشغلهم فقر، ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة، ولا تستخفهم قوة .. ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا..

وأصبحوا للناس القطساس المستقيم، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين .. وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية، ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله..

فاستخلفهم الرسول في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته"(٣).

وقد وردت لفظة الإعمار في صيغ متعددة في القرآن على هذا النحو:" وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب".. "أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر" .. " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)"[الروم].

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)"[هود].

والتعمير هنا له معان متعددة، فمن (التعمير) بمعنى إطالة الأمد (العمر)، وبمعنى العمران: أي الإبقاء والإمهال حتى يكون لهم في الأرض من الأثر ومظاهر الحضارة ما يجعلهم أهلا لتدبر نعم الله، الغارقون في أوصالها، والمترفون بعطاءاتها، والمتمتعون بما تغذوهم به في كل لون من ألوان الحياة .. ومن ذلك ما ضرب الله المثل به لقوم فرعون في

قوله "فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)"[الشعراء]، وقوله"كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)"[الدخان].

جاء في بحر العلوم للسمرقندي"وقال أهل اللغة: النِّعمة بكسر النون هي المنة، واليد الصالحة، والنُّعمة بالضم هي الميسرة، وبالنصب هي السعة في العيش. ثم قال: كَذلِكَ يعني: هكذا أخرجناهم من السعة والنعمة وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ يعني: جعلناها ميراثاً لبني إسرائيل"..

وقال الشيخ الشعراوي: أن النعمة بالفتح هي حياز النعمة بالكسر مع إمكان التمتع بها مع وجود الصحة البدنية والنفسية التي تتيح ذلك، وقد كان هذا مدعاة لطغيان فرعون وملائه أن أفاض الله عليهم من هذه النعم ما يستوجب شكر المنعم والتقرب إلى الله به، فلم يفعلوا ؛ بل استعانوا بها على ما محادة رسوله، والتعاظم مع السخرية والتعالي في الأرض والإفساد، فقال "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)"[الزخرف]. (٤)

ولذا.. كان هذا التوبيخ الرباني حين يتبوأ الباغون منازلهم من جهنم مستصرخين فيها، فيجابوا أن زمن الإمهال وفرصته قد أتيحت لهم في الدنيا بما يستحث صحيح النفوس وفهيم العقول أن تتذكر فيه، فتذكر نعمة ربها ومداده الذي أمدها به في كل شهقة وزفرة، آناء الليل وأطراف النهار؛ غير أن لم يكن لهم تذكرة ولا تبصرة مع أن مدة الإمهال كانت تستوجب فعل ذلك مع توفر الوعي العقلي مع المسع والبصر والفؤاد؛ ولكن لا شيء من ذلك يغني إذا حقت كلمة العذاب بدواعي الغفلة والغرور والتناسي لعظيم نعم الله..

إن لهذا العمران أو (التعمير) بشكليه (العمّري)، و(الحضاري) ثمة أسباب وعوامل لم يكن الإنسان في غفلة عن مواردها ومصادرها، ولا عن المنعم الذي منّ بها، والتي عددنا منها سابقا من "الإيجاد (خلق الإنسان) والأرض والزمن"، وهي التي يقوم بها عامل العمران؛ وليس كما جحد بعض الهالكين كقارون حيث قال "إنما أوتيته على علم عندي"، فأين رزقة العقل والعلم فضلا عن أسباب الكون والأرض التي استخلص منها ذهبه وكنوزه.. ترى من أين كان يتأتى له هذا العطاء لو لم يكن العطاء الأول بأسبابه المعلنة والبدهية التي لا يجسر على إنكارها بر ولا فاجر؟

هكذا بادت الأقوام الأول (عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع وسبأ وأقرانهم) هكذا بادوا حين حقت عليهم قوانين السنن التي ما فطنوا أن يتدبروها ويعملوا لمقتضاها حتى لا يذوق بعضهم بأس من سبقهم، ولا يحيق بأحدهم ما حاق بصاحبه، وقد كانوا على منحة من العقل والفهم والعمل الذي يمكنهم من تدارك أنفسهم ألا يصيبهم ما أصاب من قبلهم .. لكنهم أبوا إلا أن يتعظوا بأنفسهم لا بغيرهم.

" وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)"[الأحقاف].

أما التمكين الحقيقي الأبدي فهو لن يكون إلا كما أراد الله خالق الكون (للصالحين) من أهل الأرض حتى ولو اقتضت سنة التبديل أن يقوم على أمرها ـ زمنا ـ قوم ليسوا من أهله، وهذا غالبا ما يكون ليس حظوة لأهل الإعراض والإفساد، إنما عقابا لأهل الإيمان الذين ألهتهم وفرة النعم وإسباغها عن شكر المنعم والقيام لدين الله بما هو أحق به، فيجعل الله عليهم مدار الدوائر ودوال الدول كي يثوبوا إلى منهجهم الذي استحقوا به الريادة والسيادة ، وقد نجد هذا جلي في نصوص القرآن:

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) [الأنبياء] .. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)[الصافات].. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)[إبراهيم]..

فسنة التمكين لا تحكمها قوانين الأرض وأسبابها مهما تبين لنا من مسار أحداث التاريخ والحضارة من ذلك، لكنها محكومة ومحكمة بأسباب السماء وإن بدت لنا في ظاهرها غير ذلك، وإن الله لما خلق الإنسان على فطرة التوحيد، واستخلفه في الأرض فقد جعل له لذلك منهجا يحكم به ويحتكم إليه في كل دقائق حياته وعظائمها، وما كان الله ليترك الإنسان من غير منهج، ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل.. وإذا كان من نوع الإنسان من قد اشتط عن مألوف الكون ونواميسه وفطرته، فإن الله لم يجعل له حكما عليها وإنما جعل إمرة الصالحين والمردة سواء لأهل الإيمان والمصحلين الذين يحكمون بالمنهج الذي أنزل الله، حتى يكون ذلك حافظا للأرض ومبلغا رسالة الله في الكون والإنسان.

يقول جارودي "فآيات الله في صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله في صحائف الوحي تلاقيا يجعل النظرة إلى الكون أسمى، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض، والتي تقود إلى القوانين العلمية الشائعة في الوجود، وإنما يمتاز العلم المتدين بأنه يضفي على هذه القوانين معنى أشرف"

ويقول "إنها قوانين دنيوية بالنظر إلى العلاقات التي تسودها بيد أنها دينية رفيعة القدر عندما نلحظ صلتها بالخالق"..(٥)

١. (مشكلات الحضارة) مالك بن نبي
٢. نفس المصدر
٣. (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). أبوالحسن الندوي
٤. سر تأخر العرب والمسلمين. (الشيخ مُحَمَّد الغزالي).
٥. تفسير الشيخ الشعراوي

الاستخلاف والتمكين والإعمار(٢)

وعندما نتأمل قول جارودي "فآيات الله في صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله في صحائف الوحي تلاقيا يجعل النظرة إلى الكون أسمى، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض، والتي تقود إلى القوانين العلمية الشائعة في الوجود، وإنما يمتاز العلم المتدين بأنه يضفي على هذه القوانين معنى أشرف"(١)

هكذا يكون منطق العقل المؤمن والفطرة السوية؛ أما العقل الإنساني المنغلق على نفسه نابذا حكمة السماء، المغتر البطر بما عنده من العلم، فيظن أن خلاص البشرية في رقيه التاريخي وأن مدار الزمان سيجعل منها حاكما فردا على الكون لا يحتاج بعد ذلك إلى الإله؛ وهذا ما ارتآه فولتير في القرن السابع عشر الميلادي.. فماذا قال؟ وماذا حل بالبشرية بعد ذلك حين ارتقى العقل بالعلم في القرن العشرين والواحد والعشرين؟

يقول فولتير: "إنه يمكننا أن نعتقد أن العقل والصناعة سوف يتقدمان أكثر فأكثر وأن الفنون المفيدة ستتحسن، وأن المفاسد التي حلت بالإنسان سوف تختفي بالتدريخ بين أولئك الذين يحكمون الأمم، وأن الفلسفة بعد انتشارها في العالم ستقدم العزاء للطبيعة البشرية عن الكوارث التي ستعانيها في العصور كلها".(٢)

هذا الإنسان المأفون الذي اعتمد العقل مرجعا وملاذا يركن إليه بصفته المنقذ المؤمل للبشرية، كما أن الفلسفة التي اهتدى إليها سوف تقدم العزاء للبشرية عن الكوارث التي تعانيها في العصور الفائتة والقادمة.. فهل هذا ما تحقق في قرن فولتير أو بعد قرنه، أو بعد قرنه بقرون؟!! لقد مرّ ما يربو على ثلاثة قرون من عهد فولتير وحتى يومنا، قفز العلم فيها قفزة خرافية طاف فيها أرجاء الكون ومهد لنفسه في جنباته، وذلل المادة، وشمخ بأنفه حين ظفر بالتكنولوجيا والرفاهية طفرة غير مسبوقة، وتجلت هيمنته في تفاصيل الكون وأعماق الأرض ودقائق العلم والحياة .. فماذا جنى؟!!

الحقائق التاريخية التي توثقها الكتابات التاريخية لا تحتاج إلى إعادة مراجعة أو تدقيق فهي تنبئ عن قليل من كثير مما أصاب هذه البشرية في هذه العهود القريبة ، كما أن الشواهد البشرية قريبة عهد بكثير مما حدث، فلا تكاد تحتاج إلى وثائق إلا للتحقق من التفاصيل لا الوقوع، ولا تحتمل اتهاما ولا الشك في شيء منها بالافتراء أو التكذيب .. إننا لا نتحدث عن عهود غابرة قد ضرب الزمان على أحداثها فعفت آثارها واندرست رسومها، إنما الرسوم لا تزال باقية والأحداث الكثير منها لا تزال جارية!!

ليست آثار الحرب العالمية الأولى والثانية عنا ببعيد، وليس ما أصاب اليابان من آثار القنبلة النووية قد ذهب أثره، وليس ما خلفه الاستعمار في الشرق ـ ما مضى منه وما بقي ـ من تغيير للهويات، وإزهاق للأرواح ، وإتلاف للأموال والموارد والعمران، بل ما أصاب البر والبحر جميعه كما ذكر القرآن "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا..".

لا تزال جثث العبيد المزهقة ظلما والمتلفة عمدا في صحراء أمريكا راعية الحضارة، والهنود الحمر، وأفريقيا المستعبدة المنتهبة الثروات والبشر؛ وما قبل فولتير من ملاحم الحروب الصليبية في الشرق العربي المسلم وما بعده وما بين ذلك، ليس كل ذلك عنا ببعيد مما قدمت حضارة الغرب العلمية للعالم حتى "ظهر الفساد في البر والبحر "، فضلا عما حاق بالأخلاق البشرية والمثل التي تعورف عليها فطريا لحفظ الحياة والعمران قبل ظهور أخلاق الحضارات، وفلسفات الإنسان.

فهل صدقت نبوءات فولتير الذي اتخذ العقل هاديا والفلسفة إلها أو منقذا؟!! لقد كذب وكذبوا .. ولم تجن البشرية من فيض العلم وتحرر العقل من القيم والشرائع إلا ما نرى وما نسمع ليل نهار!! ولم ير العالم وبالا أشد وأنكى مما رآه على أيدي هؤلاء الدخلاء على التمكين في الكون الذين جعل لهم الله الدولة عقابا على البشرية عامة، وعلى أهل التمكين الجديرين به خاصة لما فرطوا وأفرطوا في منهج الله وأمانته التي ألقاها إليهم، فركنوا إلى آثار آبائهم الفاتحين، حتى عفوا وأترفوا وأسرفوا، فمالت بهم الأرض ومال عليهم شذاذ الآفاق وسفلة البلاد.

وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟!!

وقد ترتب على هذه السقطة التاريخية التي هوى بها أصحاب التمكين أن أقبل العقل والفكر ليعيدا النظر في كل شيء، على رأسها الأخلاق والأديان والحريات والمذاهب العقدية والفكرية والفلسفية؛ ثم تراجعت مناهج السماء وتوارى أصحابها ليحل مكانهم أولياء الشيطان من دعاة المذاهب الحديثة ، ثم نمت طائفة أو نابتة من أهليها (أهل الأديان) تشكك في كل قديم وتزري به، وتدعو حتى بني جلدتها ـ لا أن يفيقوا من غفوتهم ـ إنما أن يعيدوا النظر فيما بين أيديهم من التراث ثم الأصول! وقد رموها بكل وصم للتراجع والتخلف، ونسبوا إلى ساحتها البريئة ـ إن لم يكن الجهل ـ فهو القدم والتراجع التاريخي التي لا تصلح معه إلا أثرا تاريخيا يحترم، ثم يوضع على أرفف النسيان ليستقبل بدلا عنه هذا الطارئ الغربي الذي أفسح للعلم هذه المكانة وأعلى قدره فوق كل قدر.

إن من سنة الاجتماع البشري الطبيعية أن يقوم على عنصرين بدهيين هما (الحكم والقيم).. أما الحكم فلابد منه لحفظ الأمن والدين والمال والمكتسبات والأنفس، وأما القيم فهي التي يتعارف عليها كنظم أخلاقية وسياسية للاجتماع؛ ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فإن اختلت المباديء والقيم أو ضعفت، قوّم حالها الحكم وأعاد انضباطها، والمعنى أن سطوة الحكم تحق حين لا تجدي مرونة المبادئ..وإن اختل نظام الحكم، قامت له النخب من أصحاب القيم والشرائع وسدنتها حتى ترده إلى صوابه، أو تسعى في تغييره إن أمكن.

أما الاجتماع البشري المعد حسب منهج السماء فقوامه (الحكم والشرع)، وكما قال ابن تيمية رحمه الله "سيف يحكم وكتاب يشرّع"، وقول عثمان رضي الله عنه: "يوزع بالسلطان ما لا يوزع بالقرآن"، وهذا هو مناط التميكن الحقيقي الذي أراده الله "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون".. ".

فإن دارت الدائرة حينا من الدهر على أهل التمكين الحقيقيين فهو من غياب أحد عنصري الحضارة أو كلاهما؛ وكما ذكر ابن خلدون في حالة التحقق الحضاري والاستواء فإنه لابد أن يسود خلق الترف ويتراجع خلق العدل ويضعف الحكم ويبدأ معدل الحضارة في الهبوط، ثم يؤذن لها في التراجع والتحلل القيمي والخلقي والعسكري" (٣) ؛ فيعاقب الله أهل المنهج، فيجعل لغيرهم الغلبة عليهم حين تكون لهم غلبة القوة ، وإن غابت من نفوسهم واجتماعهم فضيلة القيم.

وهذا وإن كان تحقق حديثا مع أهل الإسلام فإنه لا يعدو أن يكون سنة من سنن الله الكونية في التمكين والاستخلاف، وقد جرى كما ذكر صلى الله عليه وسلم مع بني إسرائيل من قبلنا وقد اتبعنا السنن فاستحققنا العقاب "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)[الإسراء].

١. صراع الحضارات (روجيه جارودي)
٢. نفس المصدر
٣. مقدمة ابن خلدون (بتصرف)

التمكين الحق: دنيا وين

ذكرنا أن الدنيا ربما تصرف لأهلها ولغير أهلها، أما الدين فلا يصرف إلا لأهله؛ ولذا كان لزاما أن يُجعل التمكين الحقيقي لأهل التوحيد كما نزل وكما أمر به (قولا وفعلا).. ولكن التمكين وفقا لمعطيات المنهج السماوي لا يطابق شكلا ولا جوهرا التمكين الذي يتأتى وفقا لإعمال العقل البشري، وإن كان العقل البشري في الأولى هو المتلقي عن الوحي المحقق لما أراد كما وعى وفهم عن الشرع، وإن طرأ ثمة خلل أو حيدة عن قدسية المنهج فهذا لقصور العقل، أو ما طرأ من طارئ الهوى في التغيير أو التحريف أو التبديل .. بمعنى أن القدسية وإن تناولت المنهج فإنها لا تتناول التطبيق، وإن وسم بها الوحي فلا يحق أن ينسب ذلك إلى العقل، وإن عصمت بشرف التنزيل وعصمة المتلقي (الرسول)، فإن هذا لا يسري تباعا بكامله على من تناول التطبيق من بعده، حيث البشرية تخطئ وتصيب، وتعلم وتجهل، وتتنازع العقول في المتشابه، ويختلط عليها حينا في الفهم والعقل.

أما في الثانية (التمكين وفق اجتهادات العقل) فإن هذا أيضا لا يخلو أن يكون بإذن من الله وأمر، وإن تحقق وفق أسباب الحياة ومعطيات العلم، فإنه إن لم يأذن به الله لن يكون، وهو ما يسمى (الإرادة الكونية) "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)"[آل عمران].

إن الإنسان مع العقل الأول قد ولد غرا، ليس عنده شيء من أوليات العلم الذي ينفع به نفسه ، أو يهيء الكون له من حوله؛ وقد كان لزاما لبقاء استمراه وحفاظ حياته أن يكون لديه من الإحاطة بأسباب الحياة ما يحقق له ذلك، ولما لم يكن عنده شيء من هذا العلم الأولي الضروري، فلابد أن يطرح السؤال الطبيعي: من الذي مكن له في هذا الكون حتى يحيا ثم يؤصل أسباب استقراره واستمراه، ثم يعمد إلى هذا الكون فيطوي فيه هذا المسافة الزمنية والمكانية ، ويطوع لنفسه أسباب الحياة والبقاء؟

لا بد أن قوة عليا ألهمته هذا الإلهام وعلمته هذا التعليم، ومنت عليه بحفظ النوع والنفس والمكتسبات حتى صار إلى ما صار إليه الآن يغالب مفردات الكون فيغلبها وتغلبه تارة وتارة " وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)"[النحل].. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)"[المؤمنون].. قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)"[الملك].

هذا الانفعال والتوافق الأولي بين الكون وبين الإنسان الطارئ عليه الذي يوحي بأن ثمة عقل فوقي، أو قوة عليا قد جعلت أو صنعت هذا التناغم على وفق ما يلائم الطبيعة البشرية والكونية معا، مما يهيء للأولى أسباب الاستخلاف الأوّلى التي يتأتى منها تباعا أسباب التمكين والمترتبة عليها؛ هذا ما ذكره (د. عمرو الشريف): عما سماه الفلاسفة ب (برهان التناغم)، كما قال (فريمان ديسون).. "كلما ازدادت معارفنا التي تظهر التطابق بين دقائق بنية الكون وبين احتياجاتنا، ازداد شعوري بأن هذا الكون قد أعد لا ستقبالنا.. ويعرف المفهوم الذي يرى أن الكون قد ثم بناءه على هيئة تجعله ملائما تماما لنشأة البشر ب "المبدأ البشري The anthropic principle .. " (١). (شريف، ١٤٣٢هـ. يونيو ٢٠١١)

ويسمى ذلك البرهان كذلك بالبرهان الغائي للكون عند (توما الإكويني)، و(برهان العناية) كما عند ابن رشد، كما جاء عند د. سامي عامري ، حيث ذكر ابن رشد أن البرهان يقوم على أصلين: الأول موافقة جميع أجزاء العالم لوجود الإنسان، وأن ما كان مسددا نحو غاية واحدة فهو مصنوع لحكمة ضرورة". (٢). [i] (عامري، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨)

هذه القوة العلوية التي استطاعت أن تنزل هذا الإنسان إلى الأرض مستقبَلًا بكون معدًّ أيما إعداد، ثم على حالة من التناغم والتوافق والقدرة على التعايش، وأرض مذللة ، وسماء مظللة ، وهواء وسقاء ونماء وحفاء.. ترى هل صدفة؟! ما

لها وجود إلا في خلفيات أذهاننا العقيمة فضلا أن يكون لها القدرة على أن تصنع كل هذا الصنيع البديع .. فأنى يؤفكون؟!!

وإذا كان العقل الإنساني قد انصاع طوعا أو كرها مرخيا زمامه لهذه الكونية الطبيعية الدقيقة وقد حفظت عليه حياته ومعطياته ومكتسباته، وأذعن كذا طائعا أو كارها لمكون هذه الكونية في متعلقات حياته الطبيعية، فما الذي يمنعه وقد حققت له ما حققت، وحفظت له ما لم يكن له القدرة على حفظه إلا بالالتجاء إليها، فلم لا يسلم لهذه القوة العلوية حياته الروحية وهي (الحياة الحقيقية) كي تحفظها عليه وله كما حفظت غيرها؟ .. ألئن جعلت له في الثانية اختيارا وإرادة وفهما، فقد راح يستعلي وينابذ ويراجع ويرد الأمور إلى غير مردها، ويدعي أن يقوم بنفسه على هذه الحياة (الروحية)، وهي في أهميتها له أعظم قدرا من حياته الطبيعية ؟!!

وإذا كان عقل البشر قد تعارف على أن كل صاحب صنعة أدرى بصنعته، وهو أولى من يقوم بحفظها وبقائها، وإذا كان الله صانع الكون والإنسان معا، لم يطرأ علينا حتى الآن منذ عمر الكون والبشرية أن يدعي أحد لهما الخلق أو الشرك في الخلق، فلم يجعل ما سوى الله هو صاحب منهج الحكم عليها .. أليس من الأولى أن يكون المنهج الإلهي هو الذي يقوم على إدارة هذه العلاقة المتشابكة كي يحقق لها نمطية مثلى من الاستمرار والتمكين؟!!.

لكن هذه القوة العلوية لم تكن لتجعل للإنسان الجاحد يدا حاكمة أو مطلقة في هذا الكون تفسد فيه كيف تشاء، وهي غيرة كل صاحب صنعة على صنعته ، وكذا هو حتمية الحفظ التي تعهدت بها أن تحفظ هذا الإنسان ولو كانت من خطرات نفسه وشياطينه المهلكة؛ فقدمت من لدنها منهجا سماويا حاكما راشدا هاديا نافعا يحكم هذه العلاقة بينها وبينه، وبين الإنسان ونفسه وجنسه، ثم بين الإنسان والكون.. ثم إنها أوكلت إلى هذه الفئة المؤمنة المستقبلة لهذا المنهج طوعا أن يكون لها سدانته وحمايته وتحقيقه على نفسها وإبلاغه لغيرها من الجاحدين.

وبموجب هذه المنهجية فقد جعل الله القوامة على الأرض والكون والحكم فيه بهذا التمكين الذي استوجبته بما بذلت من حسن الاستقبال وحسن المحافظة والتطبيق، وقد أيد هذه الفئة المؤمنة بنصره وعلمه، ثم حفظها ما بقيت حافظة لهذا المنهج قائمة على أهل الأرض أو الكون بحقه، فإن هي أخلت بما عهد إليها من المحافظة والدعوة لهذا المنهج، اختل من بين أيديها قوام هذا الأمر الذي سمت به وسادت .. ثم ما تلبث أن يوكل أمرها إلى غيرها يستبيح بيضتها حتى ترجع إلى رشدها.

---

١. رحلة عقل (د. عمرو الشريف)
٢. براهين وجود الله (د. سامي عامري).

السنن الحضارية: كيف نقرأ ونعتبر؟

جبل الله الطبع البشري على حتمية الثواب والعقاب، وجعل ذلك دافعا من دواعي استمرار الحياة وملذاتها، فما أجمل أن يجد الإنسان مردود سعيه، وثمرة جهده متمثلة شاخصة كلما جمع عزمه وبذل وسعه ثم تحقق له ما يريد، ثم تتجدد هذه الحالة تلقائيا في النفس البشرية فتشغف أن تضيف إلى رصيدها ونجاحها وإنجازاتها حتى تصل كلما أنجزت وأثمرت إلى حالة من التحقق الحضاري التي نراها شاخصة أمامنا كلما مر التاريخ وضرب الإنسان في عمق الزمن وتتابع الأيام.

لكن النفس البشرية كما ألهمت هذا الشغف المنجز، فكذلك هي قد فطرت على الغرور والبغي والطغيان والخروج على مألوف القيم الفطرية، فكان لزاما كلما اشتطت بدافع من الهوى، وشطحت مع نفثات الشياطين؛ أن ترد إلى صوابها وتستعاد إلى رشدها، وهذا هو عين مبدأ العقاب..

فكما كان الثواب دافعا للتحقق الحضاري والإنجاز البشري، والتجدد والتميز؛ فإن العقاب فرض لحفظ الإنسان من نفسه وشططه الذي قد يذهب بما جمع وأوعى، وقد يفسد عليه حياته، وقد يفسد الكون من حوله، هذا الذي قد تناغم مع تكوينه الفطري البيولوجي والنفسي؛ وقد علم منذ القدم أن "من أمن العقوبة أساء الأدب" أو أساء العمل، وقد ورد ذلك في القرآن بينا "كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى"؛ فهو يطغى لمجرد أن يرى في نفسه ذلك ولو يكن متحققا واقعا، إذ لا سبيل له للاستغناء وقد احتاج إلى كل ذرة في الكون، وقد تزهق نفسه سراعا إن حبست عنه ذرات الهواء دقائق معدودات أو منعت عنه قطرات الماء .. فكيف به يشرأب بعنقه، ويثني عطفه، ويصعر خده وقد علم أنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا؟!!

ولما كان هذا المبدأ ناموسا كونيا في الكون عامة وفي الإنسان خاصة، فإن الإنسان قد اختار أن يطبقه على نظم الحياة الاجتماعية التي يحياها مع بني جنسه حتى يتحقق له في اجتماعه مع بني جنسه ما تحقق في سيمفونية الكون الحية جميعها بما فيها الإنسان؛ مما يؤكد أن هذا المبدأ قد أقر العقل البشري بضرورته لصلاحية استمرار الحياة وديمومتها.

وقد ضرب القرآن لنا مُثُلا من حيوات الأمم السابقة التي ضربت عليها هذه النواميس الكونية، والمبادئ الإلهية والسنن الربانية التي لا تجد لسننتها تبديلا، ولا تجد لسنتها تحويلا.. هذا الاستخلاف الكوني الذي أراده الله للإنسان للإعمار والعبادة لا يكون انفكاك لكلا الغرضين عن الآخر، فلا يكون عبادة إلا بتحقيق الاستخلاف والإعمار والحكم الذي يحقق الأمن ويحفظ النفس والعقل والدين والعرض، كما لا يكون استخلاف حقيقي أو تمكين إلا كما أراد الله لخلقه أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا ويصرفوا إليه الفضل والشكر أن جعل لهم مثل هذا التمكين في الأرض، وأدنى لهم وأذعن قوانين ومفردات الكون.

فإذا كان ثمة انحراف عن قوانين السماء، وسنن الفطرة فإن السماء تتدخل لتقيم الملة العوجاء، وتفتح الآذان الصم والأعين العمي، فإذا ما نكصت العقول على أعقابها، وارتدت على أدبارها وقد جاءتها النذر تلو النذر من بين يديها ومن خلفها، كان عقاب السماء رادعا قاطعا، لا يبقي من آثار المعرضين ولا يذر!!.

ثم تنقل خبر هذا الإهلاك الذي حاق ببعض الأمم إلى من بعدها من الأمم في رسالتها التي اختصت بها، وعلى لسان النبي الذي كلف بتبليغ الرسالة إليهم لعل يكون في خبرهم عبرة لما استقبلوا من منة الاستخلاف، وما كلفوا من إقامة التوحيد وإخلاص العبادة وإجابة داعي الخالق الذي مكن لهم في الأرض وخلفهم من بعد ما أهلك من القرون الأول.

وقد جاء خطاب القرآن واعيا شاملا لذلك حيث نقل لك نبأ من قبلنا، وما حاق بهم من العذاب والإهلاك، وما غيروا وبدلوا في دين الله وما نكسوا من الفطر وما خرجوا عن مألوف الشرائع السابقة، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم

"إن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال.. فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال .. " شعب الإيمان/ البيهقي.

ومن محكم السنن الإلهية التي عدها القرآن والتي لا تحيد عنها نواميس الحياة البشرية، ما جاء في كثير من الآيات التي تعلم البشرية منشأ أمرها ومآله: " قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)[الأعراف].. "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)"[الأنبياء].. "اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)"[فاطر].. "ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)"[الأنعام].. "وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)"[القصص].. "..لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)"[الأنفال].

وهذا إيذان للبشرية جميعها الغابر منها واللاحق، أن حكمة الله في الخلق اقتضت أن يكون الاستخلاف والتمكين الحقيقي لأهل التوحيد حتى لو أتت عليهم السنون، وداولت عليهم الأيام، فإن حتمية العلم الإلهي والعدل الذي كتبه على نفسه تقتضي أن يجعل لهم من بعد العسر يسرا، ومن بعد الضيق فرجا، ومن بين الكرب متنفسا حتى تكون لهم الغلبة والنصرة ، وحتى يمكن لهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم .

ولقد وعى الذين درسوا الكتاب من قبلنا هذه السنن وعلموها، نقرأ هذا في قول النجاشي رضي الله عنه حين سمع كلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فيما ذكر فيه وصف النبي صلى الله عليه وسلم وما يأمر به، فقال "إن هذا والناموس الذي أنزل على عيسى ليخرج من مشكاة واحدة " إذ أن أخلاق الشرائع لا تتغير مهما اختلف الرسل، وأخلاق الأنبياء واحدة كما قال صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".. فهو امتداد خُلقي لسلفه من الأنبياء لم يخرج عن مشكاتهم، ولذا علم النجاشي أنه سيمكن له، وسيظهر دينه على من سواه من الدين كله.

كذلك علمه (هرقل ـ عظيم الروم) حين سأل أبا سفيان بن حرب عن وصف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال بعد سماعه "لئن كان ما تقول حقا، ليملكن موضع قدمي هاتين.. ولئن علمت أني أخلص إليه لأمسحن التراب عن قدميه"؛ ومن ذلك أيضا ما علمه الستة من الأنصار(الخزرج) الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم حين اجتمعوا به فقال بعضهم لبعض " والله إن هذا النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقونكم إليه" ، وقد كان من حسن فطنتهم سرعة المبايعة دون تردد وقد علموا أن الله مظهر أمره، وممكن لدينه على الدين كله.

لايخرج الإنسان مهما مكن وعلا، وبغى واستكبر، لا يخرج عن قوانين الفطرة الكونية، ومآل أمره مهما عظم وملك إلى حتمية السنن من الموت والمرض والفقر والغني والسأم والفرح، "فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا".

لا يقرأ السنن ويفهمها إلا ذوو العقول الحاضرة، الذين استجابت نفوسهم وفطرتهم لهذا التعليم الإلهي المنزل، يحذرهم ويعلمهم ويزكيهم .. ينقل لهم أخبار الأمم من قبلهم ، وأخبار القرون الأولى وأسباب الهلاك والتمكين؛ ولا يرقى مصدر

بشري أن ينقل هذا النقل بتفصيله وإجماله وتحقيقه أبدا، بل لابد أن يكون هذا المصدر ليس من أخباره الظن أو الشك أو التخييل، ولا يعرف أساطير الأولين، ولا يأتيه الهوى، ولا الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن القرآن مصدر تاريخي محقق بجدارة؛ لا يقبل القدح، ولا يحتمل الظن؛ بل هو من لدن عليم خبير، ولذا كان لزاما على البشرية أن تقرأ هذا المصدر التاريخي للاستفادة والعلم وتدوين الحقائق التاريخية،كما وردت دون زيادة أو نقص، فلن يحرم الاستفادة والتزيد منه علما ودراسة من كان مؤمنا به أو غير مؤمن، لأن التاريخ علم يختص بالبشر جميعهم مؤمنهم وكافرهم، عالمهم وجاهلهم"كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا".

فهو يؤكد هذا القصص من أنباء الأمم السابقة؛ وقد استعمل لفظة (أنباء)، لتعظيم الخبر الوارد والانجذاب لحدثه وروايته، واستحضار السمع، وإرهاف الأذن لما يجيء بهذه الأخبار، لأنها ليست للتسلية ولا الترفيه؛ كما يؤكد كذلك مصداقية وقوع هذا القصص وآكديته، ردا على ادعاءا بعض المغرضين في عصور التنزيل ومن جاء بعدهم الذين افتروا كذبا افتعال هذه الأخبار وافترائها "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا".

كذلك ما حدث به بعض المتأخرين ك(توفيق الحكيم) أن القصص القرآني ليس له وجود حقيقي في التاريخ؛ إنما هو نوع من العرض الأدبي، والتسلية الأدبية التي جاءت للتخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم، دون هدف ديني أو علمي أو تاريخي .. وهذا هو الافتراء على الله بالكذب.. بل هو حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك عقب بقوله: "وقد آتيناك من لدنا ذكرا".. فهو تذكرة ورفعة وموعظة وتفصيل لمن ألقى السمع وهو شهيد، لمن أراد أن يذكر أو يتعلم ، أو يتعتبر أو يتعظ" فاقصص القصص لعلهم يتذكرون ".

فهو يحكي قصة الخلق من لدن السموات والأرض ثم مرورا بالإنسان الذي جاء متأخرا، فالأولى قد طرق بابها علماء الفلك والفيزياء الفلكية والمهتمون ببداية الخلق (البيج بانج)، والثانية اختصاص علماء (الانثربولوجيا) وهو الذي يبحث في مراحل الإنسان الحياتية والخلقية وانفعاله مع الكون من حوله، وأطواره الحضارية والعلمية.

كما تعرض القرآن لمراحل خلق الإنسان بالتفصيل، الخلق الأولي، ثم التناسل عن طريق الأصلاب والأرحام، وأطوار التكوين الجسدي في سورة "المؤمنون، وسورة الحجر، والسجدة".. وغيرها، ثم أتى على التكوين النفسي في أكثر من موضع مثل سورة "الإنسان والقيامة والشمس وضحاها، وسورة يوسف، والفجر" وغيرها.. كما ذكر أخبار الأنبياء مع أقوامهم بالتفصيل والإجمال، لا ينقض بعضه بعضا، ولا يعارض بعضها بعضا رغم تعدد الموطن وأسلوب السرد والاختصار والتفصيل والإجمال؛ لم يستطع كائنا أن يقع بعينه أو قلبه على تعارض أو تناقض؛ إنما كان مكملا بعضه بعضا ومؤيدا بعضه بعضا.

وقد ذكر من أسباب إهلاك الأمم على سبيل المثال لا الحصر، التكذيب بالرسالات، والإصرار على الإقامة على الشرك وميراث الآباء الكفري، والجحود والتنكر لنعم الله على خلقه، وصرفها في غير ما أمرى ورضي، والسرف والترف، والبغي بغير الحق، وإيذاء أنبياء الله ورسله، وكذا فساد الأخلاق وانتكاس الفطرة البشرية التي فطر الله عليها عباده، من

فطرة التوحيد والخلق القويم كما فعل قوم لوط الذين أرادوا إخراج قوم لوط من قريتهم لأنهم أناس يتطهرون، بعد أن جاهروا بالفاحشة وأقاموا عليها، وحاربوا نبي الله الذي جاء يدعوهم إلى التطهر والإقلاع عن فحش القوم والعمل.

وقد عد القرآن هذا العمل من الإجرام والإفساد في الأرض، كما جعل عاقبة تطفيف الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم من دواعي الفساد في الأرض كما كان مع قوم شعيب، حين دعاهم نبيهم إلى إيفاء الكيل والميزان بالقسطاس المستقيم، وعدم بخس الناس أشياءهم، فقال "ولا تعثوا في الأرض مفسدين" .. وأن ما عند الله من العوض في البيع والشراء والكيل الصحيح ما يقنع النفس السوية من الكسب الحلال والأكل الحلال، فضلا أن يسود السلام النفسي والاجتماعي والأخوة الإنسانية بين البشر وبعضهم، وهو الذي منه صلاح الكون والأرض بالتبعية ... فكل خلق فاسد منهي عنه فهو مأمور بضده؛ وكل أمر بالتوحيد هو في مضمونه نهي عما يخالفه من الشرك، ولذلك جاءت الدعوة مع سائر الأنبياء "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره".

غير أن القرآن قد أعقب قصص الهالكين في أكثر من موضع بقوله "فانظر" ، وإن كان في هذا ثمة دلالة فهي أن القصص لم تكن للتسلية أو التفكه، أو اجترار حوادث الماضي، أو التعجب كما جاء هذا التوبيخ في سورة النجم الذي حمل في طياته تهديدا ووعيدا حتى سجد النبي والمؤمنون، وسجد المشركون طوعا أو كرها لشدة وقع الآية عليهم، وخوفهم من نزول العذاب بهم" أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)[النجم]"؛ إنما كانت القصص للاعتبار للمعتبرين، والوعيد للمعرضين، والتسرية للمقهورين..

فهو وإن ذكر مواضع إهلاك السابقين وأخبارهم فإنه أراد أن يوعظ أصحاب المنهج القادم في التمكين بأن السنن لا تعرف المحاباة ولا التفرقة؛ إنما هي ماضية على جميع الخلق برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم في التمكين والإهلاك ؛ كما أن فيها إيعاز بالتمسك بالصبر والعض بالنواجذ على المنهج المنزل لأنه هو منطلق التمكين وعدة الاستمرار والانتصار، والملاذ الآمن حين تدلهم النوازل وتكشر عن أنيابها الحوادث.

ذكر القرآن مناط الاعتبار والتعلم في كل موضع ربما قبل ورود القصة ، أو بعد ورودها .. فقال في نجاة لوط وأهله، وهلاك قومه "فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)"[الأعراف]،

وفي قصة موسى مع فرعون " ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)"[الأعراف]، وقال تهديدا لكفار قريش الذين مضوا على سنن الهالكين المكذبين الظالمين من قبلهم "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)"[يونس].

وجاء في قصة نوح مع قومه الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فما كان هذا ليغنيهم حتى يؤمنوا، وما كان طول الأمد هذا مانعا لهم من العذاب، بعد أن أقاموا على الكفر زمنا طويلا ولم يجد نبيهم أملا أن يخرج من أصلابهم إلا فاجرا كفارا"فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُنْذَرِينَ (٧٣)"[يونس].. وأما قوم ثمود الذين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، ثم أرادوا أن يبيتوا لنبيهم ليقتلوه إمعانا في الكفر، واستمراء في الكبر والجحود فكان جزاء مكرهم كما ذكر القرآن "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)"[النمل].

ثم نعى القرآن على هؤلاء الغابرين الذين ألفوا آباءهم على حال بينة من الضلال والكفر فلم ينزعوا عما علموا ضلاله، ولم يكلفوا عقولهم أن تتوقف حتى تتبين الحق من الباطل والخبيث من الطيب، فهرعوا إلى اتباع الهوى في آثار الآباء وباطلهم، رغم علمهم بما ألم بهم من الإهلاك والإبعاد ، وما حاق بهم من العذاب وقد كان أحرى بهم أن يسعوا في نجاة نفوسهم، وأن يتوقفوا مع دعوة الأنبياء التي جاءتهم فيعلموا صدقها فيؤمنوا "إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)"[الصافات].

تلك من لطائف السنن التي أحاطت بالكافرين والمفسدين من الأمم؛ لكن هناك من السنن الإلهية ما لا يحصيه العدد ولا يحيط به الحصر، وإن كانت هذه أخبار الهالكين فهناك من السنن ما يقع على المذنبين والمقصرين، وأصحاب المنهج الذي تراخوا عن أخذ منهجهم بقوة كما أمروا ، واستمرأوا ترف الحياة وزخرفها فحاق بهم ما حاق بأمثالهم.

كيف نقرأ السنن ونعتبر

من هنا نخلص إلى هذا النوع من التربية بالسنن، ليس الغرض القرآني هنا التهديد أو الوعيد المجرد، فقد تُنال بالتوازي عناصر التمكين ومؤهلاته، مع فكرة الوعظ والاعتبار والتهديد التي يسوقها القرآن ليقيم الممكنين على منهجهم ولا ينحرفوا لئلا تجري عليهم السنن.. وإذا، فهو يربي النوع البشري على الترسيخ لفكرة الإعمار والإصلاح، والبعد عن كل ما يفسد في الكون الذي جعل مهادا لإقامة الإنسان ومعاشه، لكن اعتماد العقل البشري على ذاته وهو لم يكن من التجربة الكونية والحياتية بالذي يمكنه من الاستمرارية في تطويع الكون وتسخيره ، اعتماده المجرد على ذاته هو غير كاف للحفاظ عليه وعلى الكون الذي يحيا فيه..

فالعقل مقصور محدود مهما علا وراكم من مؤهلات الخبرة، كما أن جبلات النفوس وطبعها على الخير والشر مؤذن بكثير من الصدام البشري الذي عاينا وعانينا كثيرا منه قديما وحديثا؛ هذا الصدام الذي يودي بكثير من المكتسبات البشرية الرائعة، والمحققة لوجود الإنسان وتكريمه ، هذا الصدام ربما لو استمر كما راينا في الحروب العالمية القديمة والحديثة هو مقدمة أو تمهيد لفناء البشرية والتضحية بقيمة الحياة ... هذه المنة الإلهية ، والمنحة الربانية التي لا تعدلها قيمة في الوجود، ولا تستطيع قوة مهما كان عطاؤها أو تمكنها أن تمن بمثل هذه القيمة على الإنسان، وتحفظ له استمراريتها على الوجه الأكمل حتى ولو كان هذا من نفسه ومن بني جنسه.

فجاء هذا المنهج الإرشادي على المستوى النفسي والاجتماعي والعلمي والإداري ، شاملا كاملا واعيا، لكل ما يمكن أن يطرأ على الحياة ويستجد في قوابل الأيام؛ فالتعريف بالتاريخ البشري المنقضي حتمية طبيعية يتعلم الإنسان منها ما راكمته التجربة التاريخية لبني جنسه، وما سطره تاريخ الجنس البشري قديما لينتفع به حديثا؛ سواء كان مدونا أو غير مدون .. فالمدون ما هو مكتوب مسطور بين دفوف الكتب وعلى صفحات الألواح؛ أما ما لم يدون فهو الذي وعته الذاكرة البشرية الحافظة من فكرة النقلة الحضارية النفسية والمادية، فلو فرض اندثار المسطور البشري أو غيابه ، فإن الذاكرة البشرية الواعية تسطيع أن تصيغ كثيرا مما كان في سطور الكتب، ومما حوته من الخبرة والعلم وتفاصيل الكون والإنسان.

والله تعالى لم يشأ أن يترك الإنسان في الطور الأوّلي الذي قدم فيه على الكون حتى لا يضيع مع الاعتماد على العقل الذي لم يكن لديه من مخزون المعرفة والتجربة ما يؤهله للاستمرار والتعامل مع الكون؛ وهذه النظرية تدحض بكل بساطة فكرة (التطور) البشري، فالإنسان الأول كان عرضة للهلاك في الكون والاندثار لو فرض بدائيته على الوجه الذي تفترضه النظرية الداروينية، إذ لم يكن له من تجارب الخبرة ما يضمن استمرارية، ومن عوامل القوة كذلك ما يُغلّبه على المخلوقات الأعظم منه والتي طرأت على الكون قبله بآلاف وربما ملايين السنين.

فجعل الله له هذا العقل، وهذه الألفة في الكون ومع المخلوقات والتفاهم، وكذلك بعث له من يعلمه من الحيوان والملائكة ويهديه في الشأن الحياتي الذي يؤهله للاستخلاف؛ ثم بعث له كذلك من يعلمه عن الخالق الذي قدم الكون ليعبده ويوحده ليباهي به ملائكة السماء، ويرغم بعبادته أنف الشيطان بعد أن ثبتت العداوة بين الجنسين بمجرد تحقق خلق الإنسان.

ولست أدري على أي وجه يحيا هؤلاء المبطلون الملحدون ، وأي اتفاق أو اندماج لهم في منظومة الكون الهائلة المتقنة دون أن يكون لهم صلة بهذا الخالق الحكيم الذي شاد هذه المنظومة بهذا الجمال وهذا الإحسان وهذه الدقة " صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)" [النمل].. "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)"[السجدة]..

وإن كان على المستوى البشري، يحسب الخارجون على حكم ملوكهم وأمرائهم وعن رعايتهم، يعيشون كالقطيع الهائم على وجهه في الأرض، أو كالغنم القاصية عن قطيعها توشك أن تقتنصها الذئاب؛ أوتفتك بها وحوش البر ولا يبالي أحد بعد بأي واد تهلك!!.

إن هذه السنن التي جاءت تنبه وتؤدب وتزيد في العقل، وتستحث النفوس لقراءة تفاصيل الكون والتاريخ ، وأخبار الأمم، والاعتبار بما مضى ، والاستعداد لما هو آت ،، قد وجدت قطيعا من بني الإنسان شاردا هائما، لا ينظر إلى خالق ولا يستوقفه تجربة ولا تاريخ ، ولا يعتبر ببني جنسه ، ولا يؤمل في مستقبل مشرق قادم إن انفصل عن هذه الوحدة الفلكية والأرضية التي تسير بنظم جد متقنة، وحين انفلتت من هذه المدارات الطبيعية كان أشبه بهذه النيازك التي تهوي في الفضاء ترتطم يمنة ويسرة ثم تحترق حتى يكون فناؤها غير مأسوف عليها" وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)" [الحج].

"وعندما تصل حركة التاريخ إلى طريق مسدود بعد أن يفسق أهل القرى ويخلعوا طاعة الله . . في هذه الحال يكون لا أمل إلا في شيء واحد . . هو الزوال . وهذه هي المعادلة الوحيدة الصحيحة في تفسير التاريخ: خروج على قوانين الله . . إمهال نسبي من الله قد يغري الخارجين على القانون بالتمادي . . تجمع لعوامل الفناء . إغلاق لباب العودة . إبادة وموت في شكل مجموعة من الكوارث! ! "(١)

"لكنها سنة الله في حركة التاريخ؛ فعندما يتم الخروج على قوانين الله تتجمع عوامل الفناء فيغلق باب العودة، ويتحقق الموت في شكل مجموعة من الكوارث.. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا!!".(٢)

وهذا مما يفسر بما لا يدع مجالا للشك استمرارية الكون وانضباطه وانسجامه على هذه الحال العجيبة رغم مرور هذا العمر الكوني العظيم .. فتدخل الحكمة الإلهية في كل شأن، وفي كل زمن هو الضابط الأعظم لمنظومة هذا الكون، ولو قد ترك الإنسان على حاله النفسية والاجتماعية مع غرائزة من التسلط وحب الاستحواذ والسيطرة والتملك لحاول الكثير منهم أن يفني البعض، وأن يسوس البعض الآخر مما قد يتفانى الكون معه رويدا رويدا .. لكن الحكمة الربانية وإن كانت تملي في الإمهال أحيانا فإن ذلك مهما يمتد لا يخرج عن طور الحكمة وتأكد المصحلة؛ حتى إذا ما انتفت المصحلة البشرية والكونية أذن الله باستبدال أهل الإفساد والإتيان بقوم آخرين ليسوا على شاكلتهم ولا على ملتهم .

" وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧)"[إبراهيم].

ثم تأتي سنة الصراع بين الكفر والإيمان، وبين أهل الشرك المفسدين وأهل التوحيد القادمين بتكليف من السماء حتى يمكن لهم في الأرض ويخلفونها من بعد الظالمين .. هذا الصراع فيه المدافعة والمغالبة والقتال، إذ التمكين مهما تورَّع أهله وعبدوا الله كما أمروا إلا أنه لا يتأتى لهم على البسط والفرش، ولا في آنية الذهب والفضة ، ولا في خطرات العبادة

..إنما يتأتى على قدم الجهد و شُقّة الكفاح وملهبة القتال وقسوة الاختبار، وشظف العيش وحرقة الأكباد؛ يخرج هؤلاء الموحدون من رحم المعاناة حتى إذا ما حمي الوطيس واشتد البأس، وأشرف اليأس، انبلج نور الأمل على قوادم النصر، وأينعت ثمار الجهاد، وآتت أكل الصبر، وأورق من يبسها خضار الدعوة والعلم، وفتحت الدنيا وتبدل وجه الزمان.

السنن مؤدبة مربية معلمة ممكنة على مستوى الجماعات، وعلى مستوى الأفراد.. فمن لم يتعلم قراءة السنن، والاعتبار بما قد مضى فقد حقت عليه كلمة العذاب أو الاستبدال أو الهلاك أو انزواء الدنيا وتبدل الزمان وجهامة الأيام.

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)"[يوسف].

١. أوراق ذابلة من حضارتنا(د. عبدالحليم عويس).
٢. نفس المصدر

المنهج الروحي في التربية

يقول (ألكسيس كاريل) في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" أن العنصر البشري قد تأخر كثيرا في حياته الروحية وتربيتها أمام الجانب المادي من حياته، والتي طغت إحداهما على الأخرى، وقد كان به أن يسير في نقلته الروحية بالتوازي مع حياته المادية إن لم تكن الأولى أولى أن تسبق الثانية .. كما يقول (أينشتين): أن معضلة الإنسان تكمن في أن نموه

العقلي والعضلي قد سبق بكثير نموه الروحي؛ وهذا ما أدى إلى احتدام الصراع المادي البشري على الأرض مذ علا الإنسان بساطها، وإلى محاولة إفساد الجنس البشري بعضه بعضا وكذلك إفناؤه.

لقد صرف الإنسان وأسرف كثيرا من عمره في بناء حياته المادية التي ظن دوما أنها في خطر؛ مهددة بالفناء، وأن بقاءه واستمراريته تستلزم الصراع وربما الفناء لبعض عناصر الجنس حتى يستبقي البعض.. ولو كان الإنسان مصطحبا في حياته منهجه الروحي الذي نزل به إلى الأرض لكان أبقى له وأصلح لجنسه، لأن التقرير الإلهي الأول الذي تقرر حين أهبط آدم إلى الأرض استلزم أن يكون له منهجا ضابطا هاديا راشدا ينير الطريق ويصلح الحياة (الدنيا والدين)، فكان النداء " قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)"[طه].

هذه التربية الروحية التي كان أولى بها السبق، هي التي قابلت وجمعت بين فطرة الخلق ووحي السماء؛ هذا المنهج العلوي والهدى الرباني الذي أعقب هبوط الإنسان ليبتني به حياته الروحية والعقلية والمادية، هو الذي استصحب الإصلاح والتمكين للإنسان في الأرض، وبدونه فهو في "معيشة ضنك"؛ ليست المعيشة الضنك هي نقص الوسائل المادية والإمكانيات الحضارية والترف المدني، إنما هي حالة من التخبط واحتدام الصراع والاقتتال المؤدي إلى الفناء، وإفساد الكون بما فيه من الحرث والنسل، والتوظيف غير السوي لمعطيات الحياة ومادياتها، والانزياح بالنعم والحيدة بها عن طريق الخير، وصرفها في مدارج الشر وبنياته، وإعلاء شأن الكسب المادي على المنهج الرباني الذي نزل ليصلح شأن الدنيا والآخرة.

هذا الافتيات البشري غير المسئول على الشرائع والمناهج الربانية هو الذي حول حياة الإنسان إلى كتلة من الصراع والصدام، وأزهق النفوس البشرية في البحث عن عنتها ومعاناتها، ثم استحقاق الاستئصال بعد حال من الإمهال الذي قد يتذكر فيه من تذكر، وتقديم النذر بين يدي الرسل، والآيات تلو الآيات، والتخويف ، والترغيب والترهيب، وتلاوة سنن الأمم السابقة التي استحقت المحق وحق عليها تداول السنن وتبدل الأدوار والاستبدال بعد الاستخلاف؛ وقد ذكرنا أن السنن لا تظلم ولا تحابي "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) "[القصص].

إن النفس البشرية والعقل البشري لا تقوم في الحياة ولا تنصلح إلا بمنهج، وقد نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا كل يوم ما يحيق بالجنس البشري جراء هذا التغول الإنساني الذي فرضه على الكون، وتعاظم حتى جعل منهج السماء وراءه ظهريا، وحين تخلت أوربا عن عقيدتها في القرن السادس الميلادي، ولو أن جلها كانت على غير هدى، لكن كان فيها بقية من منهج السماء، وكان لتحكيم الإله فيها نصيب، وكانت النفوس البشرية على عقيدة أن ثمة مرجع وحساب وثواب وعقاب في الآخرة، وأن الحياة لا تستقيم إلا بهذا المنهج السماوي العلوي؛ ثم حين غلا أرباب الكنائس وسدنتها، واحتكروا أمر الله ودعوته، وتسلطوا على مغفرته ورحمته وثوابه وعقابه، وشق على الناس ضيق الدنيا الذي مارسه الكهان وحرمان الآخرة، وحرموا بجرائرهم وبغير جرائر من المغفرة والفردوس بعد أن أوحى إليهم الرهبان والكهان بذلك، وسدت في

وجوههم أبواب الله وكانوا على هشاشة من الإيمان، وضحالة وضلالة من العقيدة لم يجدوا أمامهم بدا من أن يكفروا بأوصياء المنهج الذين حرموهم، ثم ما لبثوا أن كفروا بذات المنهج وربه.

هذا الاحتكار الدنيوي والأخروي الذي لم يمارسه صاحب الشريعة الحق، وإله العالمين وربهم وخالقهم ومقدرهم، مارسه البشر على البشر حتى أفسدوا عليهم دينهم ثم دنياهم ، حين كفروا بالأديان، ومن لم يكفر منهم فقد جعل الدين شأنا بين العبد وربه لا يعدو أن يكون أمرا تعبديا خالصا لا ينسحب شيء منه إلى الحياة وممارساتها، ولا إلى الصراع بين البشر وبعضهم، ولا إلى العلاقة بين الإنسان والكون والحيوان والطير والوحش والفلك..

لقد أفسد الكهان على الناس دينهم ودنياهم حتى نبذوا الكتاب خلف ظهورهم وانطلقوا يحكمون عقولهم القاصرة بديلا عن المنهج، فكان من نتيجة ذلك ما نراه من الصراع الذي أزهق أرواح مئات الملايين في الحروب العالمية، واستعبد الإنسان فيه أخاه الإنسان فجعلت الناس طبقات وأجناسا كما فعلت فارس والروم، مع أن فطرة الخلق قد جعلتهم "شعوبا وقبائل لتعارفوا"؛ ثم هذا الفساد والإفساد الأخلاقي الذي استشرى في الكون، والتحلل الاجتماعي الذي تأتى من التحلل الأسري والنفسي، وهذه القيمة الإنسانية، التي انحطت وتهاوت، وسقطت في حضيض من النتن والعفن الفكري والعقلي حتى جعلت من كرَّمه الله، وصنعه على عينه "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)"[الإسراء]، جعلته في بعض أحواله أحط مخلوقات الأرض وأقلها قدرا، وأخسها نفسا، وأغيضها روحا، وأبخسها قيمة حين ساوى بين نفسه وبين الحيوان البهيم أو أقل، فانسلخ من الآيات، وتملص من العبودية، وتفلت من ترانيم الروح العلوية التي أتت لتقيم له نعيم الحياة وشرفها، وبقاء الذكر بعد الموت والبعث والنشور.

جاء الإسلام لا لينقض ما بناه الإنسان من الحضارة المادية، وما شيده من مدنية خاوية خالية من الروح، صافرة من الوحي الإلهي؛ إنما جاء ليحدو هذا البناءَ الماديَّ العقلي هذا الإلهامُ الروحي، فينضبط إيقاع الحياة وينسجم نغمها، وتأتلف لغة الروح مع متطلبات الجسد، وتتناغم الفطرة البشرية من متطلبات النفس والعقل والجسد فيصلح ما فسد من مفردات الكون وما أهلكته أيدي الإنسان غير المنضبط بالوحي..

ساوى الإسلام بين البشر جميعهم لم يجعل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، ثم أفضى أمر الصراع فيه لأولوية الدين وسيادة الشريعة لا لحظوة نفسية، ولا لحب سيادة واستحواذ على مقدرات الكون، ولا استعلاء في الأرض وجعل أهلها شيعا.. إنما كان ذلك لإعلاء كلمة الله، وتخليص العباد من عبادة أمثالهم إلى عبادة ربهم، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان وظلمها إلى عدل الإسلام وسواسيته.

جاء المنهج التشريعي العقدي الروحي ليضبط حال الإنسان مع أخيه الإنسان، ثم مع نفسه وعقله وجسده قبل ذلك ليحفظ من الضرورات ما أمر بحفظه وما منت عليه به منة الخلق، فليس يملك حياته ولا نفسه إنما ملكها للذي خلقها وأوجده من العدم، كما ليضبط كيان الأسرة التي أنيط بها تشكيل المجتمع السوي النقي، وليحقق روح المودة والسكن والرحمة في هذا الكيان البسيط المخرِّج للأجيال والمربي والمؤدب والكافل والحافظ؛ حين أزهقت الحضارة المادية

الأسرة وتخلصت من الكيان الاجتماعي، وأرست لفلسفاتها النفعية (المادية والبورجوازية)، التي أفرغت كل معنى من معانى الإنسانية من هذه الأسر، وأضحت المجتمع غابة متناحرة متنافرة يحكمها النفع ويلهب صراعها الكنز والاستحواذ والجشع.

"ولقد ازدادت التفرقة بين الكم والنوع اتساعا عندما أنشأ ديكارت مذهب "ثنائية الجسم والروح"، وعندئذ أصبحت ظواهر العقل غير مفهوبة أو قابلة للإيضاح .. إذ عزلت المادة نهائيا عن الروح وعندئذ اتخذت التركيبات العضوية والآليات الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيرا من (التفكير) والسرور والحزن والجمال، ولقد دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى (فوز العلم وانحلال الإنسان.)".(١)

(١ (كاريل، ١٩٨٠) [الإنسان ذلك المجهول].

فلسفة التربية الروحية

قامت دعوة الإسلام زمنا طويلا بمكة دعوة تربوية تنغلق على تقويم هذه النفس الإنسانية تقويما صحيحا عقديا وتشريعيا وأخلاقيا وتربويا لما ينتظر هذه النفس من عظم المهمات والملمات والخِطَب الجسام؛ إنها ستحمل عبء القيام بهذه الدعوة أداء وتبليغا إلى العالمين كافة؛ ولذا .. فقد كان لزاما عليها أن تقدم من عنصر الأداء ذلك النموذج الرباني وإن

كان في صورة بشرية، نموذجا يدب بخطاه على الأرض غير أنه يحمل طهارة منهج السماء بين جنبيه حتى ليضاهي نموذج الملائكة في عالمها، وحتى أنه ليحتكم في حركه وسكنه إلى منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لقد كانت هذه الفترة من التربية مصنوعة على عين، ومعدة إعدادا ممزوجا بمرارة الصبر، وشظف العيش، وشدة المؤنة، وجور الأرحام والعشيرة، والخروج من الأهل والمال والولد، والحيلولة بينهم وبين ما يعبدون ودون أن يظهروا شعيرتهم فضلا أن يظهروا بدعوتهم ـ مبلغين كما أمروا بعد ذلك ـ أو حتى أن يردوا شيئا مما اعتدي عليهم به ..

هذه النفوس لم تكن بدون الإسلام لتحمل أو تصبر على شيء من هذا البغي أو الظلم أو الجور؛ إنها طبعت على البدء بالعدوان أحيانا إن استشعرت من غيرها ـ حتى ولو كان من أرباب الملك من نفسها أو غيرها ـ استشعرت شيئا من دونية النظر أو محاولة التحقير، فإنها إن كانت لتشن حربا طاحنة توشك أن تستأصل شأفتها، وتفني نسلها، ولا تتوقف خوف المذلة والعار حتى تتدخل عناية الله فتنقذهم من الفناء .. وفي نموذج الحربين (داحس والغبراء)، و(البسوس) وقد استمرت كل منهما ـ تقريبا ـ أربعين عاما خير مثال على ما نقول ؛ وقد كانت هذه الحروب أن تفني نسلهم حتى أذن الله بنهايتها على يد بعض من أوتوا الحكمة وفصل الخطاب .

وفي نموذج عمرو بن كلثوم مع الملك (عمرو بن هند) في قصيدته : ألا هبي بصحنك فاصبحينا، مثال آخر على عدم الصبر على الضيم وإن كان من ملك أو عظيم .. يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا وأمهلنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرها حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال عصينا المَلك فيها أن نهينا

وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا (١)

وفي قول طرفة كذلك:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تغور

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير

قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الحكم يقصد أو يجور(٢)

هذه النفوس العربية التي ربيت في كنف العزة والإباء، لم تكن لتصبر على عنت الظلم والجور كل هذا الصبر، وأن تخرج من نفسها ومن تاريخها وجبلتها التي صبغت عليها، لم تكن لتفعل ذلك إلا أن تكون قد أعيد صياغتها، واستبدلت تربيتها وفطرتها حتى تنخلع من هذا الطبع العربي الصعيب فيسلس قيادها، وتخضد شوكتها، ويسهل زمامها فتخرج من هذه الطباع إلى امتثال الأمر والنهي، والسمع والطاعة ، والتسليم لأمر الله .. وهكذا فقد أثبت الطبع العربي الأصيل

أنه لا يلين لغير أمر الله، ولا ينصاع إلا لمنهج سماوي قويم .. وأما نظم الأرض عربها وعجمها فقد تمرد عليها جميعها وأبى أن يخضع إلا لخالقه" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)"[هود]، وقد جاء القرآن صريحا في ذلك غير موارب فقال لهم "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)"[النساء].

وقد كانت هذه التربية لزاما والتزاما، ثم صارت صبغة وطبعا لا ينفك عن أحدهم مهما عظم قدر ما تعرض له من عظائم ومصاعب، وقد رأوا ذلك واقعا عمليا رأي العين، حيث لم يكن المنهج المّربي بمعزل عن مقدرة النفس الإنسانية، أو خارج كينونتها، أو مصادما لفطرتها التي جبلت عليها إنما هو كان ذاته الفطرة التي فطرت عليها، وما كان إلا شيئا من ترويض النفس على الإذعان للأمر الإلهي كيفما حل بساحتها دون أن تتردد او تكون لها من نفسها رجعة.

فهذه السيدة عائشة رضي الله عنها حين تصف خلق النبي تقول "كان خلقه القرآن"، أي أنه كان المنهج المنزل متمثلا في الصورة البشرية، وها هو حين يشرع في قتال المشركين في بدر يأمر أصحابه (حذيفة وأباه) رضي الله عنهم ، الذي عاهدوهم على عدم القتال مع محمد قائلا، وهو في أشد الحاجة إلى رجل واحد يكون معه، أو يٌخذّل عنه .. فيقول لهم "انصرفا.. نفي بعهدهم ، ونستعين الله عليهم".(صحيح مسلم).

ثم تنتقل هذه الأخلاق إلى ساحات القتال وأهوال المعارك ومقارعة السيوف، ومطاعنة الأسنة، فيقول أبو بكر موصيا أصحابه وقد خرج يودعهم:"حَدَّثَنَا أَبُو مُصْعَبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ، فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الأَرْبَاعِ، فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَدعهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُؤُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلاَ صَبِيًّا، وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا، وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلاَ بَعِيرًا، إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ، وَلاَ تُغَرِّقَنَّ نَخْلاً وَلاَ تَحْرِقَنَّه، وَلاَ تَغْلُلْ ، وَلاَ تَجْبُنْ.[موطأ مالك].

انظر، فهل عرفت البشرية مثل هذا الخلق السميّ التقيّ، الذي لا يشعل الحرب للحرب، ولا ليهلك الحرث والنسل ولكن ليحفظ الحرث والنسل وينشر دين الله في ملكه، لكن بحفظ خلقه وملكه، وإقامة الخلافة في الأرض على الوجه الذي أراد لا على وجه التسلط والاستعباد. (يتبع)

يقول الندوي رحمه الله: "حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج ح نفوسهم من نفوسهم ، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد، لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر، ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا..

وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم، قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين.. وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله، فاستخلفهم الرسول في علمه ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته".(٣)

هكذا يصف الندوي ـ رحمه الله ـ هذا الجيل المطهر المستخلص، والذي كان له شرف شهود تنزل الوحي، ثم التنزل له عملا على أرض الواقع من السنة القولية والفعلية والإقرارية من النبي صلى الله عليه وسلم، فشهدوا وأيقنوا.. فتمثل ذلك منهجا روحيا وعمليا في سلوكهم حتى كانوا على الوصف الذي وصف به الرجل، ولا أظنه وفى؛ إنما حام حول الحمى وحاول أن يسدد فيقارب..

ثم يذكر الندوي مثلا عمليا لحادثة فريدة من نوعها لا تتأتى إلا من مثل هذه النفوس الطاهرة، وقد علموا قبل ذلك عظم الأمانة وحرمة الغلول والتحذير منه حتى للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله" وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)"[الأنفال]..

"وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ اى يأت بالذي غل بعينه يحمله على عنقه فيفتضح به على رؤوس الاشهاد وهو كقوله عليه السلام (من غصب قدر شبر من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع ارضين) قال عليه السلام (من بعثناه على عمل فغل شيأ جاء يوم القيامة يحمله على عنقه) وقال صلى الله عليه وسلم (هدايا الولاة غلول) اى قبول الولاة الهدايا غلول لانه فى معنى الرشوة. وروى انه صلى الله عليه وسلم (قال ألا لا اعرفن أحدكم يأتى ببعير له رغاء وببقر له خوار وشاة لها ثغاء فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ فقد بلغتك) وقيل لابى هريرة رضى الله عنه كيف يأتى بما غل وهو كثير كبير بان غل أموالا جمة فقال أرأيت من كان ضرسه مثل أحد وفخذه مثل ودقان وساقه مثل جبل ومجلسه ما بين المدينة وريدان يحمل مثل هذا ويجوز ان يراد بما احتمل من وباله وإثمه ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ اى تعطى وافيا جزاء ما كسبت خيرا او شرا كثيرا أو يسيرا وكان اللائق بما قبله ان يقال ثم يوفى ما كسب لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه فانه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك اولى وَهُمْ اى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس لا يُظْلَمُونَ بزيادة عقاب او بنقص."(٤)

"ويغنم الجند في المدائن تاج كسرى وبساطه، وهو يساوي مئات الألوف من الدنانير، فلا تعبث به يد ، ولا تشح عليه نفس، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب .. ويقول: إن الذين أدوا هذا (لأمناء)!!!".(٥)

وقد يزعم زاعم أن ذلك عهد قد ولى وولى رجاله، ولم يبق من مثل هذه الأخلاق شيئا وقد اقتصرت على عهد الخلافة الراشدة ثم ولت إلى غير رجعة؛ وإننا لنقول أن هذا محض باطل يكذبه التاريخ والسير، مهما ماد زمنه وطال أمده إلا أن الوحي والخلق لم يزالا باقيين حتى عهود قريبة، ثم لم تختف بقدر ما حادت عنها الأضواء إثر سقوط الخلافة وبقيت ثقافة المتغلب وأخلاقياته التي دفع العالم من دمائه وماله وأعراضه ثمنا فادحا في الحروب الصليبية وما بعدها فيما يسمى الحروب العالمية.

نقول:بقيت هذه الأخلاق رغم مرور ألف عام تقريبا وفي عصر السلطان سليم الأول، وكما جاء في كتابات (كريستوفر هيرولد) المؤرخ الفرنسي وكما ذكره د. محمد جلال كشك نقلا عنه فيقول: "نقف قليلا مع كريستوفر هيرولد وهو يقارن بين الأسلوب الفرنسي (الفعال) في التصفية لوجود الفرسان الاسبتارية (مالطة) وبين أسلوب الأتراك.. لنتأمل الفارق بين السلوكين فهو يلقي الضوء على إحدى الخصائص التي تميز حضارتنا عن الحضارة الغربية، وأيضا أحد العوامل التي رسمت نهاية حضارتنا في شكلها العثماني وحتمت سيطرة الحضارة الغربية.

ففي عام ١٥٢٢-١٥٢٣ كانت السيادة العالمية معقودة لجيش الأتراك بلا منازع، واستولى الجيش التركي على جزيرة (رودس) وأجبر فرسان الاسبتارية على التسليم ، ولكن السلطان المنتصر سمح لهم بالجلاء عن الجزيرة حاملين معهم اسلحتهم وخلفهم رتل طويل من العربات المحملة بكنوزهم وسجلاتهم تحت أنظار القوات التركية .. وخرجوا من قلعتهم في احتفال عسكري وسط إجلاء الفاتحين الأتراك الصامت".

بينما صادر نابليون من كنوز الفرسان ما بلغت قيمته زهاء سبعة ملايين فرنك، فضلا عن (٣٥٠٠٠) بندقية وبارجتين، وفرقاطة وأربع سفن خفيفة .. وانتدب من يفتش على دار سك النقود وعلى كنوز كنيسة القديس يوحنا وعلى سائر الأماكن التي قد يعثير فيها على أشياء ذات قيمة.. ومن الاشياء ذات القيمة التي عثر عليها ذهب قيمته خمسة ملايين فرنك ، وآنية فضة تقدر قيمتها من مليون فرنك وكنوز كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر ..

ويسخر (هيرولد) فيقول: وتعطف بونابرت فأذن للفرسان لأن يأخذوا معهم شظية من الصليب الحقيقي لا تقدر بمال، ويدا من أيدي يوحنا المعمدان الكثيرة وهي ورؤوسه الكثير المبعثرة بعد نزعها من صندوقها المرصع بالجواهر ونقلت جميع قضبان الذهب والفضة والتحف الثمينة بعد جردها إلى مأمور الصرف الفرنسي".

وفي مقابل سماحة الأتراك أبلغ نابليون فرسان مالطة أن على كل من هو دون الستين مغادرة الجزيرة خلال ثلاثة أيام دون أن يحمل معه أكثر من ٢٤٠ فرنك لنفقات السفر.

ثم يقول هيرولد: إن فرسان القديس يوحنا بعدما انسحبوا هذا الانسحاب الكريم الذي تفضل به السلطان العثماني سليم المنتصر، انتقلوا من جزيرة رودس إلى مالطة ليصبحوا بعد ذلك شجى في حلق التجارة والأساطيل التركية الإسلامية ومصدر خطر وقلق وقرصنة في البحر المتوسط..".(٦)

ثم نأتي على أخلاق القرن السابع الهجري، والسلطان صلاح الدين لنقارن بين هذه اللحظة التاريخية التي قدم فيها يستلم مفاتيح بيت المقدس من الصليبين وما دونه تاريخهم من وصف لأخلاقيات هذا القائد المسلم المنتصر وجنوده، وهذا الشرف التاريخي الذي لم يعرف قط مثله في تاريخ الحروف ـ خاصة للمنتصرين ـ لنقارن بينه وبين دناءة ودناسة السلوك الصليبي الذي قدموا به لاحتلال بيت المقدس تحت راية الصليب المزعومة وما أريق تحت هذه الراية من دماء بريئة أهرقت ظلما وعدوا، وطردوا وشردوا من بيوتهم وأموالهم ، وما كان لهم من ذنب حينها ولا جريرة إلا أن يقولوا "ربنا الله".

يقول المؤلف: وسمح صلاح الدين للمسيحيين أن يرحلوا عن المدينة خلال أربعين يوما مقابل الفدية على أن يدفع ارجل عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد يناريين، ومن لم يستطع فهو أسير.. ومن عجائب فتح القدس أن الناس رات هرقل بطرق بيت المقدس يددفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادرة المدينة حاملا ما استطاع من الذهب والفضة والتحف على عربات تسير خلفه دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذي لم يجدوا ثمن فدائهم .. وقد رفض صلاح الدين التعرض لهذا البطرق وقال "لا أغدر به" كما نادى بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين، وقد شهد المؤرخون المسيحيون بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته، والذي أمر بإطلاق سراح اليتامى والأرامل والشيوخ والعجزة من الصليبيين دون فداء بل

منحهم مساعدات مالية ودواب يركبون عليها من ماله الخاص.. مما دفع المؤرخ "ستانلي لين" للقول "لقد أعطى السلطان المسلم الراهب المسيحي درسا في معنى الإحسان"..

وهكذا يسجل التاريخ سماحة وأخلاق صلاح الدين عندما استعاد القدس مقابل بشاعة وعنصرية الصليبيين عندما احتلوها عام ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) حيث ذبحوا كل من صادفوه من المسلمين .. وقد كتب المؤرخ المسيحي (بن العيري) : " ولبث الفرنج في البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين إلى أن قتلوا ما يزيد على سبعين ألفا " وكتب آخر مفاخرا بأن "جنودنا وخيولنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين".

وبعد أن دفع الصليبيون الفدية أمر صلاح الدين بتقسيمهم إلى ثلاث مجموعات وأرسلهم تحت حراسة مشددة إلى طرابلس وصور، والغريب أن هؤلاء المشردين عندما دخلوا في حدود إمارة طرابلس اعتدى عليهم صليبيوا الإمارة فاتجهوا إلى مدينة طرابس فأغلق دونهم الأبواب واعتدوا عليهم .. وهكذا كان صلاح الدين أكثر رحمة وتسامحا من الصليبيين في تعاملهم مع الصليبيين الذين اضطروا للذهاب إلى أنطاكية."(٧)

١. شرح المعلقات للزوزني (معلقة عمرو بن كلثوم)
٢. شرح المعلقات للزوزني (معلقة طرفة بن العبد)
٣. ماذا خسر العالم ـ الندوي..
٤. تفسير روح البيان[الناشر: دار الفكر. بيروت].
٥. ماذا خسر العالم.(الندوي)
٦. ودخلت الخيل الأزهر. محمد جلال كشك.
٧. الناصر صلاح الدين ـ الاتحاد قبل الجهاد (محمد الشافعي).

التاريخ بين الدول والرجال؟!

تمر ركائب التاريخ مستعرضة رموزها أمام ناظرينا، فنلمح من بينها الضعيف العاجز، والقوي الفاجر، والقوي الأمين، والأمين الضعيف، وكثيرا من نماذج من مروا على بلاط الحكم فلا يكاد يبين فيمن سطروا الصفحات بقوة إلا رجال

معدودون، رغم هذا العدد الزاخم من سنوات التاريخ .. فكثير منهم مروا حين دفعت بهم المقادير إلى سدة الحكم فقضوا في ساعاتها أو أيامها أوسنيها ما قضوا فلم يخلفوا ما نذكرهم به إلا أن يقال: هؤلاء مروا من هنا.

لكن تبقى القلة الذين أوقفوا عجلة التاريخ عنوة واسترهبوا ناظريه، واستمالوهم إعجابا أو سخطا أو اقتداء أو ازدراء.. لكن لا يحط ذلك من قدر ما خلفت آثارهم، وما أثمرت غراسهم، وما آتت أكلهم إذ أثروا حقبتهم بما جعل التاريخ ومدونوه وكتابه يقف لهم بالإجلال، ويسجل لهم وعليهم بالمرصاد، ويقول: هؤلاء مروا وتلك آثارهم.

وقد توافي المقادير الحاكم القوي بالدولة القوية فلا يلبث أن يضطلع كل منهما بمقومات الآخر وملهماته ونفثاته الروحية والمادية، حتى يجلي كل منهما أجمل وجهٍ لصاحبه؛ وليس نموذجا أصرخ في ذلك ولا أصرح من هذه الدولة التي ساسها عمر رضي الله عنه إذ اجتمعت فيهما من عناصر الاستقرار ما جعلها مضربا للأمثال التاريخية.

لقد وافت هذه النفس الملهمة التي أشربت القيادة في مبتدأ عهدها في قريش إذ كانت (بنو عدي) هم حملة لواء السفارة في قريش، قائده عمر رضي الله عنه لما ألهم من قوة النفس، ورجاحة العقل، وحدة الذكء وفصاحة اللسان.. فضلا عما أوتيه من ملهمات الفطرة من (الشخصية القيادية المهابة).

فلما توافقت قدرا هذه النفس مع هذه الدولة المؤمنة القوية التي جمعت خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أرست دعائمها على أصول من العلم والإيمان والعقيدة المتينة، أذعنت الامبراطوريات العظمى من حولها؛ وما كان لها يوما أن تطأ أرضها إلا مستجدية أو مذعنة لملوكها؛ فلما جاءها الإسلام وأشربت هذه النفوس الإيمان به والعمل بمقتضاه، بسطت نفوذها على يد هذا السيد القوي على مشرق الأرض ومغربها في زمن لا يذكر في عمر الدول ولا التاريخ ؛ إنما كان لهم فتحا مبينا في أقل من خمسين عاما.

لكن من كان عمر قبل الإسلام وما كان ، وما كان غيره من الصحابة قبل أن يمن الله عليهم بهذه العقيدة، حقا لم يكونوا في التاريخ شيئا مذكورا، بل لقد من الله على نبيهم بذلك من قبلهم حين قال له "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)"[الشورى].

وقال " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)"[الضحى].

إن هذه الشخصيات مهما عظم ما أوتيت من معطيات الفطرة ، وما علمت، وما أشربت من حب الخير والحكمة والإصلاح والعدل، لم يكن لها أثر في التاريخ يذكر إلا أن يكون سطرا باهتا في كتاب البشرية كالذي خلفه الملهمون من قبلهم ؛ كما جاء ذكر (هرم بن سنان، وعبدالله بن جدعان، وقس بن ساعدة)، وكما جاء ذكر أرسطو وأفلاطون وأبيقور وغيرهم .

أما حين شفها هذا المدد السماوي، والعطاء الإلهي ، فقد تفجر من بواطن هذه النفوس ومعائنها قوة أذهلت نفوس الكون من حولها، ولم تملك حيالها إلا التسليم والانصياع إذ وجدت ألا قبل لها بمواجعة هذه النفوس بجحافلها الهادرة، وكأن قد مسها نفث من السحر أو جاءت تظاهرها ملائكة السماء أو شياطين من الأرض.

إن الدول والحكام مهما كان مددها الأرضي من عوامل الحضارة (عدد وعدة وعتاد)، فإنها لا تقف أبدا لأصحاب عقيدة ولو كانوا قلة في العدد وفي عتاد الحضارة والحياة؛ وهذا ما تجلى مع القلة المؤمنة في بدر وأحد والأحزاب، وسنوات الدولة الإسلامية التأسيسية؛ إذا جاءوهم من فوقهم ومن تحتهم يبغون اجتثاثهم من الجذور، واستئصال شافتهم.

حتى في لحظات الضعف والوهن حين تهزم الكثرة العقدية ، ويفرق جمعها، ويشتتت شملها، فإن لملمة فرطها أسرع ما يكون حين تعرف طريق العودة إلى رشدها، والمآل إلى عقيدتها، والصحوة في دينها.. ذلك ما رأيناه جليا وما صوره القرآن في يوم حنين " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)"[التوبة].

وحين ضعفت لحمة الجسد الإسلامي وتقطعت أوصاله في أواخر الخلافة العباسية واجتياح التتر لبلادهم؛ إلا أن هبة العقيدة سرعان ما أقبلت من مصر والشام حتى أعادت لهذا الجسد قوته ولحمته ، ولم تكن سوى العقيدة.

وعلى مستوى البلاد، فهذه مصر قد مر على خزائنها المئات أو الألوف، فأيهم كان لها يوسف حين جعلها (خزائن الأرض)، وأيهم كان لها عمْر بن العاص، حين أرسل القوافل إلى عمر بالمدنية كان أولها في المدينة وآخرها عنده بمصر، بل أيهم كان صلاح الدين أو بيبرس أو قطر أوقلاوون؟!!!

وفي التاريخ نرى نابليون هذا الدعي الذي أطلق وساوس أوربا وهواجسها، وأقض مضاجعها حتى جعل من فرنسا نفوذا امبراطوريا في غرب أوربا وشرقها، وقبله الاسكندر، وبعده تشرشل وروميل ومونتجمري؛ وهذا ماوتسي تونج حين باتت الصين في غياهب التاريخ ردحا من الدهر حتى جاء فأدخلها حقب الامبراطوريات وابتعثها قوة صناعية عسكرية اقتصادية من جديد..

ربما يصنع الرجل القوي الدولة القوية حين تواتيه المقادير بما يبرز طبيعته وروحه القوية، وربما يحييها من ضعف، ويمدها من مداده، حتى كأنه ينفث فيها روح الحياة من العدم؛ وربما تقف المقادير في صورة الظرف التاريخي لقوته بالمرصاد فتحول بينه وبين ما يستطيع وما يملك من مقوماته النفسية والروحية ..

كان مروان بن محمد أو (مروان الحمار) كما يلقبونه من أقوى خلفاء الدولة الأموية، وقد لقب بذلك لجلده وصبره وقوته؛ لكنه حين وافته المقادير كانت على غير وفاق مع ما أعطي، وكان الدعوة العباسية قد أقبلت جحافلها من خراسان إلى الشام حتى هُزم الرجل وولى وجهه شطر مصر فتتبعوه حتى قتل.

وكان على مثاله في القوة والشجاعة والحكمة، وقد كان ديّنا : السلطان عبدالحميد الثاني ـ رحمه الله ـ يعد آخر سلاطين آل عثمان الذي رفض كل ما عرض اليهود للتنازل عن فلسطين، ومنع هجرة اليهود إليها، وحال بينهم وبين إنشاء الجامعة العبرية (اليهودية)، ورفض أن تملأ خزائن الخلافة ذهبا في حين كانت الخلافة كما يسمونها (الرجل المريض) مفلسة مستدينة، بل وأعلن لأن تقطع يمينه خير من أن تخط صك التنازل عن فلسطين، وتقتطعها من جسد الخلافة.

ثم تكلف في أحلك ظروف الخلافة وضعفها مد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة بتكلفة بلغت ثلاثة ملايين ونصف ليرة ذهبية اكتتب فيها المسلمون من مشرق الأرض ومغربها، وكان قد أراد أن يربط هذا الخط بعاصمة الخلاقة (إسلامبول) أو الأستانة في المرحلة القادمة، حتى تقوى الرابطة بين مركز الخلافة ومدنها، وليحول بين الإنجليز وأهدافهم الاستعمارية في المنطقة العربية وخاصة الشام..

إلا أن الضربة قد وافته من الداخل؛ من الثورة العربية الكبرى (المزعومة) والتي دمرت الخط الحديدي وخرجت على الخلافة حتى أسقطتها ، ثم دفعت أثمان ذلك غالية من مالها ومن دمها، وملكها قبل ذلك.

الرجل القوي هو هذا الذي يمتلك أولا تلك المواهب القدرية النفسية، فيفيض منها على من حوله، ويوظف مقومات الدولة القوية التي يحكمها على حسب رؤاه حين يثمر أحدها في كنف الآخر، هذا الذي لا يتماهى مع النظم السياسية والعسكرية من حوله؛ إنما هو على بينة من أمر دينه وصحوة عقيدته.

وكذا الدول لا تكتمل لها حضارة ولا تقوم بأمرها؛ إلا أن تضطلع بفكرة عقدية تؤمن بها وتوظف لها مواردها وعطاءاتها وميراثها الفكري والأدبي، حتى تستنهض من كبواتها ، وتفيق من غفلاتها.. ثم تأتي العطاءات الطبيعية مؤازرة ومؤيدة ومدعمة فتجتمعا قوة النفس والكون كي تقيم شأن الحضارة .

نماذج من صور الحاكم المسلم

لم يكن لهذا النموذج الطارئ مع مستحدثات الحياة العصرية تصور ولا وجود في التصور الإسلامي ـ نموذج الفصل بين الإدارة والعلم ـ ولم يكن يتصور أن يأتي زمان يتسمى أحد بمسمى لم يكن له فيه من علمه نصيب، فالصورة الذهنية للحاكم المسلم، هي التي ترسخت لهذا النمط الذي يجمع العلم والعمل والحكمة والفصل في الخطاب، والإمامة والسياسة ليكون أهلا لإمامة الناس..

وقد رأينا هذا مثلا متحققا في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعده في الخلافة الراشدة .. ثم صار كذلك زمنا وإن اختلف أهل الحل والعقل على بعض خلفاء الأمويين ك(الوليد بن يزيد)، وك(يزيد بن معاوية)، وغيرهم.. إلا أن المتحقق المألوف هو هذا النمط المذكور الذي يجمع العلم بأمور الدين والسياسة والحكمة وإدارة الدولة.

لما حكى القرآن قصة داوود عليه السلام، ذلك النموذج المقتدى للحاكم وإن كان نبيا مرسلا، لكنه أوعز إليه بشيء من العلم والحكمة ليقوم بالأمر كما ينبغي له ولمن بعده أن يقوم، ولما رأى القرآن هذه الحيدة التي اعترته جراء طارئ بشري، أو غفلة من النسيان أو الاندفاع في الحكم، كالتي كتبت على بني آدم، راح القرآن يذكره بالتأني والتثبت ومراعاة الحق في الفصل بين الخصوم على الوجه الذي يحقق العدل والقسط الذي أنزل مع الإنسان في الأرض"لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.. . الآية"[الحديد].

وفي خطاب داود وسليمان يقول:" وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)"[النمل].

وهنا يقدم عن النبيين (داود وسليمان) العلم قبل النبوة ، وربما كانت العلم جزءا من النبوة، لكن لم يكن الملك تابعا أو مترتبا على اصطفاء الرسالة، فكم من نبي قبلهما وبعدهما لم يؤت مثل ما أوتوا من الحكم والملك، إنما كان أمرا دنيويا استدعى التأهل له والتسلح بالعلم والخبرة ومقومات السياسة والريادة حتى يمكن لهم في الحكم.. وفي آية سورة ص يذكر الله منته على داود عليه السلام فيقول "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب"، أي الحكمة في التدبير وإنزال الأمور منازلها التي تليق بها، والفصل بين الخصوم استنادا لهذه الحكمة وعدم اتباع الهوى ، لأن الهوى يزري بصاحبه ولو كان من عامة الخلق ، فكيف إذا كان نبيا يوحى إليه؟.

ولا يرتبط هذا التعليم بصلاح الحاكم ولا فساده، ولا قوته ولا ضعفه؛ إنما ذلك أسلوب تنشئة وتربية وتقويم غير مبال فيه بما يؤول إليه حال الأمير ولا مآله، يستوي فيه اعتلاؤه للعرش أو إقلاؤه.. ذكر أن ابن الزبير وكان قد ولى الخلافة على (الحجاز والشام ومصر) بعد يزيد بن معاوية، ذكر أنه كان لا يبارى في ثلاث (الشجاعة والفصاحة والعبادة) ، وقيل أنه ورثها عن جده أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك عن الزبير حواري رسول الله .. وأن غريمه عبدالملك بن مروان لم يلحن قط، وكان من العلماء المحدّثين فلما وافاه خبر توليه الخلافة نظر إلى المصحف في يده وقال "هذا آخر عهدي بك.. ذكر السيوطي ".. قال ابن أبي عائشة "أفضى الأمر إلى عبدالملك والمصحف في حجره فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك"(١)

لما تحدث القرآن في خطاب يوسف عليه السلام مع الملك يقول: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)"[يوسف].

وهنا ينوه القرآن ويحلق على مادة التمكين التي أعد بها يوسف عليه السلام، لا اصطفاء كاصطفاء النبوة، إنما كان لمهمة إدارية عظيمة تختص بأمر الدنيا، ولم يكن له أن يقول للملك "اجعلني على خزائن الأرض إنني نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي.."، لكنما يحتج بعلمه الذي علمه الله في الحفاظ على ثروة البلاد، بالإضافة إلى تأويل الأحاديث والتي أمكنته من تأويل رؤيا الملك، والتحري لحال القيام بالأزمنة المرتقبة التي توشك أن تهلك الحرث والنسل، إلا أن يقيض لها القائمون على أمر البلاد من يقوم بحقها من الإدارة والعلم والحفظ والرعاية حتى يخرج البلاد من أزمتها متعافية متماسكة.

وفي حديث ابنة شعيب عن موسى عليه السلام قالت "قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)"[القصص]، لكن الشاهد هنا ليس في قصة موسى مع شعيب وابنته، إنما الاستدلال هنا لموسى الذي يعد مصنوعا على عين من العلم والقوة والأمانة للقيام بالرسالة العظمى، وقيادة بني إسرائيل في الأهوال التي تنتظرهم من فرعون وقومه فكان لابد لموسى هذا الإعداد الممكن، والتربية القوية الأمينة.

إن موسى عليه السلام لم يكن نبيا من أولي العزم فقط؛ إنما كان صاحب رسالة عظيمة تستدعي تخليص أمة من الأمم هي بني إسرائيل من سطوة فرعون وجبروته، واستعباده لهم ردحا من الدهر؛ وإن خوض مثل هذه التجربة الرسالية الحياتية لمن أعمق وأصعب التجارب في التاريخ، ولذا نجدها من أكثر القصص بل أكثرها جميعا ذكرا في القرآن.

لو كانت المهمة قاصرة على البلاغ لبني إسرائيل، لكفت هذا الرسول؛ إذ أن بني إسرائيل من أصعب الخلق مراسا وأعسرهم قيادا، وأقلهم امتثالا لتعاليم السماء خاصة، ولا ينضوون إلا تحت لواء من التسلط والجبروت، وقد جاء موسى عليه السلام ليسوسهم بعد أن يستنقذهم من ظلم فرعون وقومه؛ فلما منّ الله عليهم بالحرية كان أول ما شكروا الله به أن قالوا"اجعل لنا إلها كما لهم آلهة " ، ثم عبدوا العجل من بعد ذلك دون مراعاة لعهد ولا ملة ولا نبي ولا رسول.

فهل كان هذا الرسول إلا كما قال الله له"ولتصنع على عيني"، وقال "واصطنعتك لنفسي".. هذه الصنعة التي أعدته إعدادا متينا محكما معلما قويا أمينا ليضطلع بمهمة تحرير هذه الأمة والصبر عليها ليدخلها على ربها الأرض المقدسة التي كتبت لهم.. ولذا كان من رسائل إعداده ووسائلها أن كلف برعي الغنم عشر سنين في مدين ليقود هذه الأمة التي هي أشد تفلتا في دينها ومعتقدها، من الغنم في رعيها.

لذا كان من أهم صفات الإعداد الربانية التي سجلتها هذه الزوجة الملهة (القوي الأمين)، الأمانة في التبليغ الموحى إليه به، دون تغيير ولا تحريف ولا تبديل، وهذا هو ما اضطلعت هذه الأمة به بعد موسى عليه السلام"يحرفون الكلم عن مواضعه"، و "يحرفون الكلم من بعد مواضعه".. ثم القوة في التبليغ مع هذه القلوب المادية الجاحدة فضل ربها،

وجهد نبيها حتى ذكرهم القرآن " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)"[الأحزاب].

وفي سورة الكهف يتعرض القرآن لنموذج الحاكم الموكل من قبل الله في الأرض، المؤيد بنصره وتمكينه، فيقول"وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)... حتى قوله: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)" [الكهف].

ويتراءى هنا لكل صاحب عقل، أو كل ذي لب في إلماحات الآيات أكثر من فائدة :

الأولى : "إنا مكنا له" وهذا إيحاء قاطع بأن التمكين ليس إلا منة من الله، ولا يكون لأحد في ملك الله حكم إلا بأمر الله حتى ولو كان كافرا، أو ملحدا.. "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)"[آل عمران]، فالملك لا يكون إلا منة من الله صاحب الملك، ومالك الملك والملكوت.. وثمة فرق بين الملك والتمكين، فالملك للمؤمن والكافر، أما التمكين فلم يرد غالبا في القرآن إلا لأهل الإيمان، فجاء في خبر ذي القرنين "إنا مكنا له في الأرض"، وجاء في خبر بني إسرائيل حين آمنوا برسالات السماء: "ونمكن لهم في الأرض"، وجاء في سورة النور مع أهل الإيمان: "وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم"، وفي أهل الإيمان في الحج: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر"، وقال عن يوسف عليه السلام: "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء".

أما في خبر النمرود فقد قال الله عنه: "أن آتاه الله الملك " ولم يقل أن مكن له ؛ وقال فرعون متعاليا بما آتاه الله من الملك: "ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي"، وقال في خبر مؤمن آل فرعون: "يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض".

ثانيا: أن التمكين لا يعدو أن يكون في الأرض "مكنا له في الأرض"، وهكذا لا يكون الحكم القاطع والظاهر والقاهر إلا من قبل السماء؛ وبذا يعلم الإنسان أنه لن يخرج عن طوره، ولن يعدو قدر الله فيه مهما أسبل عليه وأسبغ عليه من ثياب الملك، وصولجانه، ورسومه، فالله كما قال "من ورائهم محيط"، "وهو القاهر فوق عباده".

ثالثا: أن التمكين من الله إذا أراده لأحد هيأ له أسبابه، بل طوع في يديه الأسباب حتى جعلها مؤتمرة بأمره، وأنه إن شاء ألان له الحديد كما قال عن داوود عليه السلام"وألنّا له الحديد"، فالتسخير والتطويع والتيسير لا يكون إلا من الله، وهو الأسباب التي تقود إلى الملك، وهي أيضا التي تكون في قيامه واستمراره، ثم قد تغدو نفسها أسباب هلاكه.

رابعا: أن ذي القرنين كما حكى عنه القرآن، قد أفرغ وسعه وبذل جهده، ليقدم من لدنه أسبابا أخرى تدفع له إلى التمكين والاحتفاظ بالملك، والتترس في الحفاظ عليه وإقامة الملك على الأمر الذي يرضي من مكن له ، وهو سيده الذي منّ عليه؛ فلم يدخر جهدا في إقامة العدل الذي أوكل بتطبيق ميزانه وإرساء قسطاسه، فكان كما أراد ربه حين

حكم بين الناس "قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)"[الكهف].

قال الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره"فالتمكين يعني إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور، لكن لماذا مكناه؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات. وقوله: {وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً} [الكهف: ٨٤] أي: أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد، فما من شيء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه.فماذا صنع هو؟ {فَأَتْبَعَ سَبَباً} . أتبع السبب، أي: لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التي جعلها الله له، فلقد مكَّن الحق لذي القرنين في الأرض، وأعطاه من كل شيء سبباً، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى، فلم يتقاعس، ولم يكسل، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب".(٢)

وفي قصة طالوت: يؤكد القرآن في بدايتها أن الملك (ابتعاث) أو اصطفاء أو اختيار، كما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله "لن يحكم أحد في ملك الله إلا بمراد الله " .. ولذا جاءت لفظة (ابعث لنا)، ولم يقل (اختر لنا)، فلما من الله عليهم بهذا الملك أوضح من أسباب اصطفائه: أولا الاختيار الإلهي (اصطفاء عليكم)، ثانيا: المقومات العقلية (وزاده بسطة في العلم)، وكذا الجسمية (والجسم) .. وهو تميز ربما لا تستلزمه أساليب الحروب الحديثة، كما رأينا الرئيس الأمريكي القعيد (تيودور روزفلت) وهو يقود العالم من على كرسي متحرك، في الحرب العالمية الثانية، وفي أكبر أزمة اقتصادية اجتاحت أمريكا.

ثم يؤكد القرآن على هذه الحقيقة التي قد تخبو في أذهان الكثيرين حين يرون تطاول الملوك والحكام وتجبرهم وتكبرهم، فينمى الشيطان إلى نفوسهم أن الكون بلا مدبر ولا رقيب؛ ولو كان ثمة إله قادر لما كان هذا الفساد متأصلا، مستشريا في الكون .. لكن القرآن يعود فيؤكد لهم هذه الحقيقة، وإن كان للإملاء للبشر في الحكم والملك حكمة، فإن هذا لا يخرج أبدا عن مراد الله الكوني، وإن اشتط عن مراده الشرعي فيقول" والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم".

إن الحاكم الممكن في الشريعة الإسلامية وكما بينه القرآن وأسهب له في الوصف، وفي النموذج المحتذى من الأنبياء والرسل ومن على مثالهم من الصورة المثلى التي بينها القرآن وجلاها، ليقيم بها الحجة على كل ممكن من قبل ربه، ومن أنيط بأيديهم اختيار هذا الممكن ليحكم في ملك الله بما أراد الله وشرع، لا عن هوى ولا مصلحة ولا محاباة ولا مؤاخاة لأحد، ولا انتماء لعصبية جاهلية ولا قبلية.

ولم يكن هذا النموذج القرآني بدعا من الملوك والحكام، بل تحقق رأي العين في أمة الإسلام.. في النبي وصحابته الذي أشبهوا حين مكنوا في الأرض، أشبهوا ملائكة السماء، وكان خلفاؤه الراشدون خير مثل عملى لتطبيق ما سنه الله من الحفظ والأمانة والعلم والقوة، وقد جاء من بعدهم من سار على مثالهم وإن لم يكونوا كثرة ، لكنهم أثبتوا للبشرية أن هذا التشريع ليس عن قدرة البشر ببعيد، وأن في قيامهم بحق هذه الكلفة حجة قد أُقاموها على من بعدهم ومن قبلهم ممن لم يكونوا مثلهم .. وما التوفيق إلا بالله.

١. تاريخ الخلفاء للسيوطي

٢. ٢-تفسير الشيخ الشعراوي

من فلسفة العبادة (الصلاة نموذجا)

ربما نرى في النموذج القرآني من تجليات العبادة ما لا يمكن أن نراه في كتاب طقوس أو عبادات مخترعة من ابتكار العقل البشري، أو كما نراه من موروثات ما يسمى بالأديان الأرضية، تلك التي ترهق أصحابها وتحملهم من الفعال والأحوال ما لا يطيقون، وما تأباه النفس السوية، والجسد البشري الطبيعي.

للعبادة في الإسلام صفة روحية وجسدية، ومآلات تربوية ، ونفسية ومجتمعية ، أي ما يكون منها بين العبد وربه، وما يكون بين العبد ونفسه، وما يكون بين العبد وغيره.

وهكذا لا تفرض العبادة اعتباطا ولا هباء ولا انتهازا للنفس والمال، ولا إجهادا وإزهاقا للنفس والبدن؛ إنما فوائد وحكم ومصالح في المعاش والمعاد.. وقد نرى ذلك جليا في عبادة الصلاة التي فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة (الإسراء والمعراج) والتي منّ الله على المؤمنين بأن خففها عليهم حتى نزلت من (خمسين في الأجر والعمل إلى خمسين في الأجر وخمس في العمل كما جاء في الحديث).. فما حال الإنسان مع الصلاة روحيا وعمليا؟!

ينتقل بنا القرآن بالوصف من حال (الإنسان) في سورة (المعارج)، إلى درجة (المؤمنون) في سورة (المؤمنون)، وبعد الارتقاء بالإنسان من الحالة البشرية الأرضية إلى درجات أرقى وأسمى مما وصف به بأكثر من وصفه الأول " إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)" حيث لم يأت ذكر الإنسان في القرآن إلا على حالة إما من الهلع والجزع، أوالجحود والكفران والتظاهر على ربه، وحب المال حبا جما، وشح النفس، وغل اليد، والإسراف، وإهلاك المال اللبد.. الخ.

ثم تأتي الصلاة فترقى به إلى معارج القبول والتزكية النفسية والجسدية والعقلية لتجعل منه هذا النمط الجديد "إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤)".

فهل سما منهج في الكون مثل هذا السمو، فارتفع بهذا المخلوق من أسفل سافلين إلى أحسن تقويم؟! ومن وصف الهلع والجزع إلى حفظ الأمانة والعهد والفرج والقيام بالشهادة، والصدقة والصلة للسائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين؟ وهو من أثر الصلاة التي تخلفه من الطهارة البدنية والسلوكية حتى تغلب ذات الإنسان الروحية (أشبه بالملائكة) ذاته الحيوانية المنكبة على شهوات الجسد ورغائب النفس.

لقد أحالت الصلاة، تلك الركعات البسيطة كما نشهدها ونؤديها، أحالت هذه النفس البشرية من حال أشبه ما يكون بالحيوان في البرية حين يكاد عقله أن يغيب، وهو يضرب بجسده شاردا في البرية متلفتا باحثا عن طعام أو فريسة، وعلى الوجه الآخر تلكم الفريسة التي تترقب حتفها في هذا القلق المستمر بين أنياب هذه الوحوش الضارية ـ هكذا

وصف القرآن الإنسان خال من الصلاة والتوحيد ـ فما إن تمسه هذه الحالة الروحية البدنية والنفسية حتى يحول أمره إلى هذا الوصف الملائكي من العطاء والإقبال على الخير وحفظ الفرج والعرض، والأمانة ، والصدقة والبر.. فما الذي طرأ على هذا المخلوق حتى رفعه من دركات الغاب والضراوة والهلع والجزع والشح، إلى هذه المقامات العلوية النورانية؟!! تلكم هي الصلاة !! ولا ريب!

ثم تأتي سورة المؤمنون لترتقي بهذه الروح إلى مقام أعلى، وتعرج به من تعبيد أحوال الجسد والسلوك إلى تزكية أحوال القلب والروح وهي ((الخشوع))، فتقدم بين يدي السورة الجزاء، والعهد الرباني بسبق (الفلاح) قبل ذكر العمل ، وهو منتهى الترغيب في الأجر وانشغال القارئ بهذا الفوز المقطوع به قبل العمل حتى تنشغل النفس بما يحققه من العمل فتزداد انكبابا عليه وإقداما وحرصا عليه..

"قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)"، وهو انتقال من الحالة السلوكية في الصلاة ب (دائمون ـ يحافظون) في سورة المعارج، إلى الحالة القلبية (خاشعون) ، ثم نلاحظ حرف الجر (في) الذي يفيد الاستغراق في حال الخشوع مع الخاشعين، كما قال الله تعالى لمريم " يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)" [مريم]؛ مع التأكيد على روح الجماعة في الصلاة كما في سائر العبادات: [اهدنا الصراط المستقيم ـ فاذكروني ـ فاذكروا الله ـ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ـ فإذا قضيتم مناسكم].

والخشوع هو: [الخضوع والذلة والسكون، أي سكون القلب]، وهو الأثر الروحي أو القلبي المتأتي لما كان من المداومة والمحافظة على الصلاة، فكان مرد هذا على القلب حتى صار في حالة من الخشوع، ثم يكون مرده أخرى من القلب إلى الجوارح حتى يصير لها عادة بعدما كان مجاهدة، كما يقول أحدهم "جاهدت نفسي على العبادة زمنا، ثم تنعمت بها ما بقي من عمري".. ونلاحظ الفارق البين بين هذه الأوصاف الواردة في سورة المعارج وهي حال من التربية الأولية لهذا الإنسان الذي لم يألف بعد أدبيات العبادة حتى يمارسها فيتغير نمطه السلوكي، ثم يرقى أو يعرج حتى يصير في ركاب (المؤمنين) ورحابهم، فيرد على قلبه من الخشية والذلة والسكينة ما يقطع له أن يكون من أهل الفلاح "قد أفلح المؤمنون".

وقد ورد عن ابْنُ الْمُسَيِّبِ أنه رَأَى رَجُلًا يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَانِحُهُ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم في حديث (المسيء صلاته) «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، وقد عد بعض الفقهاء الخشوع من فرائض الصلاة؛ ومنه ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث "ثم اركع حتى تطمئن راكعا.. ثم تطمئن ساجدا.. تطمئن رافعا"، وقد روي عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «لقد أُنزلت علينا عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة، ثم قرأ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) إلى عشر آيات» ، رواه الحاكم أبو عبد الله في «صحيحه» .

وقد ورد التعبير بالإسم (خاشعون) دون الفعل، حيث الفعل يدل على التجدد والاستمرار، أما الاسم فدلالته الثبوت والاستقرار وهو ما يعني أنه أصبح وصفا ملازما لهم دون أن يكون فعلا متجددا، يمكن أن يفارقهم أو يزايلهم ، كما

نلاحظ مناسبة افتتاح السورة لخواتيم ما قبلها من (سورة الحج) " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧)"، ثم يأتي التعقيب عليها سريعا بقوله "قد أفلح المؤمنون".. فالخطاب في خواتيم الحج للذين آمنوا، ثم يتحقق هذا الإيمان حتى يصير وصفا وعلما على هذه الفئة حتى توصف ب (المؤمنون) ومنه يتحقق لهم الفلاح، ويحق لهم وعد ربهم حين امتثلوا لأمره طائعين .

كما نلحظ هذا الازدواج والتكامل بين عالم الجسد وعالم الروح (القلب)، وبين سلوك البدن وخشوع القلب .. كل هذا يتحقق فقط مع الصلاة، فما بالك بمن يتمثل دعائم التربية من سائر العبادات الأخر؛كذلك يدحض هذا حجج دعاة الفسلفة المادية التي تؤطر الإنسان في أحادية الرؤية الجسدية الكيمائية، ولا تفصله أو تميزه بشيء من الخصوصية الروحية والتكاملية عن منظومة الكون.. وهو محض افتراء وازدراء لبدعة الخلق الربانية ..

كما في الآية كذلك رد على الطرف الآخر من دعاة الرهبانية والبوذية الذي يهملون عالم الجسد ويزدرون حاجاته المادية، حتى يبلغوا حالة الصفاء النفسي والارتقاء الروحي، وهو ظلم بين لبعض ما خلق الله في أنفسهم، ومناقضة للفطرة السوية ومناهضة، وهضم لحق الإنسان الجسدي ، فلا يصيرون إلا كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى".

وقد ذكر القرآن بعض هذه النمطيات منتقدا ما أسرفته على نفسها، وأنها لم تستطع بما فرضته على نفسها التخلص من ازدواجية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقال".. وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا.."

أما الإسلام فلا يُرقي الروح إلا من خلال سلوك البدن، ولا يرتقي البدن كذلك إلا من خلال هذه الطقوس الروحية التعبدية ، وهو ما شرع من (العبادة)، وما سنه من الشعائر، حتى يخشع القلب، ثم يكون من ذلك بعد ذلك مردا على الجوارح والسلوك " فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)"[الروم].

أما العوائد الاجتماعية المتأتية من تلكم العبادة فحدث ولا حرج، فهذا هو الجمع المؤمن المعبر عنه ب(المؤمنون)، ولم يأت بصيغة المفرد (المفرد)، وفي هذا إشعار بأن العبادة جماعية، اجتماعية؛ تجمع الصف وتوحده حتى تجمع القلوب وتوثق عراها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم وهو يسوي الصف "لا تختلفوا فتختلف قلوبكم" .. انظر كيف جعل هذا الرابط العجيب بين شكل الأبدان واصطفافها، وبين تآلف القلوب واجتماعها!.

هذا الاجتماع الذي يفتقد فيه الغائب، ويعاد فيه المريض، ويعان فيه السائل، ويعال فيه الفقير والمسكين وصاحب الحاجة.. في حديث (سليك الغطفاني) وقد كان فقيرا رث الثياب ، فدخل المسجد وجلس، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "يا سليك .. قم فصل ركعتين" وهي تحية المسجد، قال الصحابة: فما جاء المساء حتى صار سليك الغطفاني من الأغنياء، فأي اجتماع هذا الذي يقرأ ما وراء السطور والكلمات، ويشد بعضه بعضا كما قال صلى الله عليه وسلم "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".

وهكذا لا تكون العبادة في الإسلام ولا الشعائر جميعها، مجرد طقوس زائفة خاوية، تسري حركاتها على الأبدان دونما الأرواح، وتنفعل معها الأجساد، وتخمل النفوس .. إنما كانت شعائر جسدية روحية قلبية اجتماعية ، لا تعرف إلا الصلة الروحية بالملأ الأعلى ، والصلة التكاملية التكافلية بالمجتمع والجوار والأرحام "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم".

فلسفة الأسرة في القرآن

يتضاءل حجم الأسرة في النظم الغربية (المادي والمعنوي) حتى يصل إلى هذا الكيان (المجتمع) ـ وليس المؤتلف ـ حسب قوانين الحتمية الطبيعية التي جمعت الأب والأم مع الأولاد وربطت بينهم برباط واه يكاد ينفك كلما تراكمت عليه عوامل الزمن وتباعدت المسافات، فما إن يستقل الأولاد بحياتهم المادية والاجتماعية حتى تبهت هذه العلاقة شيئا فشيئا ـ وقد تنقطع ـ وقد يمتد بعضها بهذا الوهن الذي يشبه وهن بيت العنكبوت؛ وقليل من هذا العلاقات يدوم، وكثير منها ينفك قريبا ثم تستمر تحت ظل الرباط الذي إذا عقد لا ينبغي له أن ينفك طالما عقدته السماء (كما يدعون).!!

والآن تتقاذفنا حضارات الغرب وعلى رأسها أمريكا وأوربا بكل ما هو جديد منذ طرأت عليها شكليات الحضارة بعد عصور الظلام والاضمحلال، وما كانت حقب أوربا كلها إلا تراجع واضمحلال، غير أنها كانت تنتقل من نوع إلى نوع ومن طور إلى طور؛ فمن وثنية اليونان وتخبطهم واختراع الآلهة والصراع بينها، مع السفسطة وتراجع القيم ونسبيتها وانهيار الأخلاق، إلى جور الرومان وغلظتهم ، وتحريفهم عقيدة المسيح عليه السلام الموحدة، والانحياز بها عن جادة الصواب، إلى عصور الظلام وتغييب العقل والعلم ومحاكم التفتيش.. وأخيرا قفزا إلى طفرة الحضارة الحديثة على حساب ما تبقى من المسيحية وانهيار الأخلاق والإلحاد والشذوذ.. وعلى إثر خطاها هرع المجتمع الأمريكي..كما قال برنارد شو عن أمريكا" من الهمجية إلى المدنية دون المرور بمرحلة الحضارة !!

أما في النظام الإسلامي الذي أراد أن يؤسس ويؤصل لهذا الكيان لعظم ما يقع عليه من مهمات وما يعتريه من ملمات، وعظم ما يستقبله من تبعات الحياة؛ فإن الشارع في الإسلام قد تولى إقامته بنفسه، وعقد رباطه الذي سماه "ميثاقا غليظا" ؛ وقد تتبع خطوات إشادة هذه الصرح قبل وبعد التأسيس؛ والقيام عليه وتقعيد القواعد الأصولية لإدارته بعد إقامته، ثم تولى ما يتفرع عنه من الذرية والفروع والأحفاد.. بل وقد حض على صلة ما يتأتى على هذه العلاقة من علاقات ووشائج أسرية (أرحام) واجتماعية، فسمى [الأب والأم والأخ والأخت والعم والعمة والخال والخالة والجد والجدة] .. ثم من بأن جعل منا الأنساب والأصهار والأختان والحفدة [الحفيد: هو ابن الإبن أو الختن ـ والختن هو: قريب الزوجة ـ الصهر: زوج الإبنة أو زوج الأخت].

"وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)" [الفرقان].

وقد منّ الله على خلقه بهذه النعم السابغة المميزة فقال "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)"[النحل]، ومن لطائف الإشارات في الآية أن الله ربط بين الرزق من الطيبات وبين الأزواج والبنين والحفدة، مما يسترعي أن الرزق قد يكثر مع الأولاد وغير الأولاد .. لكنه لا يطيب ولا يهنأ ولا يمرأ إلا مع الأزواج والأولاد والذرية والحفدة، وهذا من عظيم منة الله على خلقه، وخطاب آخر لمن يربطون بين سعة الرزق وقلة الأولاد، فهذا تعلق فاسد لا يستقيم مع معنى الآية، وإن استقام فقد يتحقق مع الكثرة دون القلة.

هذا الإنسان الذي يدلف إلى الحياة وحيدا ضعيفا قليلا صغيرا، ما تلبث أن تمر السنون غير الطوال، حتى يصير في منعة ونعمة وعزوة وعز، ومال وعصبة، ورئاسة وريادة .. كل هذا في زمن لا يتعد الأربعين أو الخمسين سنة.. في صحيح مسلم عن أبي هريرة قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ثم ذكر الحديث فقال يقول الله لعبده يوم القيامة "فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ(معنى: فلان) أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟.. الحديث".

لقد نظر الإسلام إلى الأسرة على أنها: [ذلك الكيان المجتمع المؤتلف المستمر المنضبط بضوابط الشرع والأخلاق والقيم، والمرتبط بهذا الميثاق الغليظ]، والممكن في تكوين المجتمع المسلم؛ ثم يستقبل من وارادات الحياة من

الأعباء النفسية والاجتماعية والاقتصادية والاستراتيجية ما يجعله أصلب عودا وأشد باسا.. إنه كيان يؤسس لمجتمع قوي متماسك مترابط، وعدة استراتيجية وتنموية في السلم والحرب وردءا للدين وحفظا للعرض وصيانة لمكارم الأخلاق، وتعاونا على البر والتقوى.

وقد تعددت حكمة الله تعالى في هذا الكيان الأسري: فمنها أن جعله لإعمار الكون والاستخلاف في الأرض "هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره" .. "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم"، هذا عن الاستخلاف العام ، أما خصوصية الاستخلاف فهي التي جاءت في قوله "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)"[النور].

وكذا: لإقامة شرع الله وعبادته على الوجه الذي يرضيه "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، وقد من الله على عباده المؤمنين في أكثر من موضع بالكثرة بعد القلة، وهي الكثرة الناتجة من مصدرين المصدر الأول: الدخول في دين الله أفواجا من القبائل والملل المختلفة، والمصدر الثاني: فهو الذي ذكر في الآية من البنين والحفدة الناتجة عن الأسرة المسلمة.

وأما الكثرة فبرغم مجيئها في التنزيل مذمومة في مواضع، إلا أن هذا تبعا لما يصدر عنها من الإعراض والصد عند دين الله اغترارا بالقوة التي تتأتى من الكثرة ؛ لكن الله قد من علينا كذلك بالكثرة في أكثر من موضع مما يوحي أنها من نعمه وخيره الذي أرسله إلى عباده، من ذلك قول نبي الله شعيب لقومه "واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم"، ثم خطاب الله تعالى لنبيه بقوله "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)"[الأنفال].

وفي الآية أيضا ربط بين النصر والكثرة والرزق من الطيبات مما يؤكد دلالة سورة النحل على أن العيش يطيب أكثر، وقد لا يطيب إلا مع الكثرة وهو ما عناه القرآن في آية أخرى بقوله "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)"[الفرقان].

كما أمر الله بإعداد القوة لمواجهة أعداء الله، فجاءت كلمة القوة منكرة لتشمل عموم القوة التي منها (القوة البشرية)، التي لا تسطيع نظم ولا فلسفة إنكار أوليتها كقوة معتبرة ، وعامل معتبر في إعداد القوة، والتعويل عليها كعامل أولي من عوامل النصر والإنتاج واستمرارية الحضارة.

هذه اللبنة الاجتماعية التي اجتمعت ب "تخيروا لنطفكم"، ثم عقدت بهذا "الميثاق الغليظ"، ثم تسقى من معين المودة والرحمة والسكن، لا تعد هذا الإعداد اعتباطا ولا لتحقيق سعادة وقتية ولا متعة دنيوية عابرة، إنما أعدت هذا الإعداد المنتقى تحت سمع الشارع وبصره لا لشيء إلا للأغراض العظيمة، ولا ينظر إليها الشارع هذه النظرة البشرية الضيقة القاصرة: أنها كيان مجتمع لتحقيق أكبر قدر من الرفاهية الاجتماعية والمادية بأقل عدد من الأبناء.

إن المَهَمة أعظم من رفاهية مادية ومعنوية؛ فربما تمتنع الرفاهية والمتعة والبسطة في الرزق، ثم تنتج الأسرة ثمرة اجتماعية علمية يثرى بها المجتمع أكثر، ويصبح أقوم قيلا من هذه الأسرة التي ربيت في ظل الرفاهية .. ليست الرفاهية هدفا في تربية الأسرة المسلمة، وإن كنا لا ننكر أن المال عنصر قوّام في بناء الأسرة .. لكن الذين أقاموا حضارة الإسلام الأولى كانوا حفاة عراة رعاة للشاة والبعير، يجوبون أطراف الفيافي شمالا وجنوبا بحثا عن الماء والكلأ والنار.. فلما جاء الإسلام هدروا إلى حضارة فارس والروم الظالمة ـ المصنوعة على عين ـ فاقتلوعوها وأقاموا بدلا منها حضارة علمت الدنيا العلم ونشرت دين الله ومكارم الأخلاق في ربوع الأرض، وحقق الله بها سنة الاستخلاف والتمكين؛ وإن كان أوائلهم قد خرجوا من الدنيا حفاة كما دخلوها.

هذه الفلسفات المستوردة التي تربط الإنسان بعوامل الإنتاج وتنظر للأسرة على أنها كيان مادي، قيمته بقدر ما يملك وينتج ويحقق من الاقتصاد فلسفات فاسدة، تخرج بالشريعة لدينا عن مسارها، كتلك التي ما فتأت تحرض المرأة حتى أخرجتها عن صيانتها بحجة (الحرية)، وهذه النظرة الضيقة القاصرة لا تحقق قوة ولا منعة ولا علما ولا حضارة؛ إنما تتحقق الحضارة آخرا بما قامت به أولا " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) "[الحجرات].

وقد يوهن البعض أو المعظم فيما يجد علينا من وافدات العهر، وما يدفع به دعاة الرذائل وسدنتها لتقويض أركان الأسرة المسلمة، وتخضيد شوكتها التي لم تزل غصة في حلوق الفاسقين والمفسدين والمجرمين ممن طرأ على مجتمعنا كنبتة خبيثة ما لها من قرار.

يظن البعض أن هذا الباطل المقبل بقضه وقضيضه، أنه شيء أو بعض شيء، وإنما ذلك وهم لا يرقى إلى الظن أو الشك، وقد يتأتى ذلك ليس من قوة الباطل ودعواه، ولكن من وهن دعائم الأسر التي نامت مُخلّية مشرفيها وعوائلها، وبعدما نامت النواطير الحارسة عن الثعالب الماكرة حتى بان عوارها ونتن ريحها.

ليس للباطل بزهوه وجنده حد يقطع أو سيف يشرع ؛ إنما هو محض غثاء،كغثاء السيل وزبد كزبد البحر ما تلبث أن تدهمه جيوش الحق فتهلكه وتدمغه فإذا هو زاهق، وكذلك دعاته حين يبيتون ما يبيتون إن في صدورهم إلا بغض وغل على الأسرة المرابضة المرابطة المسلمة، وما هم ببالغيه نستعيذ بالله منهم ونستعين الله عليهم.

هذا الأسرة المسلمة التي أرسى دعائمها القرآن، وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم قوامها ومنهاجها التربوي والخلقي، فجاءت على أحسن ما أراد الله في الكون، فقامت على أصل من نكاح وحرمت السفاح، وشيدت أواصرها على المودة والرحمة والسكن "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا" .. "وجعل بينكم مودة ورحمة" سكن لم تعرف مثله البشرية في دين ولا شريعة، إلا شريعة الإسلام؛ ثم التراحم والتواد والبركة وحفظ الأعراض والأنساب، وإعمار الأرض حسب شريعة الله بالأولاد والأحفاد والذرية؛ والتواصي بالنساء خيرا ، وحضانة الزوج ورعاية الأولاد، وتوقير الكبير والرحمة بالصغير، والإحسان إلى الوالدين، وتقسيم المواريث، والاستظلال تجت عروش البيوت الساكنة الوادعة، والتعليم والتعلم، والقوامة على الأسرة، وحفظ مكتسبات المجتمع وقيمه وأخلاقه وأعرافه.

لقد جعل الله تعالى للبيت المسلم دعائم وقواعد وأركان أُسّس من خلالها على تقوى من الله ورضوان، فكان خيرا وأمتن مما أسس بنيانه على شرف جرف هار فانهار به في نار الشقاء في الدنيا والضنك، وانهار به في نار جهنم في الآخرة .. من هذه الدعائم والأسس:

أن جعل للزوجة حضانة البيت وقوامته، فقال : "لا تخرجوهن من بيوتهن" .. وقال: "وقرن في بيوتكن"، وقال: واذكرن ما يتلى في بيوتكن"

ألا فليعلم دعاة الفضيلة القائمين على أمرها، القابضين على جمرها أن الله اصطفاهم لما هم فيه، فلا يهنوا ولا يحزنوا وهم الأعلون إن تحقق الإيمان في قلوبهم وأقوالهم وأفعالهم ، وأن الله إذ اختارهم لهذا الأمر الجلل فإنه يمن عليهم أن جعلهم من المصلحين الذين امتن عليهم في قوله "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" .. وقوله" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين".

أما ما ينبت في مجتمعاتنا من نبت خبيث، وما يجد على قيمنا من العهر والرذائل يقوم بها دعاتها، وإن كانوا إلا امتداد لأسلافهم في كل عصر من قوم لوط، وفسقاء اليونان والرومان وبومبي الذين صب الله عليهم العذاب صبا، وقد ترك في آثارهم آيات لمن بعدهم.. أفلا يرعوون؟!!"وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم"، فهؤلاء لن يعدوا أبدا قدرهم إن كان لهم قدرا، ولن يكونوا إلا طوارئ دخلاء على ديننا وأعرافنا ما يلبث أن تأتي قذائف الحق فتزهقهم وباطلهم، وتجتث خبائثهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

العطاء وإعادة التأهيل للمجتمع

ومن شواهد عظمة هذا الدين أنه لا يعالج قضية، ولا طارئا ولا داءا اجتماعيا أو نفسيا إلا ويؤصل قبله للمعاني والتعريفات، حتى لا تلتبس على الناس المفاهيم فيدخل من بينها ما ليس منها؛ ومع هذا الالتباس في مفهوم (العطاء)، فقديأخذ من لا يستحق من حق غيره، وتضيع حياة أناس وحقوقهم ظلما، أو هضما.. وتخبو قيمة العطاء في المجتمع إما من تطلع من ليس بصاحب حق، أو تواكل الكثرة وتكالبهم على ما في يد غيرهم حتى يضطروهم أن يضنوا بعطاءاتهم .

يتناول الإسلام قيمة العطاء من أكثر من زاوية، أولها: الزاوية النفسية التي تحفظ للمعطي عطاءه، وتثمن قدره وأجره عند الله والناس.. وكذا تحفظ له ماله فلا يكون عرضة للتكالب والطمع، أو التطلع من الغير بأكثر مما حدد الشرع من نصاب في المال بمختلف أنواعه، مما وجبت فيه الزكاة.. فتحفظ بهذا أصل المال، كما ترسخ لفكرة الاستثمار والتداول المالي، فينمى، ولا يفنى من جراء الركود .. كما تحفظ للآخذ كذلك ماء وجهه، من غير منّ ولا أذى، فتجعل ذلك حقا ليس بمنة ولا تفضل، ولا عرضة للمنع "وفي أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم" (الذاريات).

أما من الزاوية الاجتماعية التي تحفظ للفقير (حقه) في مال الغني فتسكن نفسه أن قد أوي إلى ركن يكفله، ولا يهمله، وتسلم من مثيرات الحسد والبغض والاستشراف إلى ما في يد الغير ، أو النقمة على مجتمع يعيش بين ظهرانيه لا يرقب فيه قرابة ولا رحما، ولا إلاّ ولا ذمة.

ولذا حدد القرآن وعدد مستحقي الصدقة (الزكاة)، أصنافا وليس أشخاصا .. وهي المصارف التي لا يجوز في غيرها إنفاقها، وهذا التعديد هو من قبيل التوقيف لئلا يتداعى غير صاحب حق على حق صاحبه، ولئلا تفتح باب المسألة للناس على عواهنها فيتواكل المجتمع، متكئا على في ما في بيوت المال أو في ما عند أصحاب الأموال، فقال "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)" (التوبة) .. وقد جعله الله هذا الحق (فريضة) أي ليس منة من صاحب المال، ولا تدنيا من المستحقين.. كما أعقبه بالعلم والحكمة : حتى لا يتألى على الحاكم بعلمه أحد فيغير أو يبدل أو يعترض برأي ولا فعل. وكذا سماه الله حقا للمستحقين ، فقال : " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)" (المعارج) .

أما المسألة: فقد حفت بشروط.. وهذه الشروط محدد أصحابها في الحديث الذي في سنن أبي داود، وابن ماجة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلا من الأنصار جاء يسأل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد رأى فيه صلى الله عليه وسلم من لا تحق له المسألة .. فساعده حتى صنع له قادوما ثم قَالَ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَلَا أَرَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا» ، فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَقَالَ: «اشْتَرِ بِبَعْضِهَا طَعَامًا وَبِبَعْضِهَا ثَوْبًا» ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ وَالْمَسْأَلَةُ نُكْتَةٌ فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ».

وأما الحديث الآخر ، فهو حديث قبيصة بن الحارث الهلالي، فقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله: " يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِإِحْدَى ثَلَاثٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَسَأَلَ فِيهَا حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ فَقَالُوا: قَدْ [ص:٦٦٥] أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ أَوْ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ فَسَأَلَ حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – ثُمَّ يُمْسِكُ وَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسَائِلِ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا " قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا" (صحيح مسلم، والنسائي وابن حبان وغيرهم).

فلم يحل المسألة إلا لهذه الصنوف الثلاث : صاحب فقر مدقع، أي زادت حاجته على نفقته بضعف أو أكثر يشهد له عدول من قومه على شدة حاجته ، أو رجل تحمل حمالة أي ديات قتلى ليصلح بها بين الناس، أو رجل اجتاحت ماله جائحة أو خسارة في تجارة، أو حسبانا من السماء أو غيره .. وما عدا هؤلاء فليسوا من أصحاب المسألة..

ومن استشرفت نفسه إليها طمعا فيما عند الناس، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ما تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم" (صحيح مسلم).. وهذا من سوء عاقبة المسألة، ووقع الحياء على نفسه أمام الله وبين الناس.

ولا تقف روح الشريعة فقط عند حفظ هذا القوام الاجتماعي الذي يشتد بالاكتمال والتلاحم، لما يؤصل من قيم العطاء وخلقه، وينقي أتباعه من مثيرات الضغائن و مورثات الأحقاد.. ورغم العمق التاريخي لهذا التشريع، وتقدمه الزمني على بعض فلسفات العصر بأكثر من ألف عام، إلا أنه يعلو عليها في أكثر من فضيلة في هذا الموضوع علو الثريا على الثرى..

فلا تكتف الشريعة بقوام الشكل الاجتماعي وحده، بل تتعدى إلى ما هو أدق منه، حتى تحفظ كذلك القوام النفسي لهذه اليد التي امتدت يوما لتأخذ سرا أو علنا، حين اضطرتها الحاجة، فلا تلاحقها سبة (السفلى)، أو ذل الحاجة في حياتها، حتى إذا تبدل الحال، وحال الزمان وبلغت هذه النفس مبلغ العليا يوما ما.. فهي في قوة روحية ومنعة نفسية.. لم تضعها سيرتها الأولى من عيون المجتمع السليم الصحيح، ولها القوة على إتيان ما تألفه من سابق الجود.

ومن هنا جعل الإسلام للصدقة أكثر من مظهر في (السر والعلن)، حسب مقتضيات الظرف الاجتماعي وما تلائمه الحال، وما يناسب معادن النفوس المستقبلة لهذا العطاء، فمن النفوس من لا تصلحه إلا صدقة السر حياء واستعفافا، ومنها من لا تضيره صدقة العلن، فهو من القوة النفسية ما يجعل احتماله هذا الأمر يسيرا، حتى حين.. لعل يسعفه تداول الأيام يوما، وتبدل الزمان ، أن يكون غدا مع العطائين، ولسان حاله يتأسى بقوله:

الناس للناس ما دام الحياء بهم // والعسر واليسر ساعات وتارات..

وهنا يجمل القرآن هذا المعنى في قوله "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)" (البقرة).

أما صدقة العلن فهي التي تصلح مع الزكاة ، وهي كما ذكرها القرآن، بمثابة حق لصنوف المستحقين "وفي أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم" (المعارج).. وما دام قد سُمّي (حقا)، فليس على المستحق مشاحة أن يمد يده ليأخذ ما قدره الشارع له، وخصه به ،، وهل هناك حق بعد الذي شرع الله جل جلاله، وسمّى بنفسه أصحابه!!

أما ما زاد على ذلك، وما فرضه المرء على نفسه تطوعا، فهو مخير أن يظهره أو يخفيه.. فإن أظهر بغرض إشاعة الخير، وتحفيز المجتمع، والحض على الصدقة، فذلك نعم الخير، مجزول الأجر، وأما الإخفاء فذلك أعظم عند الله للأجر،

ومكفرة للسيئات، وأحفظ لنفس الآخذ، والله من وراء خبايا النفوس خبير بمن أعطى (رياء)، ومن أعطى (إخلاصا وإخباتا) ..

وقد عظم صلى الله عليه وسلم درجة هذا النوع من العطاء (الظاهر والخفي)، إذ جعل صاحبه في ظل صدقته يوم اشتداد الحر وانقطاع أسباب إلا من صالح الأعمال، وسلامة القلب، فقال: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» (مسند أحمد وغيره).. ، أما صاحب الصدقة الخفية فهو في ظل عرش الله . وشتان ما بين الظلين . وهي التي وردت في حديث السبعة الذي يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله "وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ" . (البخاري ومسلم وغيرهما).

كذلك في قصة صاحب الصدقة الخفية، وقد قبلها الله منه لصلاح سره وسريرته، من حديث أبي هريرة " قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ".

وقد عظم العرب هذا هذا النوع من عطاء السر، وكان محمودا لديهم، ثم لما جاء الإسلام زاده حمدا وحثا عليه.. ومن ذلك حين استدركت الخنساء على حسان رضي الله عنه في قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى // وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت: قلت الجفنات ولو قلت (القصاع) لكان أفضل، وقلت يلمعن، ولو قلت (يبرقن) لكان أفضل، وقلت في الضحى، ولو قلت في (الدجى) لكان أفضل .. هكذا علمت أن عطاء الدجى أفضل وأكرم من عطاء الضحى الذي يظهر للناس..

وأنشد المتنبي في ذلك معنى جميلا يمدح كريما في عطاء الليل، فقال:

وكم لظلام الليل عندك من أياد // تدل على أن المانوية تكذب

وروي أن الزهري رحمه الله قال: رأيت على بن الحسين في ليلة باردة وهو يحمل على ظهره دقيقا، فقلت له: يابن رسول الله: ما هذا؟ فأجابه عليه السلام: أريد سفرا أعد له زادا أحمله إلى موضع حريز،" فقال هذا غلامي يحمله عنك، فامتنع رضي الله عنه، فتضرع الزهري إليه أن يحمله هو بنفسه عنه ، فقال "ولكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه .. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك".

المرأة المسلمة بين حضاريتن

في خطاب طاغور لحبيبته يقول: " لو كان قلبي زهرة لطيفة صغيرة لاقتطفتها من فرعها كي أزين بها شعرك، ولو كان قلبي جوهرة ثمينة لحطمتها مائة قطعة وصغت لك من أجزائها عقدا جميلا كي أطوق به عنقك .. ولكنه يا حبيبتي قلب!! فأين حدود القلب!! إنك لا تعرفين حدود هذه المملكة ، ومع ذلك فأنت ملكتها".

قد تبدو الكلمات رغم روعتها كما لو أنها جاءت من عالم الأساطير، وقد يخال في بعض الواقع المنقضي حين يقص علينا من أخباره أن بعض هذا لم يكن ليكون في زمن ما لصعوبة تمثله في واقعنا، وهكذا تختلف الثقافة والأفكار باختلاف الأمكنة والأزمنة .. حتى العواطف والمشاعر تبدو في زماننا وكأنها متجمدة ، كما قال نزار" عرفت حضارة التعب .. عرفت عواطف الأسمنت والخشب" هكذا صور الشاعر الفارق الشعوري بين حضارة وحضارة وثقافة وثقافة وعالم وعالم.

فهل ثمة امرأة تعرف كما قال الشاعر "حدود هذه المملكة " التي هي ملكتها، أو كانت في زمن ما حقا ملكتها؟!! لا أظن إلا قليل، وقد درست معالم هذه المملكة، وعافت رسومها مع الأزمنة ولم يعد لذكرها ذكر إلا ما يتلى علينا كما سبق من عالم الأساطير، وكما قال شوقي عن بواكير الصبا بين ليلى وصاحبها :

وحدونا الشمس في مغربها وبكرنا فسبقنا المطلعا
كم بنينا من حصاة أربعا وانثنينا فمحونا الأربعا
وخططنا في نقى الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى

فكما تتغير صور الممالك الأرضية، ويستجد من رسوم الحكم وطقوسه ودساتيره وقوانينه، فكذا تتغير صور الممالك القلبية والروحية ؛ تلك التي كانت المرأة قديما متربعة على عروشها، وقد ظلت سيدة هذه العروش زمنا ليس بالقصير؛ حتى جاءت (حضارة التعب) فانتزعتها من مملكتها إلى مملكة هي محكومة فيها وليست حاكمة، وهي تابعة فيها وليست رائدة .. وقد كانت في أزمانها الأول درة التاج وواسطة العقد وحبة القلب وسلطانة العرش، وصاحبة الخباء ومحمولة الهودج ؛ ثم هي كانت كذلك تحكم في مملكة الأرض من خلف الستار، ومن رواء الحجاب ..

وكانت النفوس تواقة إلى شيء منها مهما كان يسيرا، والعيون مشرئبة ولو طرف ثوبها أو لحظ عينها، وكان البعض يرضى بأقل من ذلك كما قال المجنون :

وإني لأرتضي منك يا ليل بالذي لو رآه الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى، وبالوعد حتى يسأم الوعد سائله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي لا نلتقي آخر الحول وأوائله

وقال ابن حزم أنه يرضيه أن يجمعه مع محبوبه (علم الله) ، فقط أن يعلم أنها تعيش في الأرض التي يعيش علينا ولو كانت في أحد أطراف الأرض وهو في آخره، ولم يكن عجبا أن ترى ابن أبي ربيعة حين يعز عليه اللقاء والرؤيا يتتبع حتى ولو هذا الكف المخضب لينسج فيه بعض غزله العذري فيقول:

بدا لي منها معصم يوم جمرت وكف خضيب زينت ببنان

فوالله ما أدري وإني لحاسب بسبع رميت الجمر أم بثمان

ثم ما لبثت هذه الحضارة (حضارة الأسمنت والخشب) أن راحت تغري المرأة بمملكة بديلة ليست بالتي هي خير، تبحث فيها عن أمر لم تألفه، وعن مفقود لم تعرفه .. بل راحت كل واحدة منها وقد كانت صاحبة مملكة، أن تلقي ثياب ملكها وتضرب في تصاريف الحياة الجديدة عن الجنة الزائفة والملك المزعوم ، فمن إثبات الذات ومساواة الرجل، إلى مجالات لم تخلق لها في الرياضة والعمل الشاق، والتسليع (التحول لسلعة) كما ذكر د. المسيري في "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان" ، أنها حولت المرأة إلى سلعة لا للبيع والشراء، ولكن للاستثمار في التسويق والإعلان والفن والسينما والجنس والجاسوسية والسياحة و...."(١)

فهي حققت الأنثى التي كانت ملء السمع والبصر، هل حققت السعادة في عالم (الأسمنت والخشب)، هل قدمت لها الحضارة الحديثة تحقيق الذات ومساواة الرجل؟ أم كان هذا فطرة محققة في الأصل الأول، في المملكة التي كانت سيدتها، والبيت الذي كانت رائدته، والمجتمع التي كانت صانعته على عين، ولا يبرم قضاء فيه إلا بمشورتها وعقلها، والمدرسة والجامعة والمشفى والكتابة والأدب، والشعر واللغة، وقد أثمرت من قبل ذلك في ممالكها الأول "شعبا طيب الأعراق".

فأي امراة لا تنشد طريق السعادة الأبدية وقد فطرت نفوس البشر عليها، والأنثى أحرص ما يكون على ذلك ؛ لكن قد يخطئ البعض الطريق والبعض قد يصيب، فالذين يعلقون سعادتهم على عطاءات مخصوصة، ومنح حياتية متعينة هم من يبذلون طاقات نفوسهم "إثر كل قبيح وجهه حسن"، فيتحملون من عنت الحياة وملاقاتها ما لا يطيقون، فالحياة لا تبذل منحها لمخلوق كما يريد إنما هي مجبولة على المنح والمنع، والبذل والشح، والتبسط والانطواء.

ومن الخطأ تعلق النفوس بأسباب معينة إن وجدت، وجدت معها السعادة وإن غابت غابت، لكن الملهمون هم يسلكون كما يسلك ماء النهر، ويميلون كيف يميل بين الفيافي والصخور والوهاد والوديان، كلما عرضت له صخرة ، أو اعترضته كدية مال عنها إلى طريق غيرها.. وهكذا حتى يكمل النهر مساره ويصل هدفه، ويحقق بغيته.

فهل تتعلم نفس الأنثى من الطبيعة وهي جزء لا ينفك عنها، وهل تجيد قراءة الجمال من حولها لتستطيع التلبس به وهي لاشك بعضه وصانعة أكثره، وهل تنساب مع تفاصيل الكون وتلهم إشراقاته وبراءاته ومناجاته التي يبثها بين أرجائه صباح مساء، في الإصباح والإشراق، وسكون الليل ، ومناجاة القمر، وأنس النجوم، وغدو الطير ورواحه، وحفيف الأشجار وبرد الشتاء ولطف الربيع ، وإزهار الخريف؟!

ظلت المرأة زمنا ليس بالقصير حاكمة سيدة لهذه المملكة، متربعة على عروشها، ثم جاءها الإسلام فأغدق عليها من العطايا والهبات مالم يكن لها إليه سبيل، فحولها من متاع وجمال ومعشوقة متغزلة، وأنثى ذات دلال وجمال، إلى صاحبة البيت والسكن، وحظية المودة والرحمة .. فجعل عماد البيت عليها، ونسب البيت إليها، فقال" وقرن في بيوتكن"، وقال " واذكرن ما يتلى في بيوتكن" .. والغريب أن هذا الخطاب الذي ينسب إليهن ملك البيت كان حال قيامهن في بيت سيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لم يقل "في بيت النبي " ولكن قال "في بيوتكن".. ثم أكد على هذه الأحقية ثانيا فقال" واتقوا الله لا تخرجوهن من بيوتهن"!!

فهل صنعت ثقافة سابقة مثل هذا؟ نسب إليها هذا البيت وأوعز إليها القيام به، وبأهله، ثم يأتي من يهون من شأن البيت، ويحقر أنثاه القائمة عليه.. وهو مفرخ الأبطال ومنبت الأجيال، ومصنع المجتمع، واللبنة الأولى له، وكنف الرجال؛ وتحت عريشه يعيش العظماء ويربى الكبراء والنجباء والعلماء!! ومن بين جدرانه يصنع المجتمع على عين إما بسعادة وإما بشقاء.

فماذا كانت تنشد المرأة قبل حضارة الإسلام؟ العلم ؟، فقد صارت نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين وحملة العلم سنينا بعد موته، ولا يزال التاريخ يحفظ علمهمن الذي انتفع به وإلى قيام الساعة.. أم البطولة؟!! فهؤلاء نساء الصحابة والصحابيات اللاتي خضن الحروب مع النبي ص وكن ردءا له من السهام والسيوف، ولم يدانيهن في شجاعتهن كثير من الرجال!!

جاء في البخاري تحت عنوان "باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال"، "عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغنها في أفواه القوم".(٢)

وذكر تحت باب: غزو المرأة في البحر، قال: سمعت أنسا رضي الله عنه يقول: دخل رسول الله على "ابنة ملحان"، فاتكأ عندها ثم ضحك ، فقالت: لم تضحك لا رسول الله؟ فقال : ناس من أمتى يركبون البحر الأخضر في سبيل الله مثلهم مثل الملوك على الأسرة.. فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعها منهم ، ثم عاد فضحك قالت له : مم ذلك؟ فقال لها مثل ذلك فقالت : ادع اله أن يجعلني منهم، فقال: انت من الأولين ولست من الآخرين.. قال أنس: فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة، فلما قفلت ركبت دابتها ، فوقت بها فسقطت فماتت".(٣)

أم كانت تنشد الاستقرار؟ فها هو قد جعل قرارها في بيتها وحسن تبعلها لزوجها يعدل أجر الجهاد والحج والعمرة والصدقة؛ وفي الحديث "يعدل ذلك كله"، أم أرادت المرأة التجارة والذمة المستقلة، فقد جعل لها الذمة المالية بعيدا عن زوجها وخصص لها نصيبها من الميراث ما يزيد عن الرجل أو يقل أو يعدل، وجعل لها الوصية في مالها بما تريد دون وصاية من أحد" من بعد وصية يوصين بها أو دين"، أم حسن الصحبة، فقد أوصى بها الولي والزوج والابن والأخ من حسن الصحبة مع التأكيد والوعيد والتهديد لمن يخالف ذلك أو يحيد عنه.

هذا البيت الذي لم تستطع الحضارة الغربية الزائفة أن تقوم بحقه، ولا أن توفيه قدره .. حين عجزت فأهملت وأهدرت فأخرجت المرأة من الحصن، وشوهت على إثرها صورة الأجيال القادمة لديها، فأخرجت المخنث والمعقد والمنحرف جنسيا ونفسيا وعقديا، ودعاة الحروب ، ومرضى النفوس، والمتوحدون والمشوهون خلقيا وخلقيا، ومغيروا الفطرة الربانية والمعتدون على الحرمات الاجتماعية والأخلاقية والعقدية .

ثم خرجت المرأة تنشد سعادتها في الحياة غير المأتلفة، المشوهة والمزينة بزينة الشيطان، فصارت النجمة السينيمائية، والمعشوقة ، والمبذولة ، والمانيكان، وعارضة الأزياء، والجنس والإغراء، والتسويق والإعلان والحب والغرام .. ولم يغن عنها ذلك من السعادة شيئا إذ كان كل ذلك محض زيف، وقناع كذب، وخداع شياطين الإنسن والجن، ووهم

سراب لا ينفك أن يزول فلا تجد بجوارها الرجل الغيور ولا الأب الحريص، ولا الابن البار، ولا الأخ الحميم ، ولا المجمتع الرحيم الذي يقدر رسالتها حق قدرها، ويعظم ما قدمت إما من خلال ثمرة البيت في الزوج والولد، وإما من ثمرة العمل الهادف والأثر الباقي.

لم تجد المرأة في حضارتها المدعاة بعد ذهاب زهرتها، وأفول نجمتها، لم تجد إلا بيوت العجزة والموت البطيء، والأمراض النفسية (الزهايمر والاكتئاب والانفصام والذهان)، ولم تغن عنها النجومية ولا البطولة ولا أدوار الإغراء شيئا حين أخذ الزمان من مفاتنها كل جميل، وأرخى عليها ثقله فلم يبق منها إلا غلالة في الكأس، أو بقايا أنفاس تخرج وتدخل، أو عظام واهنة وشعر مشيب.. وهاؤم نجمات السينما العالمية حين دار عليهن الزمان وجار.

أُخِذت المرأة من رسالتها وضُيعت في خضم حضارة الزخم والتعب.. بعدما ضُيعت وأضاعت ما كان بيدها من الريادة والقيادة والإدراة والإرادة، وقد أثرت الحياة البشرية بنماذج عرف البعض منها بنفسه، والبعض بأثره؛ كن هؤلاء حديث اليوم والأمس، حدث عنهم ما استطعت، وعدد من المفاضل ما شئت .. والبعض إن لم يذكر، فإنه كان جزءا من منظومة لصناعة تاريخ دام رائدا حاكما أكثر من ألف عام.. فهل كان يمكن ذلك لولا تحكم هذه الرائدة وإتقانها فيما أنيط بها، وما ألهمت من فطرتها في القيام عليه والقيام به.

٣. د. المسيري (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)

٤. فقه السيرة (الشيخ محمد الغزالي)

٥. نفس المصدر

العربية وريادة الصحوة!

إن كانت ثمة صحوة مُؤمّلة في قابل الأيام أو آخرها، فلا أظنها ستكون بمنأى عن هذه اللغة.. اللغة العربية، وربما ستكون اللغة زعيمتها، أو مفجرتها.. وإن كنا نطرح هذا على سبيل الأمل، فهو متحقق على سبيل الفرضية العقلية التي تقول أن: "اللغة وعاء الفكر" .. وأن "ما أصلح أول هذه الأمة، لا بد أن يصلح آخرها"..

وإذا كانت اللغة وعاء للفكر، فإنها كذلك كانت وما زالت وعاءً للمنهج؛ هذا المنهج الأولي الذي أتى يحمل صلاح البشرية ـ العربي منها والعجمي ـ والذي لم يكن قدومه أولا إلا على أصحاب هذا اللسان العربي المهيأ عقليا ونفسيا لاستقباله والفهم عنه، سواء رضي منه أصحابه أم لم يرضوا، وسواء آمنوا به أم لم يؤمنوا؛ لكنه على أية حال لا بد أن يكون قد فهم عنه، وتحقق البلاغ.

هذه الحقيقة الذي أثبتها القرآن ناصعة بينة "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)"[إبراهيم] .، قال الشيخ الشعراوي في تفسيره" والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتِها العلمية، وتُترجمها إلى لسانها الذي تنطق به.

وترجمة المعاني من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم؛ لأن المسألة في جوهرها مسألة معانٍ؛ والمعاني لا تختلف من أمة إلى أخرى.

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر؛ وقد نزل بالعربية؛ لأن موهبة الأمة العربية كانت ولا زالت النبوغ في اللغة والكلام؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات.

ولذلك تستطيع أن تَعقِد مقارنة بين البلاد التي فُتحت بالسيف والقتال؛ والبلاد التي فُتِحتَ بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلَمة الصالحة؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة.

ستجد أنهم نُقلوا الدين بالخِصَال الحميدة، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم، ولذلك أقبل الناس على دين الله أفواجا..وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعاني، بجانب كونه معجزةً في اللغة التي نزل بها، وهي لغة العرب.

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة في المصحف، واعتمدوا على فَهْم المعاني الموجودة فيه عَبْر الترجمات التي قام بها مُسلِمون أحبُّوا القرآن، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى.. ولذلك نجد قول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [القمر: ١٧] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أُمَّ القرآن بلسان العرب أولاً، ثم يسرَّه بأن جعل من تلك الأمة التي نزل عليها القرآن أمة نَشرْ البلاغ عنه سبحانه، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً؛ والتبليغ وسيلتُه الأولى هي الكلام؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هي الأذن، فلا بُدَّ من الكلام أولاً، ثم لا بُدَّ من أُذن تعرف مدلولاتِ الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام، ولِتُطبّقه سلوكاً.

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعاني الألفاظ؛ فما تسمعه الأُذن يحكيه اللسان، وعرفْنَا أن اللغة بِنْت السماع، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التي سمعها في بيئته؛ وإذا تتبعتَ سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلي الذي تعلَّم منه البشر الكلام؛ وهو آدم عليه السلام" (١)

ويقول د. عبدالمجيد الطيب عمر، أستاذ اللغويات في إحدى حلقاته على قناة (المجد) برنامج (ساعة حوار): أن العربية كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، لسان وليست جنس، وذلك في قوله "العربي من تكلم العربية"، وإذا كان القرآن يؤكد حقيقة " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... الآية" ، فإن في هذا دلالة حتمية على أن العربية لسان الكون لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس كافة؛ وأن العربية هي لسان آدم عليه السلام وأولاده، وإن كانت اللغة من بعده قد تشعبت وتغيرت وتعددت.

وهذا اللسان المتوافق هو أمر حتمي للفقه والعقل، وما كان ليحدث مثل هذا العقل والفقه، وما ترتب عليه من الإيمان والكفر إلا بعد تحققه، ولذا أكد القرآن مرارا على عربية هذا الكتاب، وديمومة رسالته وحفظه إلى أن يرث الله الأرض.. وهذا فهم خفي يوحي أن هذا اللسان العربي لابد أن يطرق أسماع الأرض من مشرقها لمغربها، وكما ذكر عن الصادق المعصوم "لن يدع بيت مدر ولا وبر إلا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل".

وكانت افتتاحية بعض السور وما تضمنته الآيات في كثير من معانيها، أن عربية اللسان والكتاب إن كانت بحكمة غرضها التوافق بين العقل العربي المستقبل، وبين المنهج العربي المنزل، إلا أنه يمكن استنباط معنى خفيا آخر، هو أن العربية تزيد في الفهم والعقل خاصة عندما يجتمع ما يتلقى القلب والعقل من الوحي مع فطنة العربية الأصلية وبلاغتها وسلاسة الإفصاح التي تتميز بها عن غيرها من اللغات، فقال "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)"[يوسف].. "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)"[الزخرف].. "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)"[فصلت].." قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)[الزمر]، فعربية اللسان معللة بالعقل والعلم والزيادة فيهما، وكذا لسهولة التلقي بين هذا العقل المستقبل، والمنهج المنزل.

وفيه أيضا إيذان بعمومية هذا اللسان الذي سيكون حتما على كل من آمن بالكتاب منهجا وشرعة و عقيدة أن يتعلم العربية، أو بعضها حتى يقيم شعائره ويحقق عقيدته وفق ما أنزل الله وشرع؛ ثم هذا الوقع القهري الذي يفرض نفسه على هذه الألباب المتهيئة لقدومه حتى ولو أمعنت بعدا في التصدي له إلا أنه كان في بعضه او كثيره، ما ترغمهم قاهرية الآيات المتلوة على الإذعان والخضوع.

ومن ذلك ما ذكر في قصة جبير بن مطعم رضي الله عنه حينما قدم المدنية على رسول الله ولم يكن قد أسلم بعد، قال: فسمعته يقرأ في سورة الطور "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون.. الآيات " قال: فكاد قلبي أن يطير.

كذلك ما روي في نزول الآيات من أواخر سورة النجم " أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)".. ذكر المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد والمؤمنون معه، وسجد كفار قريش من وقع الآيات على نفوسهم .. ،كذلك ما روي في قصة الوليد بن المغيرة حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم يحاوره ، ويراجعه في التخلي عن دعوته ويعرض عليه ما عرض، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أفرغت؟ قال: نعم ، قال: فاسمع إذن: ثم تلا عليه أوائل سورة فصلت حتى أتى على قوله : فَإِنْ أَعْرَضُوا

فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣).. فوضع يده على في النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: أقسمت عليك إلا سكت!!

أما المؤمنون فهم الذين انفعلوا بهذا الكتاب حتى أقاموه شريعة في أنفسهم وأهليهم ثم طافوا به أرجاء الأرض وأطرافها ينشروه ويعلموه، حتى صنعوا الحضارة على الوجه الذي نرى ونلمس وإن خبت ذكراها وشواهدها حينا من الدهر إلا أن العلم لا يستطيع في أي بقعة من الأرض إنكارها.

وإذا كان في عصرنا بعدما غابت شمس الحضارة وغرّبت، إذا كان ثمة صحوة أو نهضة فلا بد أن تنطلق من صحوة هذه اللغة كي تعود على ألسنة العرب وعقولهم كما كانت في باديها، وإن لم يكن متحققا بنفس السليقة فبالتعلم، حتى تغدو اللغة من جديد وعاء للفكر، وعاء يستوعب العقل به هذا المنهج ويفهم عنه ويفكر بها ويتعايش ويتعلم حتى تصير (أسلوب حياة)!!

ومن هنا فقط يمكن أن يستعيد العقل العربي ذائقته وطلاقته وعقله الذي باعدت طرقات الحوادث بينه وبينه من التغريب والاستخراب (الاستعمار)، وتراجع الدرسات اللغوية، وسطوة الثقافة الغالبة، وتمالأ أصحاب الحضارة الحاكمة كي يوئدوا كل صحوة وطفرة يمكن أن تطلق هذا المارد من محبسه، أو تفلت هذا الهزبر من عرينه.. إن الحضارة الغالبة قد فرضت ضرباتها على كل ركن وعلم في الأرض، فلا يكون علم جديد ولا مبلغا لحضارة إلا من تحت إمرتها، ولن تفصح لبني العرب عن علم إلا بلسانها الأعجمي،كي يغيب مع الأيام والأزمان لسانهم وتخبو جذوة عربيتهم وقد حدث بعضه.

وقد صدت آذاننا وصمت أسماعنا كثير من أبواق هذه الأفكار الواردة، وهم على قدر في بلادهم من الثقافة والعلم، وقد أوعز إليهم بالدعوة إلى تغليب ثقافة الغرب وحتمية الانصياع للغتهم لبلوغ علومهم؛ وقد ذكر هؤلاء الأعلام كثيرا من ذلك في كتبهم وكتاباتهم .. من ذلك كتاب (ثقافتنا في مواجهة العصر ـ د.زكي نجيب محمود)، و (مستقبل الثقافة في مصرـ د. طه حسين)، ودعوات أحمد لطفي السيد (مصر للمصريين ، وتغليب العامية المصرية) وغيرهم (شبلي شميل، وسلامة موسى ، ولويس عوض) دعوات القومية العربية ، وتغليب العامية في التخاطب والتعامل وغيرها من دعاة صحوة القومية العربية والدعوة إلى نعرة العروبة وتخليف دعوة الإسلام.

فالفكرة الدينية هي الرائدة في تكوين الحضارة كما تحدث (مالك بن نبي) في: "شروط النهضة أو مشكلات الحضارة" ولكن الفكرة الدينية لن تحقق في نفوس أصحابها إلا إذا فهموا عنها كما يراد وكما جاءت، ولا يتحقق هذا الفهم بأي وسيلة إلا أن تكون عن طريق اللغة .. فإذا ترسخت اللغة وتحقق الفهم قامت الفكرة الدينية من مرقدها كما جاءت من قبل على حين فترة ، فأوقدت جذوة الدعوة والنهضة وخطت لأسس الحضارة من جديد كما فعلت من قبل.

اللغة ليست لسانا بقدر ما هي منهج حياة؛ نفكر بها ، ونحلم بها ، ونتعلم بها .. ونطلقها في تفاصيل الحياة اليومية لغة للتعاطي والتفاهم والتقارب، ثم هي تتولى بعد ذلك صقل العقول والقلوب وترد الناس إلى دينهم شاءوا أم أبوا.

١. تفسير الشيخ الشعراوي

اللغة وما تحمله من الطاقة الحضارية

يقول د. محمد أبوموسى في شرح (رسالة الإعجاز) للجرجاني: "أن العربية قد بلغت طاقة الكمال البشري قبل نزول القرآن"(١) فلم يكن لأحد من البشر أن ياتي بأفضل مما أتى به العرب في الجاهلية من شعر ونثر، فلما جاء القرآن فأفحمهم علموا حقيقة ألا طاقة لهم به، فقد كان الفرق بينه وبين كلامهم كما قيل" كالفرق بين الله والبشر"(٢)، ومع قوة التحدي التي أعلنا لا ليعجزهم فقط ولكن ليظهر عجزهم حتى يعلم الشاهد منهم والغائب ومن يأتي بعدهم أن لم ولن يستطيعوا ولو أجتمعزنا أن يأتوا بشيء من مثله ..

ولذا لم يكن لهم ثمة اعتراض أو بيان لمقارعة القرآن أو مناجزته ، لكنما قالوا عنه "إنما يعلمه بشر.. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها .. لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون.. إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون"..

وقد قال أحد علماء البيان: أن العرب لو استطاعوا أن يناجزوا القرآن بالبيان، أو يغالبوه لما تكلفوا حمل السلاح، ولما تجشموا القتل والأسر والسبي، وإزهاق الأرواح وإنفاق الأموال؛ فما كان أسهل لديهم ـ إن استطاعوا ـ أن يقولوا مثل قوله، ويكفوا أنفسهم كل هذا العناء، لكن لما أعجزهم لم يكن بد إذ أبوا التسليم إلا حمل السلاح ومكابدة الأهوال.

كما كانت أميته صلى الله عليه وسلم معجزة كبرى تثبت صدق دعواه على ما جاء فيه من البيان والإفصاح والإيضاح، وقد أيقنوا أنه لم يكن ليفتري هذا الكلام من عنده وقد قضى بين ظهرانيهم جل عمره لم يفارق بيئتهم إلا أياما قليلة لا يكاد المرء يبلغ في غيبتها فلسفة أو يحصل علما .. وهكذا خاطبهم بقوله "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)[يونس].

"وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)"[العنكبوت].. "وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)"[الأنعام].

ثم شاء الله أن يبقى هذا الشعر العربي الجاهلي خير شاهد لفضل بيان على بيان، وفصاحة على فصاحة وكلام على كلام، وليستبين من يأتي بعدهم هذا الفارق الجلي بين من أعجز ومن عجز، وليعلم هذا الفارق بين الطاقة المتولدة والمتجددة بين الكلام والكلام، وما أثرى به هذا الكتاب طيلة هذا الزمان الحضارة البشرية من المعتقد والأخلاق والقيم والتشريع والحكم والإصلاح الاجتماعي، والديني والدنيوي، وما يزال حتى قيام الساعة.

ثم لم تلبث هذه الطاقة الروحية الكامنة بين طيات الكلام القرآني ونشره أن استفاضت على هذه النفوس البشرية التي تلقفتها بإيمان وتسليم، فاستحالت بين جنباتها نورا وعلما وقوة وبأسا وشجاعة وفقها ورحمة وخيرا وجودا .. حتى طارت بها في جنبات الأرض تحيي بها نفوسا من العدم..تفتح بها قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما.

لقد نظر (رستم) إلى صفوف المسلمين وهم يصطفون للصلاة قبل القتال، فقال"أكل عمر كبدي.. يعلم الكلاب الآداب"، ولم يكن يدور بخلد هؤلاء الأكاسرة والقياصرة أن هؤلاء العرب الأجلاف ينفرون إليهم بهذه القوة الروحية

التي تمتلأ بها نفوسهم ؛ وقد ظنوا بدءا أن هؤلاء ـ كما عهدوهم ـ عالة رعاع أخرجهم الجوع والحاجة من بيوتهم، وألحا عليهم بطلب الحياة خارج جزيرتهم، فما تلبث سيوف الروم والفرس ورماحهم أن تجتثهم من جذورهم وتعيدهم من حيث أتوا أو يموتوا جوعا وعطشا إن لم يموتوا بالسيف.

"وإذا بالمغيرة يهجم على سرير رستم فيجلس بجواره، بعد أن يطأ بسطهم وفرشهم برمحه وقدمه فيمزقها ولا يبالي وهم ينظرون إليه شزرا، ثم يملي عليهم شروطه التي جاء بها منهجه (الإسلام أو الجزية أو القتال)، وما كان لهؤلاء من قبل شروطا ولا مطالب، فضلا عن أن تكون فروضا ملزمة وعلى غيرهم أن يختار من بينها".

هذه الطاقة اللغوية الكامنة في هذا المنهاج التي أذعنت أباطرة الأرض في سنوات معدودات، ثم قبضت بيدها على مفاصل التاريخ البشري فأدارته كيفما شاءت ، وأجلست رجالها على أعناق المتكبرين والمتجبرين.

"ولعل وقفة هنا تستحق الاعتبار.. وهي: إن كان هذا الكلام مفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف ضمن له أن يضرب بهذه القوة الروحية والنفسية والمادية في صروف الزمان وتقلباته، وأن يحيا على مدى الدهر الطويل الذي عاشه متربعا على قمة الإعجاز البياني لم يخطر ببال، ولم يطرأ بوهم أن يعارضه بعد هذه القفزة العلمية الحضارية الحديثة ولو على سبيل التجربة أو إثبات أن الأمر لا يعجز حديثا وإن أعجز قديما.. لكن ذلك لم يكن"(٣).

هل كان محمد صلى الله عليه وسلم أن يضمن لهذا الكتاب بقاءه كل هذا الزمن متربعا على عرش الفصاحة والإعجاز دون أن يعلم عن ذلك شيئا، فأي قوة ملهمة تلك التي ضمنت له هذا البقاء الأبدي؟!!

إنه ليس بقاءً عاديا كأي نص تاريخي يمكن أن يخلد، إنما كان بقاء من جنس خاص، فلم يكن لأحد من البشر أن يفتئت على نصه طيلة ألف وأربعمائة عام، فيزيد فيه حرفا أو ينقص فيه حرفا، وتلك معجزة أخرى بعينها، فإذا لم يكن بوسعهم تجاوز البيان، فليكن إذن تجاوز الرسم وهذا أيضا لم يكن ولن يكون.

ثم إبقاء الفكرة التاريخية دائمة صاغرة دون هذا الكلام، لا تستطيع تجاوزه بشكل من الأشكال فتحكم عليه بأنه نص تاريخي قد عفا الزمان على مثله، وقد أتى من الجديد مما أبدع العقل البشري ما قد تجاوز معناه وقدره العلمي، ولو لم يتجاوز حرفه إلا أن هذا أيضا لم يكن؛ إذ بقي نصه الديني والتشريعي والتاريخي والعلمي متربعا على عروش العلوم فلا يبخسه علم أتى بعده، ولا يزري بقدره أحد مهما بلغت منزلته وعطاءه العلمي والمادي والفكري.. فكيف يعقل ذلك؟

كما أن دعوى اختراع محمد صلى الله عليه وسلم للقرآن من عنده كان يجب أن تأخذ من نفسه موقعا من الفخر والاعتزاز بالنفس، وهذه الحالة النفسية الانتشائية للمرء حينما يتأكد له أن بيانه قد أعجز من حوله، فيرجع فينسب هذا الكلام لنفسه ولو لم يكن له ولو على سبيل الفخر والزهو، لكن ذلك لم يكن ..

وفرضا أنه قد صنع هذا فماذا كان يفعل وقد كان ينزل عليه القرآن منجما " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)"[الفرقان]، ماذا كان موقفه فيما يستقبل من حدث لو ادعى بشرية القرآن، وما يكون رده على قومه حين يسألونه عن أمر من الغيب كما فعلوا حين أوعز إليهم اليهود بذلك فسألوه

عن "فتية غابوا في الدهر(أهل الكهف)، وعن قصة موسى مع الخضر، وعن ذي القرنين" كيف كان يفعل وهو لا يدري لهذا الأمر جوابا ولم يسمع به من قبل.(المناسبة التي نزلت فيها سورة الكهف).

بل إن القرآن خاطبه شخصيا في أكثر من موضع بقوله [وما كنت بجانب الغربي ـ وما كنت بجانب الطور ـ وما كنت ثاويا في أهل مدين ـ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ـ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك..]، فكيف يشهد على نفسه أنه لم يكن له علم بأخبار القرون الأولى ولم يشهد حدثا من أحداثهم إلا أنه كان فقط وحيا من عند ربه.

إن شأن الفلسفات ـ كما ذكرنا من قبل ـ ومنتجات العقل البشري الطبيعية أن تحول عليها الفكرة التاريخية بعد حين من الدهر، إما بقليل أو بكثير، ولا شك أن هذا من طبيعة الحياة، فيأتي فكر على إثر فكر آخر، فيضيف عليه أو ينقص أو ينقض أو ينقد، وقد رأينا البعض ينسف البعض، ورأينا الفلسفات يعلن بعضها الحرب على بعض .. فمن فلسفة اليونان (أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وأبيقور)؛ إلى الفلسفة الحديثة ديكارت وكانط وبيكون ، إلى ماركس وإنجلز وآدم سميث .. إلى العلمانية والحداثة وما بعد الحداثة يغيب البعض في إثر البعض.

أما القرآن فلم يستطع الأعمار (الزمني) منها، ولا الفكري أن يأتي عليه، فيظهر رغم ما قطع العلم من طريق طويل، يظهر فيه شيئا من التناقض أو الخلل أو النقص في الأسلوب أو التأصيل والتعليم والتربية أو فيما حوى من علوم وتشريعات.. بل قال بلسان التحدي والحزم "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" وإن هذا لمنتهى الاستعلاء اللغوي والفكري والأدبي، ثم لا يزال باقيا متجددا متسعا، تنداح رقعة الأرض بين يديه من الأتباع والمؤمنين، ويحق القول فيما أخبر"أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصهامن أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه".

١. من دورس د. أبوموسى (شرح دلائل الإعجاز)
٢. الباقلاني (المصدر السابق)
٣. نظرات جديدة في القرآن . بتصرف (د. محمد عبدالله دراز)

فقه التعايش والتعارف في المنظور القرآني

فكرة الحب مطروحة قدم البشرية على الأرض، وهي من الفطرة الطبيعية التي فطر الناس عليها.. لكنها رغم القدم، استحقت أن تكون ذات بعد تاريخي فلسفي شاغل لكل من ألهم شيئا من الأدب أو الفلسفة أو الفكر، وما تفتأ العقول تحوم حولها، وتحاول الاستشفاف والتبحر في معانيها ومباديها، وعن قوة التفاعل التي تتولد بسببها بين البشر، الإيجابية والسلبية، التجاذب والتنافر، التعارف والتناكر، التقارب والتباعد..

لم تكن الفكرة مجرد علاقة بين طرفين متقاربين أو متباعدين، أو بين جنسين يميل أحدهما إلى الآخر؛ إنما الأمر أبعد وأعمق من ذلك، فلربما كانت بداياتها هي السبب في الوجود الإنساني الرائع المستمر على الأرض، ومن نتاجها نما الترابط البشري واستوثق وتثبت حتى صارت لحمة البشرية على ما نرى.. ومن قوته وضعفه ابتلي الجنس البشري بما ابتلي به من الوئام والحراب، والتلاقح والتقاتل.

لم تكن فقط ـ كما يظن البعض ـ سببا في تخليد قصص تاريخية غزلية، لم يخل أصحابها أن يسطر لهم التاريخ في أدبياته هذا السرد القصصي الأسير، بل لم يخطر لهم ببال أن الأمر قد يتعدى حدود ما بينهم من عاطفة طبيعية؛ لكنما التاريخ قارئ حاذق، وباحث مدقق، وعذول رقيب، لا تكاد تمر من بين يديه همسة ولا نظرة ولا لفتة ولا غمزة؛ بل يكاد يقترب حتى يفتش في الجوانح ليعلم خلجات النفوس، وعدد دقات القلوب، ويسمع حفيف أنفاس العاشقين.. وما يزال يقلب ويحلل في شأن المحبين، ثم لا يسكن حتى يجعل كل هذا في دساتيره مقروءا مبذولا لكل من رام المعرفة أو التسلية أو التعزية أو التفكه، ولكل من تقصى أخبار المحبين؛ هذا وإن اجتهد أصحابها ليخفي ما بينهم على الصديق فضلا عن العذول.

فهل فكرة الحب هي الأصل في الاجتماع البشري الذي تنبنى عليه إدارة الحياة ، وصناعة الحضارة ، وإعمار الكون؟!! أم كان مجرد لمحة فطرية طبيعية تقارب بين البشر حينا وتبعد حينا؟ أم أن الأصل في الاجتماع هو التعارف والتعاون من أجل الفكرة الحضارية الكونية؟

الفكرة القرآنية عموما قد ألمحت إلى كثير من جواب هذا الطرح إذ جعلت أصل الاجتماع البشري (التعارف) ، فقال القرآن" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)[الحجرات].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم "كلكم لآدم وآدم من تراب"، وقال " أيها الناس إن أباكم واحد، وإن إلهكم واحد .. ألا لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

و(التعارف) هنا فيها أكثر من دلالة، فالمعنى الأقرب هو انتماء المخلوق لشعب أو قبيلة ـ كما ذكر المفسرون ـ الشعب (للعجم)، والقبيلة للعرب، وأما عموم المقصد هو سهولة الانتساب والتعارف بين البشر، وكذا الالتقاء والترابط والتعاون والتلاقح والتثامر، حيث المعنى القرآني الجامع للتعارف لا يصلح أن يكون هو القصد المحدود، إنما أراد الله هنا أن يمن على البشر بعدة أمور في الآية.. من بعضها:

الخلق : إنا خلقناكم .. وبالتالى كل من هو مرده إلى الخلق، فليعلم أنه مخلوق لله، وأن لم تكن له فضيلة في هذا الخلق أو منة على أحد، ولا لأحد عليه فيها إلا لله، بل هو ممنون عليه كغيره، وبالتالي فالتفاضل هنا بالأثر لا بالبدء، فالبدء واحد، والأثر متنوع متعدد، والمآل كذلك.. والتاريخ خير شاهد.. وأن هذا الخلق لحكمة يبدو كثير منها معلوما، ثم المعاد والمرجع إلى هذا الخالق الموجد، وهو الله رب العالمين.

النوع : ذكر وأنثى .. وهو أولية الخلق، وهو الحكمة والأصل في التقارب والتعاون والتناسل، وهو تأكيد على عدم التفاخر بالأحساب والأنساب، وإنما لأن يعرف كل أصله وخلقه ومبدأه "كلكم لآدم وآدم من تراب"، ووحدة الخلق والأصل هنا تؤكد على عدم التعالى والتباطر، ولكن ليعلم ويعمل كل في ما قدّر له.

الجعل شعوبا وقبائل: وهو التصنيف النَّسَبي المتمثل في (القبيلة ثم الشعب، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة .. ثم الأقارب)، وهو نعمة بعد نعمة، وكذا تعديد للنعم (الخلق ثم الجعل)، فالأمر كله مرده إلى الله..

التعارف: وهنا مناط الفكرة القرآنية: أن التعارف للتعاون والتصاهر والتقارب والتآلف؛ فالبشر مخلوقون لغرض وحكمة إلهية وهي (العبادة والاستخلاف في الكون)، ولن تكون الأولى ولا الثانية إلا بالتعارف والتعاون، فإن التنابذ والتناحر والتباغض هو هدر للجهد والأصل البشري ، وإزهاق للأروح ، وإفناء للنوع ، وتدمير لمكتسبات الحضارة الإنسانية، وافتئات على القيمة الربانية التي وجد الكون والبشر من أجلها.. فالخلق للتعارف لا للتناحر والتدابر والتحارب.

التفاضل: وهو المستوحى من قوله "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، فمناط التفاضل (التقوى)، ولا غير ذلك.. وبهذا يسقط كما قال صلى الله عليه وسلم كل نسب وحسب وأصل وفخر ما عدا نسبه تعالى، ليس نسب الجنس ـ تعالى الله عن ذلك ـ إنما شرف العبودية ، كما قال ص: " إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان بن فلان..فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي"..[أبوهريرة ـ ضعيف الترغيب والترهيب]، وكما قال ص "إن لله أهلين من الناس ، قالوا يا رسول الله: من هم؟ قال: هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته".. [مالك بن أنس ـ صحيح الجامع].

هذا التعارف هو الذي يقود إلى الألفة، وهو مقدمة الاجتماع البشري؛ فإن الجنس البشري حسب علماء (الانثربيوجيا) مفطور على الاجتماع، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته "إن الإنسان اجتماعي بطبعه"، وفي الرؤية القانونية الاجتماعية يقول د. يوسف عطاري: "إذا كان الإنسان كشخص مخاطب بالقانون الداخلي كائن اجتماعي بطبعه يميل إلى إقامة العلاقات المادية والعاطفية مع أقرانه مما يحتم وجود مجتمع إنساني، ظاهرة اجتمااعية، ووجود قانون ينظم تلك العلاقات الإنسانية والظواهر الاجتماعية .. وهذا يجعل الإنسان وإنسانيته محور أي قانون يصدر، سواء كان ذلك في التشريع أو تطبيق القانون".١

وكما يرى د. مصطفى شميعة "بين الإنسان كائن اجتماعي بطبعه (أرسطو)، والإنسان كائن اجتماعي بالضرورة (كونت)، فإن دراسة الوجود الاجتماعي لها علاقة بالملاحظة والاستنتاج... أن دراسة الواقع الاجتماعي في نظرنا يجب أن تناقش من منظور النظرية التوليدية كما وردت عن (تشومسكي)... يرى (جان بياجيه) أن اجتماع مجموعة من العناصر هو

الذي يشكل بنية شاملة بالنظر أن المبدع الذي يريد أن يعبر عن جماعة ما يجب أ، يكون جزءا من بنيتها العامة والشاملة".٢

وهذا ما يؤكد حقيقة النظرة القرآنية التي جعلت الاجتماع للتعارف هو الأصل في الإبداع والعمل والإثمار والتنمية والقيمة الحضارية التي يترقى بها الإنسان حسب التكريم الذي أضيف إليه، وخلع عليه ، وأحظي به قبل أن يدلف إلى ساحة الحياة ليختبر كل صاحب معدن نفاسة معدنه، ومتانة قدرته، وقوة اصطباره على هول الرحلة .. لكن بالتعاون والتآزر والتآلف.

وهو ما يترتب عليه قول القرآن (التعارف)، وذلك ليجلي كل مخلوق ما لديه من الموهبة والفطنة والقدرة والعلم والدراية، فيعرض كل بضاعته ويبدي حذاقته وإلهامه، ثم تجتمع هذه المواهب لتقيم هذا الجهد البشري العلمي والحضاري الذي نراه منذ فجر التاريخ.

لقد أثبت هذا النمط من الفلسفة الأخلاقية الاجتماعية جدارته التاريخية، حيث استوعبت الحضارة الإسلامية هذا التنوع والتعدد اللامحدود.. كان ذلك جليا في بلاد الأندلس وبغداد وما حولها، وفي سائر بلاد الإسلام، وفي عهد الخلافة العثمانية .. إذ حظي فيها بمتعة الحياة وسكينتها ـ لولا صراعات السياسة وتنكباتها ـ كل مذهب عقدي أو تشريعي فنشأ من بينها وفي كنفها (أهل السنة والمعتزلة والجهمية والقدرية والشيعة على اختلاف فرقها، والخوارج، و....) ولم يكن ثمة غضاضة في الصراع العلمي بين هذه الفرق، إذ كانت تعقد المناظرات العلمية، والمساجلات الأدبية ، ويعلو التناطح العلمي دون أن يكون له ثمة أثر على مستوى التعايش أو يصل بدرجة ما إلى حالة من التقاتل أو التناحر..

ولم يكن هذا الاختلاف حائلا دون التعايش والتعاون والتعارف.. كما استوعبت حضارة الإسلام ـ الأندلس خاصة ـ تلك العقائد المختلفة معها في الأصول (اليهودية والنصرانية)، وإن كان مهبطها سماوي، كذا استوعبت عقائد الملل الأرضية.. وقد عدد الإمام ابن حزم تلكم العقائد في كتابه الجامع (الفصل في الملل والنحلل)،، وقد استطاع أن يجمع فيه كل أنواع هذه الملل والفرق (سماويها وأرضيها) التي احتوتها ديار الإسلام، والتي تمخضت عنها اختلافات المذاهب العقدية في الإسلام كذلك.. والشاهد هنا هو مدى قدرة ومرونة هذه العقيدة والشريعة الإسلامية على احتواء هذا التنوع الغريب ـ ولكنه إنساني ـ وهذا تحقق عيني لقوله تعالى "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)" [هود].

١. القانون الدولى بين الاستقرار والعدالة (د.يوسف عطاري. مركز الكتاب الأكاديمي).

٢. سيرة الرواية ورواية السيرة (د. مصطفى شميعة).

فقه التعايش والتعارف في المنظور القرآني(٢)

يبقى المعنى الإنساني الآخر الذي صنعه قدوم الإسلام على هذا العالم الذي كان متغيبا سادرا في غياهب الجاهلية الأخلاقية والعلمية والاجتماعية؛ هذا هو خلق (التآلف)، وهو خلق صنعه الإسلام بين أهله، فكان لابد أن يكون ثمة تميز بين علاقة المسلم بالمسلم، وعلاقته بغير المسلم.

فمن قوام العقيدة ووسطيتها أنها لم تفرض التآلف بين المسلم وغير المسلم لكنها جعلت بين المسلم وغيره (التعارف والتقارب والتعامل)، ولا جرم إن نتج عن هذه المقاربة العملية نوع من التآلف(الاجتماعي) وهذا من روح الإسلام لإدناء غير المسلمين، وتأليف القلوب دعوة للدخول في دين الله.

وقد ذكر القرآن من خيرية الأمم السابقة واللاحقة مالا يجعلنا نجحد لهم خلقا محمودا، ولا نغبنهم حقا حتى وإن كانوا على غير ملتنا، حتى وإن كانوا مقاتلين مناصبين لنا في العداوة، فقال"ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى"، وقال عن أهل الكتاب"لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)[آل عمران].

إن هذه الخيرية التي نبهنا إليها القرآن، وأوقف أنظارنا لديها، لتحملنا إلى إعادة تقييم النظرة الإسلامية للغير، حيث تفتح بابا نفسيا للمقاربة والمآلفة الاجتماعية ، والإدناء والإصغاء، والتقارب والتعارف.. إن هذه الخيرية لتحمل أصحابها من خلال الألفة الاجتماعية وحسن المعاملة، والدفع بالتي هي أحسن أن يعيدوا تدقيق النظر، وإمعان البصر في دعوة الإسلام، ومراجعة النفس في هذا الدين الذي لا يأمر إلا مكارم الأخلاق، ويدعو إلى خيرية البشرية وتوطيد المنفعة ونبذ الحرب وتغليب السلم، والسعي في معطيات الحضارة الكونية التي تحمل الخير للأولين والآخرين والبشرية جميعها..

"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر"، لقد مُنع صلى الله عليه وسلم من دخول مكة (معتمرا) في الحديبية، غير مقاتل ولا مشاحن، ولما جاءه سهيل بن عمرو مفارضا، فلما رآه قال لأصحابه "قد سهل عليكم أمركم"، وأخذ يقربه ويدينه و(يكنيه) ويقول: يا أبا حبيب، ثم قال: والله لا يعطوني اليوم خطة يعظمون فيها البيت إلا وافقتهم عليها".

وهو نوع من الدعوة الخلقية التي غزا بها الإسلام كثيرا من أقطار العالم، كما حدث مع القائد قتيبة بن مسلم وجيشه في فتح سمرقند، حين رد القاضي في عهد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه جيش قتيبة بعد دخوله المدينة على حين غرة من أهلها، دون أن يراعي الشروط الشرعية للغزو[الدعوة للإسلام بالتي هي أحسن، أو الجزية للدخول في رعاية دولة الإسلام، أو القتال إن امتنع أهل البلاد عن الخيارين الأولين]..

جاء في كتاب (فقه السيرة) للشيخ الغزالي رحمه الله نقلا عن سيرة ابن اسحق، حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم عقد هذا الحلف والمعاهدة مع اليهود .. جاء في نصها" أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة .. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.. لليهود

دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن ليهود بني النجار والحارث وساعدة، وبني جشم وبني الأوس .. إلخ مثل ما ليهود بني عوف .. وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر، دون الإثم.. وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم وأثم.. وأن الله جار لمن بر واتقى " (١).

كما جاء في كتاب (الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر): " ومن تلك الشواهد ما نحن بصدد شرحه، وهي غزوة الحديبية، حيث عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفا مع قبيلة خزاعة بعد فراغه للتو من كتابة الصلح بينه وبين دولة قريش.

وكان فحوى هذا الحلف؛ أن تقوم خزاعة بنصرة دولة الإسلام الحليفة على دولة قريش الجاهلية إذا غزتها، أو نقضت صلحها معها، وكذلك على الدولة الإسلامية مناصرة خزاعة إذا غزتها قريش أو نقضت عهدها معها، وبالضرورة ليس هذا الحلف أو الاتفاق مقتصرا على الطرفين فقط، بل الباب في ذلك مفتوح لمن شاء من قبائل العرب أو غيرهم أن يدخل فيه "(٢)

لقد خرج الجيش المسلم في موقف مهيب، وفي سابقة لم تعرف البشرية لها مثلا، خرج الجيش المسلم الذي خالفت قيادته نواميس الشريعة، امتثالا لأمر القاضي، وبتصديق من أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز على هذا الأمر .. حتى لم يتمالك أهل سمرقند أنفسهم، ولم يكن يخطر ببالهم أن هذا الحكم متخيل فضلا عن متحقق في عالم الإنسان وأحكام الدول وقوانينها..وقد كان من نتاج ذلك أن دخل أهل سمرقند في الإسلام طائعين.(٣).

لم يشرع الإسلام خلق التآلف بين المسلم وغيره، لأن هذا شأن مختص بالقلب، والقلب أعلم بأحواله، ولم يكن الله ليفرض على الخلق مالا يطيقون .. حتى الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم إن هذا عدلي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك " وهو خلق القلب وحاله.

إن الطبيعة البشرية التي استوعبها الإسلام قد جعلت مساحة من الحرية النفسية التي يتقلب فيها المرء بين نفسه وقلبه، وبين الخلق، فيحب ويبغض، ويألف وينفر، ويقرب ويقلي، لكن أرادت أن يكون هذا كله في الله قدر المستطاع، حتى حينما نزلت الآية "وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله" ، شق ذلك على المؤمنين فشكوا للنبي صلى الله عليه وسلم قائلين"وأينا لا تحدثه نفسه"، فقال : أتريدون أن تقولوا مثل بني اسرائيل (سمعنا وعصينا)، قولوا سمعنا وأطعنا، فلما امتثلوا وقالوا : سمعنا وأطعنا، نزل العفو الرباني يقول"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .... الآية " فكان العفو جزاء للسمع والطاعة، وأحلهم الله من حديث النفس لما علم من صدقهم ومن شقة ذلك على النفوس.

وقد جعل الله كذلك خلق (التآلف) وهو أمر قلبي، جعله بيده، فلم يكلف البشرية من ذلك بشيء، فقال عن المؤمنين " وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)"[الأنفال]، حتى صاحب الرسالة نفسه صلى الله عليه وسلم ، نفى الله أن يكون ذلك التأليف بإمكانه، لما ليس

له من سلطان على القلوب، حتى ولو كان بيده ما في الأرض جميعا فأنفقه، ما استطاع أن يحقق ذلك التأليف، لأن الأمر محض قلبي وروحي فيما ليس لبشر من الخلق عليه سبيل ، حتى ولو كان صاحب الرسالة .. ولكن أمرها بيد خالقها، يقلبها كيف يشاء، كما قال"«إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا» [مسند أحمد وسنن ابن ماجة والترمذي وغيره].

كما قال تعالى : " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)[آل عمران].

والخطاب هنا لجماعة المؤمنين، يذكرهم الله بمنته عليهم ، ونعمته، إذ جعل هذه الألفة بين القلوب عصمة لهم من الزلل ونجاة لهم من النار، وإنقاذا لهم من الهلاك والجحيم ، وعليهم أن يذكروا هذه النعمة ويؤدوا شكر المنعم عليها، وأن كانت لهم سببا إلى الهداية .. ثم يذكرهم بأن هذا آية من آيات الله ؛ كما أنّ خصها بالآية فيه دلالة صارخة على أن الأمر لم يكن لامرئ من الخلق فيه يد، بل كان فضلا من الله ومنة ونعمة.

ومن هنا، وإذا كان القرآن قد جعل خلق التآلف ضرورة للهداية ، وإنقاذا من الضلالة، فإنه جعله كذلك قوام المجتمع المسلم، وعصمته من الزلل، فذكرهم في أول الله "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"، فالله لم يمن عليهم بمنة التأليف بين القلوب إلا لتثمر هذه العصمة واللحمة الإيمانية التي تقيم أود المجتمع المؤمن، وتصلب عوده، وتحميه من المنابذة والمناحرة والمفارقة.. فيقول القرآن:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)"[الأنفال].

إن الخطاب البلاغي القرآن الذي يعدد النداء في قوله "يا أيها الناس" عشرين مرة، ليس خطابا عبثيا ولا عشوائيا إذ يعدد هذا النداء، ويؤكد أن القرآن لم ينزل إلا لخير البشرية جميعها، حتى غير المؤمن به، ففي منهجه هداية ودعوة ورحمة، يتمثل هذا في أعظم سور القرآن "الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم" ، والتي أجمع المفسرون أن صفة الرحيم خاصة بالمؤمنين، وأن صفة الرحمن خاصة بالخلق جميعا.. فالله لا ييأس خلقه من رحمته ، ولا يقليهم عن بساط قربه إن هم أرادا ذلك وأذعنوا.

فخطاب "يا أيها الناس" قاطع بأن هناك مساحة للتقارب والتآلف والتراحم والتعاون والتعارف لإثراء هذا الإعمار الكوني وإكتمال هذه المنظومة الحضارية ، وروح الاستخلاف الكوني الذي أنيط به نزول الإنسان إلى الأرض.

يبقى خلق الحب .. وهو المرحلة الأخيرة المتحققة في عالم القرآن، والمتجسدة عملا وقولا في نبي الإسلام وثلته المؤمنة التي اختصت بتحقيق وتجسيد هذه النفحات الروحية عمليا، وواقعيا ..

١- فقه السيرة (الشيخ الغزالي) نقلا عن سيرة ابن اسحق.

٢- غزوة الحديبية (الجزء الثاني) غريب محمود قاسم

٣- عمر بن عبدالعزيز . عدله وزهده وحكمته (عمرو اسماعيل محمد)

فلسفة الحب والألفة والتعارف

ومن جماليات القرآن وعظمته هذا الارتقاء الشعوري والتوصيف النفسي الذي يراعيه حال التعاطي مع المشاعر الإنسانية؛ فقد جعل الحب في أعلى المراتب وآخرها، حيث قوة هذا الرباط الذي يجمع بين أطرافه أو بين طرفين.. إذ بدأ أولا برحلة التعارف التي تجمع البشرية على اختلاف مللها، وتنوع مذاهبها، وتعدد شعوبها وقبائلها، ثم أوجد التآلف خصيصة بين قلوب الفئة المؤمنة، ولم يكلف بها غير المؤمنين، حتى لا يشق بها على نفوسهم فربما البعض لا يطيق ذلك، ولا تطمئن إليه النفس.

ولم يمنع ذلك من التقارب والتفاعل والتعاطي مع أسباب الحياة وإعمار الكون، ونشأة الحضارة التي تخدم العنصر الإنساني أينما وجدت، طالما أن ليس بها تعارض مع شرعة سماوية، وطالما أنها كانت داعمة للإنسان ودافعة على تيسير العبادة، وتذليل العيش، وترغيب الحياة.

أما خلق الحب فهو خلق مصطفى لفئة من المؤمنين ، جعله الله في قلوبهم ، يرفع به درجاتهم، ويطهر به نفوسهم، ويعظم به أقدارهم؛ لكن الحب الذي يقصد إليه القرآن هو ذلك النوع المكتسب عن فضيلة الإيمان بالله وبرسوله، والذي يطبعه الله في قلوب المؤمنين جزاء على السمع والطاعة، وامتثال الأمر واجتناب النهي، فجعل لذلك منه مكافأة لهم فقال"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)"[آل عمران].." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)"[المائدة].

وكأن المحبة هنا شرط لازم لجلب النصر، وإخلاص النفوس المجاهدة ؛ وكأن هذا الحب إذا تحقق منها لخالقها في بادرة نفسية راقية مخلصة، أو تحقق من الله ربها لها لما أذعنت به لأمره، وأقلعت عما انتهت عنه، كان هذا مجلبة للتوفيق وسدادا ورشادا وهداية.

ويتأتى مع هذا الحب كذلك (الذلة على المؤمنين)، و(العزة على الكافرين)، والغضبة الجهادية لله دون اعتبار أو تخوف من لومة لائم، ولا مداحضة جاهد أ و معاند أو مكابر؛ إنه الاستعلاء الإيماني الذي يخلص القلب لربه، فلا يرى في الوجود شيئا بعده مهما عظم أمره، فهو في أمر الله حقير.

إن هذا الاتباع المأمور به امتالا للشرع والأمر الإلهي ، والمتمثل فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر وما نهى عنه ".....وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)"[الحشر]، هذا الاتباع هو مستوجب الحب من الله، والذي تعهد الله به على نفسه إن أقامه المؤمنون في نفوسهم، ثم يستتبع هذا الحب الإلهي حب المؤمنين لربهم، بأن يجعل مكافأة حبه لهم كذلك حبهم له... فتكون دائرة مؤدية كل منها للآخر[الاتباع، يستوجب الحب من الله، ثم الحب من الله يخلق الحب في قلوب المؤمنين لله ولرسوله]..

كذلك فإن فضيلة الحب تتأتى في قلوب المؤمنين من عطاءاته الثرية غير المحصية، والنعم التي تحيط بالخلق من بين أيديهم ومن خلفهم، وهذا التجلي الربوبي الذي يكلأهم به آناء الليل وأطراف النهار، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم " قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢)"[الأنبياء]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس " «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي» ."[معجم الطبراني وسنن الترمذي وغيره].

لكن ثمة فارق متضح بين هذا اللون من الحب المتولد المتجدد، بين الله وخلقه، وهذه المنة الاصطفائية التي يمن بها على بعض خلقه دون بعضهم، وبين حب الفطرة الذي طبعه الله في قلوب عباده عامة .. فالأولى طائفة الصفوة الذين يتولد حبهم عن الامتثال والاتباع، وعن اصطفائية ربانية، أما الثانية فطبع وجبلة .. والغريب أن الصنف الأول يصير في النفس مطبوعا لا يتغير ولا يتبدل، ولا يزيده مرور الزمان إلا تجددا؛ أما النوع المجبول فهو بعض اتباع للهوى وانقياد لمغالب النفس المفطورة التي تغالب بها صاحبها حتى تغلبه ، ثم ترديه في مهاوي المعصية ، ومدارك الكفران.

هذا النوع الذي تحدث القرآن عن شغف الخلق به ، وانفطار قلوبهم شوقا لتحصيله، ومسارعة بعضهم بعضا، ومنافسة تجلب التدابر والتحاسد والتباغض، قد عدد القرآن بعض صوره، وبعض ما يتأتى منها ومن الحرص عليها فقال جل وعلا حين أراد أن يصور دواخل النفوس وشغفها في هذا الحب المستولي عليها: "وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)"، "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)"، " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)"..

ثم يتحدث عن نتائج هذا الاتباع للهوى، والانصياع لميل النفس وتزيين الشيطان، وما يودي إليه ذلك من المهالك والمهاوي، فيقول"أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)"[الفرقان]، "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)"[الجاثية].

فهذا الحب المتأصل في النفس، المكلفة بالنساء والأموال، والمتع من الخيل المسومة والأنعام والحرث، والذهب والفضة، ومتع الحياة الدنيا، وكنز المال، وحبه لدرجة عظيمة (جما)، هذا نوع من اتباع الهوى إن هو خرج عن القصد المطلوب، والغرض الذي أنزل من أجله، وهو التمتع بما لا يوجب السخط، ولا يخرج عن حد الاعتدال، ولا يقود إلى الشح أو الإسراف، ولا يدفع إلى البغي من جراء الاستغناء " ولاتنس نصيبك من الدنيا.. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.. يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد.. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا.. ". هذا هو حد المباح الحلال والذي لا حرج فيه، ولا ملام عليه حين يسترعي القصد، ولا يخرج عن حد العدل.

أما الخروج عن حد العدل فهو: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)"[القلم]، هذا التحذير والتذكير للإنسان بما يطرأ على نفسه من الغير التي تخرجها عن حد الاتزان ، والتعاطي فيما رخص له،

والتناهي عما نهي عنه، وعما يخرج الطور البشري عن حده الشرعي .. وهو اختبار للنفس صعب وشديد، حين تبتلى بما يسبغ عليها من سوابغ النعم "ليبلوني أأشكر أم أكفر"، ثم يذكر القرآن بأن الشكر مجلبة للزيادة ومرباة للنعمة ، ومطهرة للنفس"لئن شكرتم لأزيدنكم" .. " ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم".

إن الهوى كما جاء في سورة الفرقان لا يقود إلا إلى الضلالة، فيعدو الإنسان المنوط بالتكريم والاصطفاء، يعدو قدره فيمسي كما الأنعام بل هو أضل منها، إذ هي سائمة عاملة فيما وكلت به دونما عصيان أو انثناء، وإذا هو متهون متهور ينسى الأمانة الأولى التي أوكلت إليه ثم أعطى العهد والميثاق بحفظها والقيام عليها"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)"[الأحزاب].

وفي سورة الجاثية ، يتحمل الإنسان جزاء على انقياده لهواه ما لا قبل له بحمله، إذ أصبح مختوما على سمعه وقلبه، وقد غُشّي بصره بغشاوة الهوى ، فلا يسمع ولا يبصر ولا يغني ما كسب عنه من ذلك الختم شيئا!! إنه لجزاء ما أشده على الإنسان وما أثقله، وما كان أجدر به أن يدخل مع الطائفة الأولى التي اجتباها ربها، فأبصرها بعد العمى، وأرشدها بعد الغي، وهداها بعد الضلال.. فلا تسمع ، ولا تبصر، ولا تأخذ ، ولا تدع إلا به.

هذه الفضيلة التي يترقى الإنسان بها من حال التعارف إلى التآلف، إلى الحب.. فينتقل الإنسان منها بالتدرج من المقام الأرضي إلى المقام الإلهي النوراني الذي يصيغ الإنسان على أفضل صورة له، وأعظم غرض خلق من أجله، واصطفي للقيام به، فيجمع بين عمارة الدنيا، وفلاح الآخرة .. فأي حضارة تلك التي تصنع الإنسان هكذا متدرجا متساميا متعاظما على عينها غير حضارة الإسلام؟!!!

الاستعلاء الثقافي في مواجهة (الثقافة الغالبة)

يفند د. إبراهيم السكران في كتابه الرائع: "سلطة الثقافة الغالبة"، تلك التهم التي يرجف بها هؤلاء الذي خضعوا لسلطة المتغلب (الثقافة الغالبة)، وما ابتلوا به من الوقوع قهرا تحت هيمنة هذه الثقافات الغربية، كما يعدد الأسباب التي دعت لذلك ..

وهؤلاء الطغام من البشر الذين لم يتقنوا قراءة ولا دراسة الثقافة الإسلامية، هم مستعبدون بصورة لا إرادية لما سماه الفيلسوف ابن خلدون ب (ثقافة المتغلب)، ولا يملكون من هذا القيد النفسي فكاكا، إذ أن الواقع تحت تأثير حالة مزاجية أو نفسية هوائية كما يقول علماء النفس، يكون من الصعب عليه الفكاك من أغلالها، حتى ولو استطعت أن تقنعه بخطأ معتقده أو تصوره فإنه لا يزال يرزح تحت نير هذا الحال زمنا، ولا يزال مقهورا له إلا أن يحاول ذلك في مدى زمني غير يسير.

يقول الشيخ الغزالي:" ولو تقصينا تاريخ البشر على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه، لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه، أو بمحموم غاب عنه في سورة الأمل رشده، فهو يهذي ولا يدري.

كم سلخت الدنيا من عمرها قل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم؟! لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علما كثيرا، ووعت تجارب خطيرة، ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار، ومع ذلك فقد غلب الطيش واستحكم، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها.

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأحجار والأشجار، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟!

إن الوثنية هوان يأتي من داخل النفس لا من خارج الحياة، فكما يفرض المحزون كآبته على ما حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام أشباحا جاثمة .. كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله، على البيئة التي يحيا فهيا؛ فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء". (١)

وتلكم هي الحالة التي تتلبس بعض مرضى الوسواس القهري، والاكتئاب وغيرها، قد يحتاجون لمرحلة طويلة من الحوارات النفسية العقلية والمضادات العقارية حتى يستطيعوا فقط التكيف مع الحالة النفسية، ثم الخروج منها تدريجيا على فترات.

إن الخضوع لسلطة ثقافية بعد حالة طويلة من الإقناع والتعايش والتلازم والتلبس، حتى ليصير المرء على قناعة مكتملة بما يعتقده، هذا بخلاف ضعف معتقده وفكرته عن مكونه الثقافي الحضاري والتاريخي الذي لم يكن عن إرادة خالصة منه، بل كان خضوعا لفكرة ممنهجة بعضها سياسي وبعضها تعليمي وبعضها استمراء لما نشأ المرء عليه، من ضعف الثقافة الخاصة، وتمدد وانتشار وتفشي الثقافة الأخرى.. وبالتالي فإن المفارقة أو المغايرة تستلزم بحثا طويلا من الدرس والمراجعة، وكذا حال من التجرد الثقافي والانتمائي النسبي حتى يستطيع الإنسان المقارنة والمفاضلة بين ثقافتين.

كذلك تتطلب جهدا طويلا وكثيفا في الشأن الاجتماعي، مما يمكن تسميته ب (المواجهة الثقافية)، وهي أشبه ما يكون بالمواجهات العسكرية أو المخابراتية، بل يمكن أن تكون أشد منها؛ فهي حالة من إعادة هيكلة العقول والأفكار ـ وهذا

أمر جد عسير ـ ولا يتأتى إلا مع بعد الشقة ، وتجشم المخاطر والمصاعب.. خاصة مع شكلية الخضوع العام والمناهج المستوردة المتفشية.

لكننا ـ رغم ذلك ـ قد نجد على الجانب الآخر من هذه الهيمنة الثقافية الغربية، نموذجا متفردا متحققا مثابرا مواجها، هذا النموذج هو الذي يمكن أن نطلق عليه: نموذج (الاستعلاء الثقافي)، وهي ليست مناهضة لفكرة التغلب فقط، بقدر ما هي في الأصل متحققة عاكفة على دراسة وتحقيق وتدوين وتطوير موروثها الثقافي المتولد من الثقافة الحضارية الإسلامية ..

هذا النموذج الذي انفرد في نفسه وبنفسه، ليقوم لهذا الأمر الجلل الذي لا يقوم لمثله إلا العظام الكبار، كما فعل علماء السلف من أهل القرون الأولى، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ إذ عكفوا على العلوم فقعدوا قواعدها واستنبطوا أصولها التي لم تكن مدونة فدونوها، وابتكروا ما يسمى ب (علوم الآلة)، المنوط بها خدمة القرآن والسنة والفقه كعلم (التفسير وأصول التفسير، وأصول الفقه، وعلم الحديث، والبلاغة والنحو، وغيرها..)، فأثروا تاريخنا بهذا التراث العلمي الضخم لم تعرف البشرية مثله، ثم كان منطلقا لمن أراد البناء ممن يأتي بعدهم.

وكما قال د. محمد أبوموسى: "هناك علماء أسسوا المعرفة ـ وهؤلاء على خطى الأنبياء ـ وعلماء لخصوا المعرفة، وعلماء شرحوا المعرفة أو ملخصات المعرفة"(٢)؛ ولك أن تتخيل أن هذه المعارف التي تولدت عن الوحي الإلهي (القرآن والسنة)، منذ بدء نزوله على صاحبه صلى الله عليه وسلم، لا يستطيع العقل البشري حصرها حتى الآن، بل ربما لا تستطيع أن تحصي عدد المكتبات التاريخية التي حوت هذه الشروح المتولدة عن هذه العلوم؛ كذلك لا يمكن للعقل البشري أن يدعي توقف مداد هذه العلوم وشروحاتها حتى قيام الساعة، مع التأكيد على ضرورتها وانتفاع البشرية بها.

لقد ذكر عن (الحكم بن هشام الأموي: ٣٥٠-٣٦٦هـ): "أنه جمع في مكتبته من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، فقد كانت عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب في خزانته العلمية ـ كما روى ابن حزم ـ أربعا وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة (ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط)، وقد أكد ذلك ابن الآبار وابن خلدون والمقري والمراكشي.. وقد أطلق على قرطبة في عهد الحكم "دار العلوم"، لما فيها من المدارس ، إذ بنى الحكم فيها سبعا وعشرين مدرسة جعل تعليمها بالمجان، كما أتم بناء الجامع الكبير وشجع على دراسة العلوم والآداب فيه ، وأرسل البعثات التعليمة إلى المشرق تنسخ الكتب حتى جمع في خزانته أربعمائة ألف كتاب".(٣)

وذكر الدكتور/ محمد بن موسى الشريف، في أحد أحاديثه: أن أحد أمراء آل سعود(الأمير فيصل بن فهد) تبرع بكرسي للدراسة في جامعة (برنستون ـ قسم الدراسات الشرقية) بأمريكا، فقال له أحد الناصحين: لو أنك طلبت

منهم تصوير المخطوطات العربية بمكتبة الجامعة.. قال: فتم تصوير (١٢٠٠٠) اثنا عشر مخطوط عربي.. وهذه جامعة واحدة من إحدى جامعات الدراسات الشرقية في أمريكا وأوربا؛ فكيف بباقي الجامعات فضلا عما حوته جامعاتنا العربية في بلداننا؟!!

وفي كتاب (محاضرات ومقالات في الأدب العربي) قال: وإنكم لتكبرون العرب ما بذلوه من الجهود الجبارة في سبيل المدنية العلم إذا قستموه بما خلفوه من البحوث وما ألفوه من الكتب ، فقد تناولا أصول المعارف الإنسانية بالتقصي الدقي والغوص العميق حتى فرعوها إلا ثاثمائة علم ، أحصاها طاشكبري زاده في كتابه"مفتاح السعادة"، ثم استنزفوا الايام في معاناة الالتأليف على صعوبة النسخ وكثرة المؤونة وقلة الجدوى، فتركوا للعالم ذلك التراث الضخم الذي اشتملت عليه مكاتبهم في الشرق والغرب، فقد ذكر (جيبون) في كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان في طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوي ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الفرنج سنة ٥٠٢هـ.

وقال المقريزي: أنه كان في خزانة العزيز بالله الفاطمي مليون وستمائة ألف مجلد نزل بها ما نزل بمصر من الأحداث ، فأغرقت في النيل أو ألقيت في الصحراء تسفي عليها الرياح حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب.

ويقول: "ولاحظ بهذه المناسبة أن (شارل الحكيم) الذي اعتلى عرش فرنسا ١٣٦٤ أي بعد خلافة الحكم الثاني الذي حوت مكتبته بقرطبة (أربعمائة ألف مجل فيها أربعة وأربعون للفهرس)، حاول شارل أن يجمع في مكتبته في باريس بعد تأسيسها، أن يجمع الكتب فلم يستطع أن يجمع إلا (تسعمائة مجلد)، ناهيكم بالثمانين ألف مجلد التي دمرها (كيمينس) في ساحات غرناطة وبما أحرقه التتار في بخارى وسمرقند، وأغرقه هولاكو في بغداد عاصمة العلم والعالم في ذلك العهد".(٤)

وقد تجاوزت مؤلفات كثير من علماء المسلمين الأوائل المائة مؤلف فضلا عمن زاد منهم عن زاد، فقد ألف السيوطي رحمه الله (٧٥٠) أكثر من سبعمائة وخمسين مؤلفا في كل فن من الفنون ، ومثله ابن تيمية أو يزيد عليه، وابن جرير الطبري (شيخ المفسرين) الذي ذكر أنه قال لتلاميذه: أننشطون لكتابة التفسير ـ على أن يمليهم من حفظه وذاكرته ـ فقالوا في كم من الصفحات، قال: في ثلاثين ألف صفحة، فقالوا: هذا مما تفنى دونه الأعمار، فقال: خارت الهمم، ثم اختصره فيما يقارب ثلاثة آلاف صفحة بعد ذلك.

وألف ابن حزم رحمه الله (أربعمائة مجلد)، وكذلك ابن القيم وابن كثير، فضلا عن شروحات الكتب مثل كتب الفقه والحديث الذي أملاها العلماء من حفظهم فيما زاد عن الأربعين والخمسين مجلدا في شرح البخاري ومسلم وكتب الفقه والحديث والتفسير.

إن ادعاء مجرد المقارنة بين منتج الثقافة الإسلامية (العقدي، والتشريعي، والمعاملاتي، والأدبي، واللغوي، والأخلاقي، والروحي، والعلمي، والعلمي، والتاريخي)، وبين منتج ثقافي مغاير من مثل الثقافة الأوربية الحديثة ، أو اليونانية ، أو الهندية، أو الفارسية، أو الصينية؛ أو بين هؤلاء مجتمعين وبين ثقافة الإسلام لكمن يطاول الأرض بالسماء، أو الكواكب بالشمس، أو المحدود بالمطلق!!

لقد ظهر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تلك النابتة التي أنبتها الاستعمار، وخلفها عامدا من ورائه تزعم أن الثقافة الإسلامية يلزمها أن تطوي صفحتها وأن تترك المجال للثقافة الأوربية الصاعدة، وأن الزمان أصبح غير منضبط مع ثقافة عفا عليها الزمان وانقضى دهرها، ومن دعا إلى اعتناق الثقافة الغربية كان منهم : سلامة موسى، ولويس عوض، وطه حسين، وزكي نجيب محمود، ولطفي السيد، وقاسم أمين، وفرح أنطون ، وشبلي شميل.. وغيرهم ممن أسقط في أيديهم، واحتوشتهم الثقافة الغربية ببريقها وزخرفها التي يوشك أن يأتيها أمرها ليلا أو نهارا فتصبح كأن لم تغن بالأمس.

وقد جد في مجابهة هؤلاء ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، لم ترعهم استطالة أمد هذه الثقافة الطارئة ، ولم يخطفهم بريقها، بل كانوا على ثقة وثبات وطمأنينة من أصالة معدنهم، وقوة سطوتهم، واستعلاء ثقافتهم ... فراحوا يحيون ما اندثر من أمرها، وعلومها ولغتها.. كان على رأسهم المؤرخ العظيم (الجبرتي)، الذي كان آخر شيوخ المؤرخين العلماء، ثم جاء من بعده نابتة الحضارة الحديثة (الشيخ محمود شاكر وأخيه المحدث: الشيخ أحمد شاكر، والرافعي ، والزيات، والعقاد، والمنفلوطي، والبرهان، والبارودي ، وأرسلان، والشدياق، وعبدالله دراز، ومحب الدين الخطيب، ومحمد محمد حسين.. وغيرهم كثر..)، إذ أيقنوا أن هناك لايزال أمل في إحياء التراث الإسلامي، وتقديمه على رؤوس الأشهاد.

إن القرآن يذكرنا دوما بهذه العلوية (الدينية والثقافية والعلمية)، على من سوانا ويؤكد عليها دائما فيقول: "هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)"[آل عمران]، وكذا ينهانا عن الحزن والهوان والخضوع والاستسلام أمام أي وارد ثقافي أو ديني مهما كان زهوه أو بهرجه أو تجييشه.. إنه يزرع الثقة في نفوس أصحابه بما لا يدع مجالا لمناوأتهم في أي ميدان من الميادين حتى لو أجلب العالم عليهم بخيله ورجله"الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)"[آل عمران].

ويعلمنا القرآن أن الهزيمة النفسية هي البداية أو الهزيمة الحقيقية على كل مستوى من المستويات، حين يطرأ في قلب المؤمن الشك في منهجه، أو في علويته، أو في استعلاء القادم البشري عليه مهما كان بريقه واستهواؤه، وانظر قول ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم الفارسي بلسان الاستعلاء الإيماني والثقة فيما من الله عليهم به "نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

وهذا قول جعفر رضي الله عنه للنجاشي ، وقد عزم وعاهد الله ألا يقول إلا الحق حتى ولو جرهم ذلك أن يطردهم النجاشي من بلاده استجابة لطلب عمرو بن العاص، ولكن فضيلة الصدق والثقة فيما في أيديهم من الحق كان سببا في ميل النجاشي إليهم وتأمينهم على أرواحهم ونفوسهم، بل ويتعهد لهم ألا يطالهم أحد في بلاده بسوء.. قال جعفر:

" أيها الملك كنا قوماً على الشرك: نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره.. فقال النجاشي: هل معك شيء مما جاء به– وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله– فقال جعفر: نعم، قال: هلم فاتل علي ما جاء به، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص).. فبكا والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة الذي جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين، لا والله أردهم عليكم ولا أنعمكم عيناً" (٥)

أما تلك هي الهزيمة التي أصابت طائفة من العرب والمسلمين فجعلتهم ينادون بتحديث الثقافة الإسلامية على النمط الغربي الاستهوائي، والانفتاح عليها بما يجعل التراث الإسلامي مرحلة تاريخية منقضية، ولم يعد لها صلاح في المرحلة الزمنية الراهنة.. فهذا هو الخطأ التاريخي والمنهجي الذي يدفع المرء للانسلاخ من ثقافته مستبدلا بها أخرى لا تصلح لزمانه ولا مكانه ولا أحواله"والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين".

١. فقه السيرة (الشيخ محمد الغزالي)

٢. محاضرات د. محمد ابوموسى(الرسالة البلاغية)

٣. ابن حزم وجهوده في البحث التاريخ والحضاري(د. حسين مؤنس).

٤. في أصول الأدب . محاضرات ومقالات في الأدب العربي(أحمد حسن الزيات).

٥. سيرة ابن اسحاق

ربما كانت الفكرة السينيمائية الأقرب إلى الحقيقة من غيرها في الأدب الأوربي؛ ذلك من خلال روايات بعض الكتاب الذين شهد لهم بالنزاهة والحصافة والمصداقية في مدى انعكاس الواقع التاريخي على كتاباتهم ؛ من أمثال هؤلاء الرواد (فيكتور هوجو ، تشارلز دكنز، الكسندر دوما، هيمنجواي، وشكسبير)..وذلك حين تصور حقبة العصور الوسطى، أو ما يسمونه ب (العصور المظلمة) في الحقبة الأوربية التاريخية.

وفي أحدى روائع أحد هؤلاء الملهمين (فيكتور هوجو) وهي الرواية المشهورة (أحدب نوتردام): يعكس الكاتب صورة قد تكون مجسدة للواقع التاريخي إبان ما يسمى بالعصور الوسطى الأوربية التي غابت فيها مجموعة القيم الإنسانية (الدين والعدالة والإنسانية والخير وعلى رأسها جميعا العلم) ..

هذه الفترة التي غيب فيها الإنسان، وانقطع حبل الوصال بينه وبين السماء، ولم يبق له في الأرض من قيمة سوى هذه التي كانت تمليها عليه (سدنة الدين وكهنته) من البطاركة والقساوسة ورجال الدين المسيحي الذين احتكروا طرق العلم وأوقفوها على ذواتهم، وحالوا بين الناس وبين هدي السماء، ولم يسمحوا لهم سوى بهذه الهرطقات والخزعبلات التي دسوها في عقولهم فكانت هذه الصورة المشوهة للإنسانية التي جسدت في هذا الأحدب(أحدب نوتردام).

هذا الذي سماه الكاتب (كوزمنودو) والذي عنى به (نصف إنسان)، أو (بقايا إنسان).. وهو ما يرمز للإنسان حين يغيب عنه عنصر العقل، ويحال بينه وبين العلم الذي هو مفطور عليه قبل الخلق وبعده، بل ويحال بينه وبين أن يتعرف على ربه الذي خلقه وفطره وسخر له الكون بما فيه.. دون أن يكون ذلك عن وساطة من احتكروا هذا العلم واعتبروه حقا إلهيا اختصم الله به، رغم ما أخذ على جنس الإنسان من العهد والميثاق بالاضطلاع به، والسعي في تحصيله، لإقامة حضارة الاستخلاف التاريخية التي أوعزت إليه بها الألوهية حين أهبطه إلى الأرض.

ولا يخفى على أدنى معاين للتاريخ ما صنعت المحاكم الأوربية (محاكم التفتيش) في أسبانيا وفرنسا وانجلترا وفي أنحاء أوربا، ما صنعت بالمسلمين وغير المسلمين حين أرادوا النظر في الكتب والبحث في الفلسفة والعلوم، والتهم التي كانت تكال لمن يقوم بذلك من (السحر والهرطقة والدجل والشعوذة والكفر ..)؛ وما كانت تعده الكنيسة لهم من صنوف القتل والتعذيب والتحريق على الملأ، ومثال (جان دارك ، وجاليليو ، وكوبرنيقوس وغيرهم) خير شاهد صارخ على ذلك.

"كانت هناك إذن الدين (الكهنة) من جانب ، وكانت هناك البشرية من جانب آخر، وأرادت هذه البشرية أن تقف في وجه الدين، وأن تستقل بنفسها في وضع أصولها وقواعدها، ونظمها، وأن تنتهي في النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحي التي تتعلق بالجانب الروحي". (١)

وما زال الكهنة يمعنون في هذه الغيبة العلمية والتاريخية عصرا إثر عصر، وزمنا تلو زمن حتى جاءت هذه الانتفاضة التاريخية التي ظلت تعمل أيديها في خفاء، وتعد لهذا الإمر إعدادا .. وما كان ذلك إلا تمثلا لصدمة حضارية تاريخية

تأتت من الاتصال المباشر مع الحضارة الإسلامية في إسبانيا (الأندلس)، وصقلية ، والأستانة ،، وهذه الحروب التاريخية فيما يسمى ب (الحروب الصليبية).

يتحدث أ/ أنور الجندي عن الحضارة الفارسية فيما قبل الإسلام، فيقول بعدم الكلام عن تعدد الآلهة (الخير والشر) و (النور والظلام)، وهذه الحالة المزرية التي يتصارع فيها الآلهة "وهناك ستة آلهة من بين مساعدي مزدا"، ثم يقول:

"وهناك نظام العبودية وروح القبيلة والهوة التي تفصل بين الطبقات ؛ فالقوي يظلم الضعيف، وهم يرتكبون كثيرا من القسوة والوحشية فيما بينهم، بالإضافة إلى تسلط القواد والحكام..

وقد وصفهم المؤرخون بأنهم قساة عتاة ، متكبرون بغاة، يمشون الهوينى بخطى متحيزة، يدعون لأنفسهم حق الموت والحياة على عبيدهم.. ثم يقول : وأبرز مظاهر المجتمع الفارسي قبل الإسلام: النظام العبودي، حيث تقف طبقة الفلاحين والصناع موقف الاحتقار، وتقوم الارستقراطية الاقطاعية مقصورة على أفراد الأسر السبع العظيمة وحيث يورث الأشراف وتورث العبودية".(٢)

ثم يقول عن الامبراطورية الرومانية "أما الامبراطورية الرومانية فكانت مثلا للنظام العسكري الوحشي، وإهدار الدماء والإفراط في عبادة القوة وتحكم الطغاة والمستبدين، وقيام عبادة الامبراطور والعبودية الكاملة للقطيع المجند للخدمة تحت القيود والأثقال، إلى فساد أخلاق السادة وإغراقهم في الخلاعة والفسق وانغماسهم في الترف والملاذ".

"وقد وث الرومان عن الإغريق النظام الطبقي في المجتمع والتفاوت في الاعتبار البشري بينالأفراد فيه ، وكانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده، وفي سبيل الترفية عن فئة ممتازة .. لم ير الرومانيون في عنفهم سوءا ولا في ظلمهم انحطاطا، وأن العدل الروماني الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم"(٣).

لكن الغريب في الأمر، والمثير للعجب، هذه النقلة الحضارية ، والقفزة التاريخية التي قفزتها الحضارة الغربية وقد كان أولى بها أن ترتقي بشأن هذا الإنسان المكرم، وتضفي عليه من حلل التكريم ، ومحافل التقدير والتعظيم ما هو جدير به، حيث هذه النقلة الهائلة التي قفزها العقل البشري، واستحق بها الإنسان أن يتبوأ منزلة من التكريم والتحفيل في الحضارة الحديثة .

اللافت في الأمر أن الحضارة الحديثة، رغم هذا الزخم التاريخي إلا أنها انحطت بالإنسان من سيء إلى أسوأ ؛ فقد انتقلت به من عالم العنصرية البغيضة، والتفرقة المقيتة بين الإنسان وأخيه الإنسان، واستعباد بعض البشر لبعض، وهذا التفاوت الطبقي الذي يسخر الضعيف للقوي، والفقير للغني، ويقسم الحالة الاجتماعية إلى (سادة وعبيد)، وملوك وسوقة.

لقد طلعت علينا الحضارة الحديثة بهذا التصور البحثي العلمي الذي أزرى بالنوع الإنساني قاطبة ، لا ببعض جنسه، فأرجع أصله ـ حسب تصور الفلسفة المادية ـ إلى الصورة الحيوانية المسلسلة المتطورة من فصائل القرود والشمبانزي، وأن هذا النوع قد ارتقى حسب النمو الطبيعي، من حال إلى حال، ومن عقد عصبية بسيطة إلى أشد تعقيدا حتى وصل إلى هذه الحال التي نراه عليها.

كما نفت الفلسفة المادية عن الإنسان أي خيرية يمكن أن تصطفيه، أو تميز يمكن أن تضفيه عليه شريعة سماوية، أو علم أرضي؛ بل هو (الإنسان) مخلوق للطبيعة متماه مع كونيتها، لا يخرج عن مكوناتها المادية ، ولا يميزه عقل ولا علم ولا تفضيل خلق، بل هي مجموعة من الوظائف البيولوجية ، والخلايا العصيبة (الأشد تعقيدا) التي ميزته الطبيعة بها عن غيره، وليس هذا من قبيل التكريم ولا التفضيل ولكنه محض تمييز عن غيره، ولا يعدو أن يكون كذلك لا يصل بدرجة ما إلى الاصطفاء أو الانتخاب.

وهذا تفسير وتفنيد نقلا عن د. عبدالحليم محمود لما أفرزته الحضارة الحديثة ، يقول: "إذن لجأت الحضارة الحديثة فيما وراء الطبيعة إلى العقل، ولجأت في الأخلاق إلى الضمير: فالعقل هو الذي يؤسس ما وراء الطبيعة، والضمير هو الذي نرجع إليه الأخلاق.

ولكن تخبط العقل، لأنه يختلف من إنسان لآخر، ومن بيئة لأخرى، ومن زمن لآخر، ومن مكان لآخر، ومن ثقافة لأخرى.

وأخذ الضمير من جانبه أيضا يوحي بإيحاءات مختلفة: فالضمير ليس إلا أثرا للبيئة وللثقافة وللوسط الذي يعيش فيه، ليس الضمير معصوما قط، وإنها لفكرة خرافية كون الضمير معصوما؛ والضمير إذا تخلص من سيطرة الدين فإنه يوحي بالفساد، كما يوحي بالصلاح لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامي وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح".(٤)

ثم يقول الدكتور/ عبدالحليم محمود "راى رجال الحضارة الحديثة ، أن يلجئوا إلى شيء يبعد عنهم وصمة العجز، فلجأوا إلى فكرة ((التطور)) الإنسان المتطور، الأفكار متطورة، وإذن المسألة ليست خطئا صريحا، وإنما هي مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار وفيما يتعلق بالمعاني.. وما دام هناك قانون للتطور إذن لا غيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا في كل مرحلة من مراحلهم".(٥)

فأين كل هذا التخبط والتجهل والتحرر من هذا التكريم الإلهي الذي أوجد الإنسان مكرما " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)" [الإسراء].. ومن هذا التنزيل الذي حمل معه خريطة الإرشاد والرشاد في الكون لئلا يضل العقل البشري ولا يشقى، وهذا "الروح من أمرنا"، وهذا "الصراط المستقيم"؟!!

يقول روجيه جارودي:" ومن الجائز أن نميز في تاريخ البشرية مراحل أساسية ثلاثا، مرحلة تتجاوز فيها قدرة الطبيعة قدرة الإنسان، ومن ثم ينبغي على الإنسان أن يقاتل وينافح لمجرد البقاء، ومرحلة تجاوز قدرة الإنسان قدرة الطبيعة، وأخيرا المرحلة التي نعيشها منذ منتصف القرن العشرين وفيها تجاوز قدرة الإنسان طاقة الإنسان..

ونحن في المرحلة الأخيرة التي لا تكاد تبدأ، ما زلنا لا نعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية، ولا أن نسيطر على وسائلنا.. إن حضارة تقوم على هذه الموضوعات الثلاث:

تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك.

تحيل الفكر إلى الذكاء.

تحيل اللانهائي إلى الحكم ... إنها حضارة مؤهلة للانتحار، انتحار لفقدان الهدف، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى".

ثم يقول:"ولكن ما تدعوه مجتمعاتنا الغربية تطورا أو نموا ، إنما يعرف بمعايير أضيق، وهي معايير وحيدة الجانب، معايير اقتصادية (الازدياد الكمي) في الانتاج أو الاستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنساني أو إلى صفة الحياة". (٦).. وهكذا هي قيمة العنصر الإنساني كما تصوره الحضارة الغربية؛ حضارة ما بعد النهضة والطفرة العلمية.

لقد أرهق الإنسان نفسه وجنسه حين أراد أن يخرج عن ناموس التشريع الإلهي بدعوى إجحاف الكنيسة في العصور الوسطى، وفساد إدارتها، وخبث طويتها التي حملت الناس على ما لم يأذن به الله، ولم يرد به شرع أو كتاب ؛ بل افتراء من عند أنفسهم ما كان لهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فيحولوا بين الناس وبين خالقهم، ويجعلوا من أنفسهم سدنة وحفظة وحملة لعلم، لم ينزل به كتاب، ولم يرد به شرع، ولم يحكم به الله .!!

لكنه خرج (الإنسان) من ربقة التخلف العلمي والتراجع الحضاري والتسلط الكنسي، إلى ربقة العلم والفلسفة والهيمنة على الطبيعة والاغترار بما عنده من العلم، وهو ـ إن فطن ـ مهما بلغ لم يبلغ من العلم إلا قليلا.. وقد خرج من ربقة إلى ربقة، ومن قيد إلى قيد .. ولم يتمكن أن يحرر نفسه من كل ذلك بالخضوع لرب كل ذلك والانقياد لله الواحد القهار.

إن العقائد الفاسدة، والشرائع الباطلة التي افتريت على الله كذبا، وحكمت الناس ظلما وعدوانا، وأخضعت بعضهم لبعض قهرا واستعبادا، ما كانت إلا جناية شر على البشرية إذ حملتها أن ترفض الدين بكليته، ما أنزل منه بحق وما لم ينزل، ما أذن به الله ومالم يأذن، وقد تولى الملوك والكهان كبر هذا الأمر فحملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم بغير علم.

ثم جاء الإسلام فاخرج الناس من ربقة العباد، إلى ربقة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ظلمات الجهالة التي حملتها وأورثتها القرون الأولى، إلى نور الإيمان والهدى والرشاد.

" وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)"[الشورى].

١. الإسلام والعقل (د. عبدالحليم محمود).
٢. الإسلام والعالم المعاصر. بحث تاريخي حضاري (أنور الجندي)
٣. نفس المصدر
٤. الإسلام والعقل (د. عبدالحليم محمود).
٥. نفس المصدر
٦. حوار الحضارات (روجيه جارودي).

حضارة القرآن والإنسان

ليس الإنسان هو هذا الكائن الذي طرأ على الأرض بلا هوية ـ كما يدعيه الماديون الطبيعيون ـ عن طريق الصدفة، ولا خلفية ولا إعداد ولا تأهيل مسبق، ثم شرع من خلال مجموعة مكونات متميزة نسبيا في التكيف الطبيعي، على حال من التجاذب والتنافر، والصراع بينه وبين هذا البساط غير المتصور له (الكون والطبيعة).. فانغمس في هذا الصراع بهذه الخلفية الذهنية العشوائية المضطربة حتى غدا صانع الحضارة البشرية المتراكمة، ومفجر طاقات الكون الكامنة.!!

أي عقل هذا؟ بل أي سفه يمكن أن يدعي مثل هاتيك الادعاءات، بل أي حمق يمكن أن يصدق مثل هذا الخرف الجدلي الذي لا ينطبق مع أبسط مقومات العقل الذي استعمله الإنسان للوصول إلى مرحلة الحضارة، مرورا بهذه المراحل من الهمجية والتيه والضرب العشوائي في جنبات الأرض حتى يخرج إلينا بهذا ال (أحسن تقويم)؟!!

إن العقل البشري الطبيعي لا يمكن أن يقر بحال من الأحوال هذه النمطية العشوائية المشوهة في التعاطي مع مهامه الحياتية، على كافة المستويات (العلمية أو السياسية أو العسكرية .. أو غيرها من المهمات)، إنه يبذل أقصى ما وسعه، وينتخب أفضل ما لديه من المقومات الإنسانية حين يختار أحدهم لمهمة عظيمة على أي المستويات.. فكيف يقنع أن يكون الإنسان طارئا عشوائيا على كون غير معد لاستقباله.. وكيف يتصور أن يكون على استعداد وتأهيل لهذه المهمة المعقدة أيما تعقيد، ثم ينجح في إخضاع هذه المفردات الكونية وتسخيرها على وجه من المثالية غير المتصورة.

هذا ملخص الخرف الفلسفي الغربي الذي يزري بالعقل البشري لدرجة أن يجعل من العشوائية كل هذا الإبداع، ومن البدائية كل هذا النمط التعقيدي المنظم على وجه معجز، ومن الصدفة المستبعدة رياضيا وعلميا وحسابيا كل هذا الإبهار الذي يتراءى في الكون.. ثم يقول بكل صلف: (لا إله)!!

أما الصورة القرآنية العقلانية: فهي التي لا يتخلل الباطل فيها أو في بعضها شيئا أو بعض شيء؛ إنها التحقق المعجز المبهر الذي يصوغ ويسوق خبر هذا الكائن بكل دقة من تفاصيل وروده، وقبلها تفاصيل وجوده وخلقه، ومهمة استخلافه، وكيفية إعداده النفسي والعقلي وتصنيعه على عين الإله الخالق، بنمطية من التميز المعجز التي أعجزت الملائكة، وأسجدتهم إذعانا لطلاقة هذه القدرة الخالقة المنشأة لهذا الكائن العجيب.

إن ازدراء العقل الإنساني في تصور التركيب الإنساني الأولى والبدائي، لهو المعول الرئيسي الذي ينسف الفكرة المادية والطبيعية لماهية هذا المخلوق، فهل يعقل أن يكون الإنسان على هذا النمط من التميز الجيني والنفسي والروحي والجسدي الذي أقرته كل الوسائل العلمية الحديثة ، ثم يقذف بهذا الادعاء المختل ليقول أنه لم يكن قبل شيئا مذكورا من هاتيك المعطيات.

ربما يتصور أن لم يكن له وجود، وأنه جاء متأخرا بعد خلق السموات والأرض، والطير والوحش والجن؛ لكن يستحيل تصور وجوده على هذا النمطية العجيبة التي تحول دون استمراريته على الأرض، وتمنعه من تجاوز هذه المفازات والأطوار الحياتية التي تستلزم بالضرورة عقلا واعيا، وقلبا عاقلا، ونفسا مدركة لما تأخذ وتدع، حتى يستقيم لها الكون على الصورة المشرقة التي تتراءى أمامنا من العجب والإبهار.

لقد وصف القرآن الإنسان كما لم تستطع فلسفة ولا عقل ولا كتاب سابق أو لاحق أن يوصفه؛ فقد ذكر قصة الخلق الأولى التي أعد فيها الإنسان إعداد قيّما لتكون له مهمة الاضطلاع بالخلافة في الأرض، وأنه قد تعلم الأسماء كلها التي علمه الله إياها توطيدا وتأهيلا لهذه المهمة المعقدة.. فكان هذا استحقاقا لسجود الملائكة وإكبارهم لقدرة الخالق التي أودعها هذا الخلق العجيب.

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)"[البقرة].

إنه لم يكن بمقدوره القدوم على هذا الكون بهذه الفرضية اللاعقلانية التي يزعمها الماديون؛ إنما كان لزاما له هذا التكون المبهر المذكور في الآيات السابقة: من العلم بالأسماء والأشياء والمفردات واللغات وكيفية تركيبها وتكوينها وكنهها واستخدامها.. هذا أمر جد عظيم أمر الورود على الأرض والتمكن فيها؛ ثم هذه العلاقة بينه وبين الملائكة وتعريف كلا الطرفين بالآخر، والتعريف بمهمة كل طرف في هذه الرحلة التي يقدمون فيها على الأرض، وما ستحوطه به الملائكة من العناية والرعاية والتعليم، وما سيقومون به من حفظ الكون وتدبيره بأمر خالقه.

ثم هذه العلاقة المتشابكة التي قفزت إلى حيز الوجود بينه وبين (الشيطان)، هذا الذي توعده فجأة وأبى السجود له، ثم توعد ذريته بالغواية والإضلال، والإدلاء والغرور والتزيين والحمل عليهم بالخيل والرجل والمشاركة في الأموال والأولاد، ووعود الغرور الكاذبة حتى يوردهم موارد التهلكة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم هذا الباب الذي فتح له من أبواب الرحمة والعناية والوقاية .. وهو باب (التوبة) الذي علمه الله بعد العصيان الذي وقع في الجنة، وما استحق على أثره من النزول إلى الأرض لممارسة تلك المهمة الحياتية القاسية حتى نهاية الكون والحياة، ويوم القدوم على الخالق للعرض والحساب.. لقد كانت أعظم منة على الإنسان أعطيها هي هذه التوبة التي أتاحت له فرصة الرجوع والتطهر، رغم التقلب والتغير، والصعود والهبوط؛ إذ جعلته في حرز من كيد عدوه اللدود؛ إذ كلما وقع في المعصية أدرك أن هناك بابا يدعى باب التوبة، هذا الذي لا يقنطه ولا ييأسه، فيحيا بين الخوف والرجاء، والحسنة والسيئة ، والمعصية والتوبة حتى يلقى ربه.

"قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)"[طه].

وأما هنا في سورة (طه)، فهو يذكر بحال المنهج العلوي الذي تعهد الإله بتنزيله، ليكون هداية ونبراسا وعلما ورحمة لهذا الكائن الهابط من جنان السماء، إلى شقاء الأرض وعنتها، فلا يكون له بقاء روحي ولا جسدي إلا بهذا المنهج العلوي الذي فيه توصيف لطريقة الحياة ، ومنهاجا لمزاولة العمل فيها، واتصالا دائما بالملأ الأعلى، وضمان الحياة على الوجه الرائق والناعم وفقا لهذا المنهج.

وفي المقابل هو الشقاء والكدح والعنت حال الإعراض عن ذلك المنهج(معيشة ضنكا)، وفي الآخرة هو القدوم غير المرحب به "لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار"؛ فإذا كان النزول بآية وأمر وحكمة ، فإن الاستمرار في الكون على الأرض لا يكون إلا بمنهج متبع، وهدى يستقيم عليه.

ولقد ظل هذا الاتصال بين الأرض والسماء قائما بهذا المنهج المنزل من قبل الخالق الذي تعهد بحفظ خلقه من الكون والإنسان، وعلم أن هذا الخلق العاقل المختار(الإنسان)، لا يصلح إلا بمنهج ولا يكتمل إلا برسالة السماء الدائمة.. فجعل هذه الصلة باقية غير منقطعة عن طريق (الرسول) البشري الذي يتلقى أمره ومنهجه من الرسول العلوي(جبريل)؛ وكلما حادت البشرية عن الطريق المستقيم، وشق عليها ممارسة الحياة على الوجه القويم، وتاهت من أيديها وأحلامها لغة السماء، كلما جددت السماء العهد إليهم لتردهم إلى صراطها المستقيم.

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)"[البقرة].

ومن هنا كان امتداد الإنسان المسلم المتصل بالسماء، كان هو صاحب الحضارة الأصيلة، والتاريخ الحقيقي الذي حفظ البشرية هذا الردح الذي استمرت عليه على الأرض، وأتاح لها إقامة هذه الصورة الحضارية المثالية التي ظل فيها رباط قائم متصل بين الأرض والسماء.

وربما نستشف اختلاف محور (الفكرة الحضارية) في النموذج القرآني عن غيرها من النماذج والثقافات.. الفكرة الحضارية في القرآن محورها هو (الإنسان) ذلك الذي كرم وخلق في أحسن تقويم وفضل على كثير من غيره من الخلق، ثم إن عملية الإعداد التي تمت له لاستقبال هذا المحفل الكوني العجيب مكنته من إدارته على الوجه الذي يحفظ كلاهما.

أما الفكرة الأخرى ـ خاصة في الحضارة الغربية ـ فهي التي جعلت المادة محور الكون، وجعلت الإنسان تابعا لها يدور معها في فلكها، وكأنها (الطبيعة) أمه التي ولدته وأرضعته وعلمته؛ وكأن لم يكن خالقا ولا موجدا ولا مهيمنا على هذه القوة الطبيعية الكونية التي يحيا في ظلها الإنسان.

الاتصال التاريخي بالحضارة الإنسانية

إذا كان التاريخ يصنع في حلقات تاريخية متصلة بعضها ببعض، تبدأ ثم تنتهي ثم تبدأ غيرها من جديد، فإن النظرية الإسلامية التاريخية لا تقف من التاريخ هذا الموقف، إذ التاريخ كما تراه هو في تطور رأسي وأفقي معا، وهو على اعتقاد المسلمين تطور رأسي يبدأ من حيث نزول الإنسان على الأرض، وربما قبل نزوله.

فقد حكى لنا القرآن قصة الخلق الأولى لآدم في الجنة وإسجاد الملائكة له، وما حدث من حسد إبليس وحقده، وأخذه العهد على ربه في التعرض لآدم وذريته، بالغواية والفتن "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)"[الإسراء].

إن النظرة المادية إلى حقيقة التكون الإنساني والتطور المرحلي له، لا تمت بصلة إلى النظرة الإسلامية التي يتلوها القرآن ليل نهار على أسماعنا؛ فالصدفة والمفارقة لم تكن لتصنع يوما ولا تستطيع أن تشكل قلامة ظفر، ولا محض خلية متكاثرة في أي لون من ألوان الكائن الحي البسيط أو المعقد، فكيف بهذا الإنسان الذي نقل إلينا القرآن خلقه وتصويره ومراحل تكونه، وعلمه الذي اختص به حتى يكون أهلا لما حمل من الأمانة والتكليف؛ وكذا عقله الذي أودع فيه ليتيح له السياحة في هذا الكون..

"إن الانتقاء والانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يكون قد منح الإنسان المتوحش دماغا يفوق بها دماغ القرد إلا بدرجات قليلة ، بينما يمتلك هذا الإنسان في الواقع دماغا لا يقل إلا قليلا عن دماغ الفيلسوف.. إن خلق الإنسان يمثل ظهور مخلوق أصبحت فيه القوة الغامضة المدركة التي ندعوها (العقل)، وهي ذات أهمية تفوق بكثير مجرد بنيته الجسدية" هكذا تحدث (والتر والاس) عالم البيولوجيا والانتقاء الطبيعي في رحلته لإثبات نظرية التطور. (١)

ومن هنا فالنظرة الحضارية الحقيقية لا تختص إلا بالإنسان الحقيقي (المؤمن)، وليس الإنسان المزعوم المخترع تكونه من اجتماع عدد من الخلايا الطبيعية المخلقة ـ أي طبيعة خلقتها ـ والتي اضطردت مع مراحل الحقب التاريخية لتشكل من جزيئاتها البنيوية هذه التكونات العجيبة التي شكلت هذا الكون العجيب بمخلوقاته غير المحدودة والمعدودة.. إنها لردة حضارية لهذا العقل البشري الذي ينمى إلى علمه كل هذا التكريم الأولى قبل الخلق وبعد الخلق، وقبل الهبوط إلى الأرض وبعده؛ ثم يأبى إلا أن يتصاغر حتى يزري بنفسه في هذا الدرك الأسفل من الانحطاط الخلقي والخلقي!!

لمّا شاء الله لهذا الكائن الهبوط إلى الأرض، أوكل به الملائكة حفظة ومعلمين ، يبينون له ويفصلون كل تفصيلة في الكون، وكيف يتعايش معها، كما جعل له منهجا قويما يصله بالسماء أينما حل، ووقتما نزل آناء الليل وأطراف النهار؛ هذا المنهج لم يكن ليشقى به أو يضيعه طالما ظل ملتبسا به، مستمسكا بحبله.

وهكذا بدأ آدم رحلته الكونية متعبدا لربه الخالق الرازق، يقدره حق قدره، ويعرفه حق معرفته حسب ما أوحى إليه من علم، وما أودع في فطرته الأولى من الأسماء كلها؛ ثم جاءت ذريته من بعده محتذية حذو أبيهم حتى وصل الأمر إلى نوح فانحرف الناس عن الصراط ناكبين، متناسين أو ناسين ما أنزل إليهم من الوحي والعلم.. "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)"[البقرة].

إن القصص القرآني الذي أوحى الله به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في القرآن، يقص فيه أخبار الأمم السابقة، ويبين كيف يترقى الإنسان في مراتب الحضارة الإنسانية حين يكون مؤيدا بالوحي متبعا لتعاليمه، وكيف ينكص على عقبيه حين يهيم على وجهه شاردا تستهويه الشياطين، يدعونه "إلى الهدى ائتنا"، وحين يتخذ إلهه هواه فيضله الله على علم، ويطبع على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة.. هكذا يبيت حاله حين يتنكب عن الصراط السوي، ويضل عن سبيل المؤمنين.

لقد سرد القرآن فيما حكى لنا أخبار هذه الأمم المؤتفكة التي ما أغنى عنها ما مكنت فيه من "السمع والبصر والفؤاد"، وما جاءهم من أخبار على يد رسلهم حتى كذبوا بها، واستمرأوا في إعراضهم عن الحق ، وحادّوا ربهم الذي خلقهم بما أغدق عليهم من النعم وما أحاط بهم من الخيرات ظاهرا وباطنا.. فجعل الله هلاكهم سريعا، وجعلهم عبرة لمن خلفهم لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا..

لقد بادت هذه الحضارات من عهد عاد وإرم وثمود وفرعون وهامان، وأصحاب الأيكة وقوم تبع، وقوم نوح ، وقوم إبراهيم والمؤتفكات، ما حكى القرآن منهم ومالم يحك، ما قص من أخبارهم ومالم يقصص، فلم تغن عنهم هذه الحضارات التي جددوا ولا الأوتاد التي وتدوا، ولا القصور التي شيدوا، ولا الأعمدة ولا الأهرامات ولا السحر ولا الطب ولا غيرها من العلوم.

"إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيسير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها، وهؤلاء العرب الذي وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا الإسلام وكتابه القرآن الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا" (٢)

لكن الحضارة الحقيقية التي امتدت وسمت واستطالت مع التاريخ، هي حضارة التوحيد التي دعا إليها نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والنبيون من عهد آدم وإدريس وذا الكفل وشعيب وأيوب ويوسف وهارون وسليمان" قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)"[البقرة].. "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)"[آل عمران].

يقول د. محمد بن موسى الشريف أن: التاريخ الإسلامي له ما يميزه عن غيره من تاريخ البشرية في الأرض، فهو على حد قوله : تاريخ مرتبط بالرسل والأنبياء والشرائع السماوية "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا وما أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. "الآيات.

كما أنه (منضبط دقيق) إذ يعتمد جل اعتماده على النقل من الوحي (الكتاب والسنة) ثم كتب المؤرخين الإسلاميين ومعظمهم من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء الذين اعصتموا بالأمانة العلمية في النقل والتحديث والأخبار، كما أنه يحمل في طياته بوارق الأمل والبشائر والتجديد لأهل الإيمان وإن نأى به العهد وطال بهم الأمد "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون".(٣)

تلكم هي الحضارة الحقيقية التي وتدت جذورها في حقب التاريخ وأخرجت شطأها، واستوت على سوقها، وضربت أطنابها في أرجاء الأرض حتى وصلت إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم حتى ورثت الأرض ومن عليها "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين "، "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"، "وإن جندنا لهم الغالبون"، " فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون".. " من كان يريد العزة فلله العزة جميعا"، " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء".

يقول أ/ على القاضي في كتابه (حضارة الإسلام ـ إنسانية شاملة): "ونحن نؤمن أن الدولة لا تقوم إلا على أساس الدين الإلهي، والغربيون ينظرون نظرة مخالفة لذلك، ويعلمون جاهدين على أن تكون نظرة المسلمين مثل نظرتهم .. ويقول: وحين ندرس تاريخ النبوات نجد أن المؤرخين الغربيين فصلوا النبوات عن التاريخ لأنهم وضعوه تحت علم (اللاهوت)، وعلم اللاهوت يمزج بين الفلسفة والتاريخ ..ولذلك فقد اختلفوا في فرعون وموسى.. ".(٤)

إن الحضارة الإسلامية حين يكتب لها وراثة الأرض لا تملك إلا أن تتصرف فيها وفق هذا المنهج الرباني المنزل من قبل الله الخالق المدبر المهيمن القوي القادر، وقد جعل الله في صحفه المنزلة على رسله ، وفي كتبه التى احتملت هذا المنهج التعبدي والأخلاقي والمعاملاتي؛ فاحتوت حقوق الإنسان بمختلف صوره وأجناسه ومذاهبه ودياناته وأفكاره وتوجهاته.. واشتملت علاقة الإنسان المسلم بربه وجواره ومجتمعه ورحمه ودينه ونفسه وماله وعقله، وكذا الكون من حوله، بما فيه طير وحيوان وزروع ونخيل، وحرث ونسل .. ولكل من هذه وتلك حقوق لا يحق ولا ينبغي التفريط في شيء منها، إلا بسند أو أمر شرعي يبيح ذلك، ثم يوقفه حينما ينتهي الغرض منه.

يقول على القاضي: وللحضارة الإسلامية أسس قامت عليها وخصائص تميزت بها عن الحضارات الأخرى، ومن أهمها: العقيدة الإلهية، وشمولية الإسلام وعالميته، والحث على طلب العلم من المهد إلى اللحد، وتربية الإنسان الصالح الذي يقتصر دوره على دولته.

وقد برزت الحضارة الإسلامية في كل مجالات الحياة بحيث ترقى بالإنسان المسلم في كل مستويات حياته.. الجانب السياسي والاقتصادي، والاجتماعي والعلمي، والعلاقات الدولية، والتشريعي ، والقضائي، والعسكري ، والمعماري.. والجهاد في سبيل الله".(٥)

كذلك مما اختصت بها الحضارة الإسلامية وتفردت به عن غيرها من الحضارات تلك الخاصية اللازمة (الاستمرارية) أو الديمومة التاريخية؛ وكما يقول صمويل هنتنجتون في (صراع الحضارات) متحدثا عن (فناء الحضارات) يقول: "الحضارات فانية : أو ليست أبدية إلا أنها تعيش طويلا، فهي تتطور وتتكيف وهي أكثر الجماعات الإنسانية ثباتا وتحملا(حقائق المدى الطويل)، جوهرها الفريد والخاص هو استمرارها التارخي الطويل .. الحضارة هي أطول قصة في الواقع"

الامبراطوريات تنهض وتسقط ، والحكومات تجيء وتذهب، والحضارات تبقى وتنجو من كل التقلبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى وحتى الأيدلوجية.

وبينما الحضارات تبقى، إلا أنها تتطور أيضا، وهي حركية ، تنهض وتسقط، تتحد وتنقسم، وكما يعرف كل دارس للتاريخ ، فهي أيضا تندثر وتدفن في رمال الزمن .. ويرى توينبي أن الحضارة تقوم ردا على تحديات، ثم تمر بمرحلة نمو تتضمن سيطرة متزايدة على بيئتها بفضل أقلية خلاقة ، يتبعها مرحلة صعوبات ، قيام دولة شاملة ، ثم بعد ذلك يكون التفسخ".(٦)

أما الحضارة الإسلامية وإن سرت عليها سنن الحضارات من قبلها، وأذعنتها لصولة قوانين الحضارة ، فإن سنة الفناء لا تسري عليها، وإن جرت عليها عادة التراجع التاريخي؛ وليس هذا بدعا من الحضارة ولا قوانينها، لكن الفكرة الحضارية التي تكمن في باطنها هي (فكرة التوحيد)، والتي تخضع كل سنة في الكون لها، ولا تخضع هي لأية سنة ولا قانون.

لقد لمسنا هذا حقا متحققا في تقلبات الأزمنة ، وحقب التاريخ ، ومجريات الحوادث، أن الفكرة الحضارة الإسلامية التي قامت على أساس التوحيد والعدل والاستخلاف في الأرض وتحقيق العبودية لا يمكن أن تفنى منها الأرض، ولا أن تطويها عجلة التاريخ.. لقد رأينا هذا متحققا رأي العين وحق اليقين من لدن آدم وذريته، وانتقال الرسالة من بعده إلى نوح وذريته ومن بعدهم إبراهيم وموسى وعيسى ختاما بمحمد صلى الله عليه وسلم "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)"[النساء].

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧)" [الأحزاب].

ذكر (د. محمد بن موسى الشريف) طرح بعض العلماء فكرة (النظرية الإسلامية في تفسير التاريخ)، أو (التفسير الإسلامي للتاريخ ، وهي التي يمكن لها أن تفسر أحداث التاريخ تفسيرا صحيحا بعيدا عن ترهات الشيوعيين وتمويهات العلمانيين التحررين الليبراليين .. وذكر منها بعض الكتب:

"تفسير التاريخ علم إسلامي : نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ " د. عبدالحليم عويس.

"التفسير الإسلامي للتاريخ " أ د . عماد الدين خليل.

"نحو منهج إسلامي لإعادة كتابة التارخ" من كتاب (المسلمون وكتابة التاريخ) أ د عبدالعيم خضير.

"أضواء على تفسير التاريخ" أ د نعمان عبدالرازق السامرائي.

"فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية " أ د عبدالحليم عويس".(٧)

فلا ريب إذن أن يجعل الله الأرض ومن عليها إرثا للإسلام وأهله كما ذكر في سورة الأنبياء "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"، وهذا ما يدفع أمة الإسلام دفعا إلى النهوض بهذا الإرث الحضاري القديم لانتزاعه من يد من اغتصبوه منهم، فإن لم يكن فإن الله قد حذرهم وأعذرهم بقوله "وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

١. ارتقاء الإنسان (جون بروفسكي)
٢. في التاريخ فكرة ومنهاج (سيد قطب).
٣. دراسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف)
٤. علي القاضي (حضارة الإسلام . إنسانية شامية)
٥. نفس المصدر
٦. صراع الحضارات (صمويل هنتنجتون)
٧. دراسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف) بتصرف

لم يحظ تاريخ بشري بما حظي به التاريخ الإسلامي من العناية المنهجية، والتحري في الجمع والضبط والسرد والتحليل والتدقيق والتنوع ، وذلك لما تأدب به علماؤه الذين دونوه، وما تأثروا به من منهجية الأسلوب القرآني من عده وجوه.

وقد نوهنا عليها سابقا في طيات الكتاب ونعيد التأكيد دون تكرير، أن المنهج القرآني هو منهج رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتسرب الخطأ إلى طياته، ولا ظواهره، ولا يحتمل عليه كذلك السهو أو النسيان أو التجاهل أو عدم التدقيق.

وكذا انتهج علماء الإسلام هذا النهج (العلمي الصارم)، إذ جعلوا مثل هذه الأصول الذي قعدها القرآن منطلقا لهم في جمع المادة التاريخية وتحليلها وتدقيقا وانتفاء غير المسند منها وما لم تثبت صحته، وإن كان بعضهم مثل (الإمام الطبري) في تاريخه قد روى كثيرا من الأخبار ممن لم تثبت صحته وغيره من العلماء؛ إلا أن الإسناد ظل هذا العلم المتفرد الذي يتألى به العرب على غيرهم من الأمم .. إذ عرف أن العرب انفردوا بثلاثة لم تثبت لغيرهم من الأمم وهي (الأنساب ، والإسناد، والإعراب).

ومهما يكن من تسرب لبعض الأخبار غير الصحيحة في طيات كتب بعض المؤرخين إلا أن بعضهم قد اضطلع بفكرة جمع الأخبار ـ لكن بإسنادها ـ وربما قد ترك الجهد لتلاميذه من بعده في توثيق هذه الأخبار وإثبات ما تحقق منها، وطرح ما دون ذلك ممن لم تثبت صحته ولا سنده العلمي.. وبذا يكون المؤرخ لم يخرج في بضاعته عن المنهج العلمي وإن تخلل عمله بعض الخطأ التاريخي.

كما يلاحظ أن تدوين التاريخ في القرون الأولى، لم يعرف ما يعرف بالكاتب أو المؤرخ أو المدون؛ إنما كان جل من كتب في التاريخ هم من العلماء الكبار المبرزين، الذين اعتنوا بعلوم (التفسير والفقه وأصوله والحديث واللغة ،، وغيرها من العلوم)، وهذا ما يؤكد أيضا رسوخ المنهج العلمي في مادة التاريخ كما التزم في غيرها من علوم القرآن الذي قعدت لخدمة كتاب الله، وكذلك علوم السنة والحديث.

نذكر منهم أمثلة ممن عددها د. محمد بن موسى الشريف، في كتابه (دراسات منهجية تاريخية):"

- ابن هشام المصري (سيرة ابن هشام) (ت ٢١٨هـ): صاحب كتاب السيرة النبوية، صاحب مختصر سيرة (ابن اسحق)، وهو علم من أعلام اللغة والشعر والأدب، وأستاذ من أساتذة البلاغة والفصاحة.
- محمد ابن جرير الطبري ٢٢٤هـ . ٣١٠هـ (تاريخ الطبري): وقد عرف كإمام ثقة في الفقه والتفسير والحديث، وقد حذر رحمه الله من الأخذ بكل ما جاء في كتابه حيث كان يروي ـ كما ذكرنا ـ بالسند كل ما يلقى من الرواية، معزيا ذلك إلى أن يقوم بعض تلامذته أو من يأتوا بعده بتحقيق هذه الأسانيد، وبيان الغث منها من السمين.

- المسعودي: (على بن الحسين بن على أبو الحسن المسعودي ت: ٣٤٦هـ) (مروج الذهب ومعادن الجوهر): مؤرخ وبحاثة ورحالة من أهل بغداد أقام بمصر وتوفي فيها، وهو من ذرية عبدالله بن مسعود، وقد أخذ مصادره من المطالعة المباشرة والعيان، ومن الأسفار، ومن بطون الكتب.
- الخطيب البغدادي : أحمد بن على بن ثابت البغدادي، ٣٩٢ . ٤٦٣هـ: هو الإمام العلامة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت، صاحب التصانيف، حفظ الحديث وأقبل عليه واعتنى به حتى صار أحفظ أهل عصره على الإطلاق، وكان من كبار الشافعية .. وله مصنفات كثيرة منها (تاريخ بغداد).
- الحافظ بن عساكر: أبوالقاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي (٤٩٩ . ٥٧١هـ).. الإمام الحافظ محدث الشام ، غلب عليه الحديث واشتهر به ورحل في طلبه ولقي المشايخ ، وكان ديّنا، صنف التصانيف المفيدة أجلها (تاريخ دمشق)". (١)
- ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ . ٨٠٨هـ):" في ترجمته لنفسه في كتابه (التعريف بابن خلدون، ورحلته شرقا وغربا) تكلم عن الفروع التي تعلمها: كاللامية في القراءات ، والرائية في رسم المصحف للشاطبي، والتسهيل في النحو لابن مالك، والمعلقات، وبعض شعر أبي تمام والمتنبي، وصحيح مسلم ، وموطأ مالك، وعلوم الحديث لابن الصلاح، والتهذيب للبرادعي، ومختصر المدونة (لسحنون) في الفقه المالكي، ومختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول، وغيرها من الكتب".(٢)
- ابن حزم : أبو محمد على بن سعيد بن حزم (٣٨٤ . ٤٥٦هـ): عرف بأنه فقيه ظاهري، وشاعر، ودارس للملل والنحل، ولم يشتهر بأنه مؤرخ ومفكر ذو باع طويل في الدراسات الحضارية، وكاد هذا المفكر العبقري يفقد جزءا من رصيده الكبير الذي أسهم به في إثراء الحضارة الإسلامية".(٣)

هذه الصفة العلمية التي غلبت على كتاب التاريخ الإسلامي انطلاقا من المنهج القرآني في التدقيق وتقصي الأخبار واختبار النقال منها ومعرفة دينهم وخلقهم امتثالا لقوله تعالى في عموم الأخبار والأنباء " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)"[الحجرات]، وكذا في آيات سورة النور التي تحذر من تناقل الأقوال بعد تلقيها بالألسنة، والخوض فيما يخوض الخائضون، والتحذير من مثل هذا الذي يعرض صاحبه لعذاب عظيم "إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)"[النور].

كذا يحذر القرآن من اتباع الظنون فيما يجب توخي العلم المثبت فيه، وأن العلوم القائمة على الظن لا تغني عن الحق شيئا ، خاصة أن هذا العلم (علم التاريخ) عامة، و(التراجم) بصفة خاصة ، يتناول حياة الناس من عقائدهم وديانتهم وأخلاقهم وأعمالهم وآثارهم ؛ مما قد يعرض بالبعض اعتبارا لسوء الظنون والقدح في الدين والخلق والعلم ؛ كما نجد في بعض كتابات المستشرقين الذين تناولو فيها التاريخ الإسلامي ورجالاته ، والقدح في أعمالهم وما جال بينهم من صراعات تاريخية، ثم تبعهم على ذلك ثلة العلمانيين من دعاة الإسلام ، من ربيبي المدرسة الغربية .

يقول الله تعالى في سورة النجم " وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠)"[النجم].

ويوضح د. جمال عبدالهادي، ذلك جليا في كتابه: (منهج كتابة التاريخ) ملتزما الرؤية القرآنية الإسلامية، يقول:" ومما لا شك فيه أن انفصام مناهج التعليم عن القرآن والسنة ، وابتعادهما التدريجي عن الأخذ المباشر عنها أدى إلى توجيه المناهج توجيها غير إسلامي؛ مع تعرض الأمة المسلمة للغزو العسكري والفكري، بحيث أصبحت لها مناهج بديلة عن كتاب الله عز وجل؛ هذا الانفصام جر على التربية نتائج خطيرة ما كانت لتحدث لو ظل القرآن والسنة هما محور المنهج ومصدره.

ولكي يمكن للعلوم التاريخية والحضارية (بما في ذلك الجانب المادي وهي الدراسات الاثرية) أن تؤدي دورها في إعداد الفرد المسلم لبنة المجتمع الإسلامي ، وبمعنى أدق صياغة أفراد المجتمع من الناحية السلوكية والخلقية والعقلية طبقا للنموذج الذي رسمه الإسلام للفرد المسلم، لابد وأن تعود لها أصالتها الإسلامية.

والأمة المسلمة ليست مخيرة في ذلك "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)"[الأحزاب].(٤)".

من العلوم التاريخية التي أصل لها المؤرخون المسلمون كذلك علم (التراجم)، وهو جزء لا يتجزأ من علم التاريخ غير أنه مختص بحياة الأشخاص وسيرهم العلمية والخلقية ، يشمل هذا العلم كل ما يتعلق بتفاصيل حياة العلماء والحكام والزهاد والعباد والكتاب والأدباء والشعراء ، وقد دون في ذلك ما يسمى ب (الطبقات).

كما روعي في تلك التفاصيل بدقة قدر المستطاع تواريخ (الميلاد والوفاة)، كما سطر (ابن خلكان) كتابه الشهير (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) وهو:

"قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان (٦٠٨ . ٦٨١هـ)، أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان، مؤرخ وقاض وأديب ومدرس من أعلام مدينة دمشق، وهو من أشهر كتاب التراجم العربية.".(٥)

كذلك كتاب الإمام المحدث والفقيه (شمس الدين الذهبي) المسمى (سير أعلام النبلاء)، وكتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) من أهم الكتب التي ألفت في الطبقات وتراجم الرجال، ويعد مرجعا في السيرة النبوية وتراجم الرجال..

وهذه التراجم هي مدونات تاريخية حفظت لنا تاريخ هؤلاء العظام ، الرعيل الأول منهم خاصة، وهم الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين الذين امتلأت سيرهم بالعظائم والأخبار المستفيضة بالعبر والأخلاق والدين والمروءة، وكذا الذين نقلوا لنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة أن التزام المنهج العلمي المستخلص من القرآن والسنة ، والذي روعي فيه صدق الأخبار والحوادث المدونة ، والترجمة الدقيقة لسيرة العظماء والوجهاء والفضلاء، للاقتداء بسيرهم والتحري لفعالهم؛ كذلك التحري في التدقيق لتواريخ المواليد والوفيات . خاصة في المحدثين ـ لمعرفة المعاصرة وإمكانية اللقاء بين بعضهم البعض في الزمان والمكان، والمدة التي أدرك فيها كل منهم شيخه الذي سمع منه، والتحري كذلك لعقله وحفظه في أول العمر وآخره وبين ذلك.

ربما دخل على التاريخ الإسلامي أو أدخل فيه ما ليس منه، وربما احتوى بعضه الإسرائيليات التي تميل كثيرا إلى الخرافة والأساطير منها إلى الدقة والمهج العلمي من حيث الثبات والصحة ، وربما افتري على بعضه ما ليس منه وما لم يكن فيه من بعض المستشرقين..

لكن تبقى أمانة التدوين التي يلزمها الدين الإسلامي لأصحابه من العلماء والكتاب، وكذلك التزام المنهج العلمي المستقى من (الكتاب والسنة)، علامة فارقة ومميزة لموضوع التاريخ الإسلامي، وإن احتاج بعضه إلى التنقية والمراجعة.

١. دراسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف).
٢. التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون (د. عبدالحليم عويس .كتاب الأمة العدد ٥٠).
٣. ابن حزم الاندلسي وجهوده في البحث التاريخي(د.عبدالحليم عويس).
٤. منهج كتابة التاريخ الإسلامي (د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت).
٥. موسوعة (ويكيبديا).

دورة التاريخ .. بداية ونهاية

إذا كان ثمة اتفاق متحقق بين مثبت التجربة التاريخية، والحقيقة القرآنية: أن الدول والحضارات والامبراطوريات، وما عداها من صور الاستخلاف الإنساني على الأرض؛ كل ذلك قد جرت عليه سنن البداية والنهاية، القيام والانهيار، الظهور والضمور، الانبهار والاندثار.. فإن في هذا أيضا محض إثبات عقلي على جريان مثل هذه السنن على الكون جميعه، وعلى الإنسان بجنسه ذلك الذي هو أهون شأنا من الكون والدول والحضارات .. والعجب كل العجب فيمن ينكر ذلك أو يماري فيه؛ رغم هو قائم بالعقل والتجربة والإخبار.

فقد سارت ركائب العلم في أرجاء الكون وآفاقه، وقد كانت بمعزل تام عن فكرة القرآن التي دعا إليها (بدء الخلق)؛ وما كان للعلم البحت الذي لم يؤمن إلا بنفسه ونظرياته أن يسعى ليحق قول القرآن ويثبت صدقه في هذا التحدي المعجز الذي تجاوز حد اللغة والنظم والبلاغة، التي وقف عندها العرب الأقدمون، تجاوز هذا إلى حد التحدي العلمي الذي يتوعد المبطلين والمنكرين أن يفتح عليهم من الآيات المحيطة القاطعة القاهرة ما يثبت لهم بما لا يدع للشك أن هذا القول حق، وأن ليس من عند البشر..

"سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)"[فصلت]. قال الشيخ (ابن عاشور) في تفسيره " وعد الله رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيلِ التَّسْلِيَةِ وَالْبِشَارَةِ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَغْمُرُ الْمُشْرِكِينَ بِطَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِهِ مَا يَتَبَيَّنُونَ بِهِ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا فَلَا يَسَعُهُمْ إِلَّا الْإِيمَانُ بِهِ، أَيْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ بَيِّنٌ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى اعْتِرَافِهِمْ بِحَقِّيَّتِهِ، وَسَتَظْهَرُ دَلَائِلُ حَقِّيَّتِهِ فِي الْآفَاقِ الْبَعِيدَةِ عَنْهُمْ وَفِي قَبِيلَتِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَتَتَظَاهَرُ الدَّلَائِلُ عَلَى أَنَّهُ الْحَقُّ فَلَا يَجِدُوا إِلَى إِنْكَارِهَا سَبِيلًا".١

وإذا كان ذلك كذلك؛ فما على الإنسان إلا أن يضع تلك الحقائق القاطعة نصب عينيه، فيعمل بمقتضاها في أمر الدنيا، بما علم أنه سيلقى جزاء ما قدم في الآخرة؛ وليعلم كذلك أن عمر الدنيا مهما امتد واستوت نظم الحضارة بها على سوقها، فإن أمرها إلى زوال"حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)"[يونس] .. وأن هذا الزوال المتحقق سنته في أمر الحضارة، كذلك متحقق في أمر الحياة بأسرها، ولا يلبث أن يكون ـ كما ذكر ـ بين عشية أو ضحاها، يوما أو بعض يوم.

وقد أثبتت آيات الآفاق (بدء الخلق) ، وآيات النفوس ما أكد أن دعوى القرآن لم تكن إلا من إله حكيم قدير خالق مبدع، وطابق حسبان الكون معادلات العلم، وطابقت مراحل الخلق كما عدها القرآن ما حققه العلم، وقد تبين لهم أنه الحق، ولم يبق إلا إيمان التسليم والشهادة، بعد أن تحقق في النفوس إيمان العلم وقناعاته، وخرت العقول ساجدة أمام الآيات (طوعا وكرها)، وخضعت الإرادات لقوانين الكون ونواميسه (طوعا وكرها) [نظام الفلك والليل والنهار، والنشاط والسكن، والموت والحياة، والصحة والمرض، والتناسل والتكاثر والتدافع....

"يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)(الرحمن)].

"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" [(٣٠) الأنبياء].

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن بدء الخلق، وما كان قبله، فيما ورد من حديث عمران ابن حصين:"إِنِّي عِنْدَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِن بَنِي تَمِيمٍ، فَقالَ: اقْبَلُوا البُشْرَى يا بَنِي تَمِيمٍ، قالوا: بَشَّرْتَنَا فأعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِن أهْلِ اليَمَنِ، فَقالَ: اقْبَلُوا البُشْرَى يا أهْلَ اليَمَنِ، إذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قالوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ في الدِّينِ، ولِنَسْأَلَكَ عن أوَّلِ هذا الأمْرِ ما كَانَ، قالَ: كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ، وكانَ عَرْشُهُ علَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ.. الحديث" الراوي : عمران بن الحصين | المحدث : البخاري |

"أما مصير هذا الكون، فيتوقع العلماء أن سرعة توسع الكون تتباطأ مع الزمن، حيث تشير الحسابات الرياضية إلى أن التمدد بعد الانفجار العظيم كان بمعدلات أعلى بكثير مما هي عليه الآن، ومع تباطؤ سرعة التوسع ستتفوق قوة الجاذبية على قوة الدفع إلى الخارج فيؤدي ذلك إلى اندفاع المجرّات والمادة والطاقة نحو مركز مفترض للكون، فيبدأ الكون في الانكماش والانطواء على ذاته بسرعة هائلة، ويطوى معه كل من المكان والزمان، ويتجمع في نقطة واحدة متناهية في الصغر ويعود إلى الحالة الأولى التي بدأ منها، وهو ما يُعرف في علم الكون الفيزيائي ب (الانسحاق العظيم Big Crunch) وهي عملية معاكسة لعملية الانفجار العظيم.٤ .. وهو ما يؤكده القرآن بوضوح من صحة هذا السيناريو لنهاية الكون وذلك في الآية الكريمة:

"يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ "[(١٠٤) الأنبياء]..

"وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)" [الروم].

وكما يماري المبطلون في قضية بدء الخلق رغم تضافر الدلائل الصارخة البادية في الكون والكتاب، وما أثبته العلم بأدلتة القاطعة المعضدة والمؤيدة لما جاء فيهما، فإنهم كذلك ليمارون في قضية إعادة الخلق بعد نهاية الكون، وفي فكرة البعث بعد الموت، بعد مفارقة الأرواح للأجساد، ثم قيام الأرواح في الأجساد بعد الرفات والعظام "وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)!! [الإسراء].

وهم يطرحون هذا الطرح الاعتراضي الوارد في الآية على سبيل أنه يتنافى مع منطق العقل الطبيعي، ويسقطون بالقياس ما يحدث في عالم الغيب على عالم الشهادة، ويحتجون بالعقل الذي أنكروا دلائله في قضية (البدء)، فيحكمونه أحيانا ويغفلونه أحيانا، وما ذلك إلا اتباع الهوى وإزهاق لمنطق العقل الذي يدعونه .. ورغم هذا المراء اللامنتهي فإن القرآن

لا يآل أن يرد عليهم في هذه القضية ويحاججهم بما يدعون، ويقيم عليهم الحجة البالغة، كما يدحض حجتهم الزاهقة، ثم "يذرهم في طغيانهم يعمهون".

وحين يولى لهذه القضية (إعادة الخلق) هذا الاهتمام مع الإيعاز و التعويل على الأدلة العقلية في جدلية المعاندين، فإنه يجعلها مدعومة بالأدلة النصية لتثبيت المؤمنين الموقنين، وإزهاق المنكرين، ثم لا يجدوا لأنفسهم ملجأ ولا منجى حتى ولو أصمّوا آذانهم واستغشوا ثيابهم ..

وهذه القضية مقترنة بما قبلها (بدء الخلق) في آيات القرآن، حيث أن القضية تكاد تكون واحدة لا تنفك الأولى عن الثانية أو الثانية عن الأولى، فالمنكرون للبدء هم حتما منكرون للمعاد، لأن المنكر للبدء هو مؤمن إما بأزلية الكون وبالتالي أبديته، وهذا محض إنكار للمعاد والبعث والنشور والحساب، وديانة يوم الدين بين يدي رب العالمين؛ وإما مؤمنون بنظرية الصدفة والطبيعة في الخلق وبالتالي فهو أيضا تبرأ محض مما سبق ذكره من الحساب والبعث والنشور..

وهذا تبرأ من تبعات ما بين المرحلتين (البدء والإعادة) من حكمة الله تعالى في إيجاد الخلق، وتكريم الإنسان بالعقل خاصة، ثم جعله في مناط التكليف بين الأمر والنهي، وقد أشهده على نفسه فيما قبل الخلق بإقرار الربوبية وتوحيد الفطرة، ثم تكرم عليه بأن جعل له هذا الوجود، وهذا التشريف بين الكائنات وقد ألهم مع العقل سبيل النجدين (الفجور والتقوى)، فما إن يجنح إلى هذا الإنكار الأخروي فإنه يتنصل من كل تكليف وتشريف خصه الله به، وافترضه عليه بما ميزه به عن خلقه من حمل الأمانة، والاستخلاف في الكون " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)"[الأحزاب]، وهذا هو قوله "ثم رددنا أسفل سافلين".

وهو أيضا محض اتهام للخالق (جل وعلا) بعدم العدل؛ حيث ما يرى من هذا الجور للناس بعضهم على بعض، وهذا الشر المستشري الذي لم يأمر الله به، وهذا الانحراف الأخلاقي والعقدي عما أمر الله به، وهذا الفساد الذي تكاد السموات والأرض أن تزول منه، وهذا الجور الذي استطال به ابن آدم على ربه وعلى خلقه.. فإن في سنة الإمهال والإرجاء للبشر لحكمة أن يستعيدوا رشدهم، ويثوبوا تائبين إلى ربهم ، ويصلحوا ما تضعضع من أمر رشدهم وفطرتهم السوية، وما أفسدوا في الكون وأهلكوا من الحرث والنسل..

وكما ذكر القرآن : "قل كل يعمل على شاكلته"، فإن منكروا العصور الحاضرة هم على شاكلة أقرانهم من منكري العصور الغابرة، لا يحيدون عن سننهم قيد شعرة، بل حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعوهم.. ربما تختلق الحجج وتختلف، وربما يستحدث المنطق، لكن في النهاية نخلص مستيقنين أن "الباطل ملة واحدة وإن تعدد"، وأن الحق واحد وإن اختلفت صوره وأدلته.

ثم يأتي المبطلون المنكرون لينكروا هذ المعاد، وما سماه الله ب(يوم التغابن) وهواليوم الذي آل الله على نفسه ألا تظلم نفس شيئا ، وأن ترد الحقوق إلى أصحابها "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)"[الأنبياء]، فالإنكار هنا هو صريح ادعاء بالظلم على الله (تعالى الله عن ذلك) حيث لا توفى النفوس ما كسبت، ولا ترد المظالم إلى أهلها.

ثم هو اتهام للحكمة الربانية بالقصور أو العبث، إن لم يكن من هذا الخلق العظيم غرض، وألا يكون لهم إلى ربهم مرجع أو مآل، فيرد القرآن عليهم ردا مبهتا لما يدعون "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)"[المؤمنون]، وهو منتهى الوعيد للمنكرين والمقصرين، بل يثبت لهم ما هو أبسط من ذلك ، ألا هو حشر البهائم والدواب والوحوش، مع الإنس والجن جميعها " وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)" [الأنعام]، " وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)"[التكوير].

ولذا كان التأكيد على قضية إعادة الخلق والإيمان بالبعث هو من صميم الإيمان وأركانه كما جاء في حديث جبريل (عليه السلام) عن عبدالله بن عمر" قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» (صحيح مسلم)،

١. تفسير(الطاهربن عاشور)
٢. (د. أحمد محمد الزين المناوي).نقلا عن موقع طريق الإسلام
٣. صحيح البخاري .. الرقم: ٧٤١٨
٤. المصدر(٢)
٥. براهين وجود الله (د. سامي عامري).

الامتداد الدعوي لا التوسع الامبريالي

لما قضت إرادة السماء أن يكون هذا الدين ختاما على يد هذا النبي الخاتم، وأن يكون هذا العهد هو آخر عهد الرسالات بين السماء والأرض؛ فإنها قضت لزاما ألا ينقطع المدد الروحي بين الطرفين، لئلا يهلك الإنسان عن طول أمد بينه وبين الرسالات؛ لكنها شاءت أن يكون هذا الكتاب المبين هو سبب الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بين البشر ورب البشر؛ وأن يكون امتدادا روحيا لهذا الوحي الذي وإن كان قد توقف، إلا أن عنايته ودفقاته لا تزال متنزلة.

إن العناية الإلهية التي اقتضت توقف الوحي السماوي، قد جعلت من آخر كتبه منهجا شموليا للزمان والمكان، وعموميا (للناس كافة)، مفهوما "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون".. مقروءا "وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث".. مكتوبا "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته" .. محفوظا "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".. مبينا "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ".. مهيمنا "وأنزلنا إليك الكتاب مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه".. حاكما "فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم"..

تلك هي شمولية الكتاب للزمان والمكان والناس، لما يحمل من أسرار إلهية وإشراقات ربانية لا تنقطع بانقطاع وحيه، ولا تتوقف حين يتوقف تنزله " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)"[الكهف].. كما أوعزت مهمة التبليغ في الامتداد الجغرافي والتاريخي إلى الفئة المؤمنة؛ أي أن المسلمين الذي آمنوا بهذا الكتاب وأشربوا منهجه، لزمتهم مهمة الرسل بالتبليغ إلى أهل الأرض ، تلك التي كان يقوم لها وبها الأنبياء والرسل من قبلهم.. وتلك خصوصية لم تعطها أمة من قبلهم .

وقد بينها صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قوله:" أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ".. وكما جاء في صحيح مسلم "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ».

والشاهد في الحديث هنا قوله صلى الله عليه وسلم "وجعلت لي الأرض مسجدا".. وقوله "وبعثت للناس كافة "، وقوله "أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يديّ" ، وهذا إيذان بأن الدعوة التي قد فارقها وهي لم تخرج عن حدود جزيرة العرب، فإنها لابد مبلغة للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها؛ ولن يحمل عبء هذا التبليغ ومشقة تعليمه إلا هذه الفئة المؤمنة النافرة الذي ذكرهاالقرآن "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)"[التوبة].

قال الشيخ الشعراوي في تفسير هذه الآية "واستقبال وحي الله يقتضي وجود سامعين ليبلغوه، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة في الجهاد، فبيّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله

ليبلغه للناس؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين: أمر يحمله إلى الناس، وأمر يثبت صدقه في الناس، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة، وآخر يضحي بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التي يبذل في سبيلها الغالي والرخيص..

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان، فهذا لا يعني الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يوحي به الله.

إذن: فهناك منهج من الله، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به في البلاد، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هي استقبال لذلك الإعلام، وإلا فماذا يُعْلِمون؟

إذن: فلا بد أن يحافظ الملسمون على أمرين: أمر بقاء الاستقبال من السماء، وأمر الإعلام بما استقبلوه إلى البلاد.

فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد في سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا؛ لتستقبلوا من رسول الله، فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض، فقال: {وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً} .(١)

وأما ما جاء في مسند أحمد من حديث تميم الداري قوله صلى الله عليه وسلم "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ " وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: " قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ"(مسند أحمد).

فهذا إيذان صريح ببلوغ هذا الدين الأرض من أولها لآخرها، من مشرقها لمغربها، ولن يكون هذا البلاغ مقتصرا على الفكرة الجهادية بالسيف فقط؛ إنما قال (بعز عزيز أو بذل ذليل).. فمن قام بالبلاغ له وعنه (عزّ)، ومن نكص عن اتباعه وسعى في الكيد له (ذلّ).. ولقد شهد التاريخ على مدى الألف والأربعمائة عام التي مرت على نزوله، شهد بلاغه حتى وصل أطراف الأرض جهادا وبلاغا وخلقا وعلما "إنا فتحنا لك فتحا مبينا".

وما الاقتصاد في إيراد الأدلة المتعددة المثبتة لذلك ، إلا لتبديها كوجه الشمس في ضحى النهار، فلا تخفى على ذي لب ، ولا تلتبس على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. إن الإرادة التي اقتضت تنزل الكتاب، ثم انقطاع الوحي هي ذاتها التي أوعزت مهمة التبليغ إلى الجماعة المؤمنة التي تلقت هذا المنهج من السماء غضا طريا ، وعملت بمقتضاه، وعلمت منه ما علمت من الحلال والحرام والناسخ والمنسوخ، وشهدت كذلك أسباب نزوله، وبيان مشكله ، وعلمت محكمه، وآمنت بمتشابهه ؛ كما علمهم صاحب الرسالة ومستقبل الوحي المباشر؛ فإنهم علموا كذلك أن مهمة حمل هذا المنهج إلى أهل الأرض وتعليمه وتوصيله للناس على الصورة التي نزل بها من غير تحريف ولا تبديل ولا تعطيل، منوطة بأعناقهم، موكلة إليهم يستوي في ذلك (حامل العلم وحامل السلاح).

يشهد بذلك تفرق الصحابة الذين تلقوا هذا المنهج بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في البلاد، وخروج بعضهم وقد بلغ الستين والسبعين والثمانين من عمره، حتى لم نجد منهم من قد توفي بالمدينة إلا ما جاء عن الحافظ

السيوطي: "وقد جزم الحافظ أبو زرعة الرازي (شيخ الإمام مسلم) بأن عدد الصحابة (١١٤٠٠٠) مائة وأربعة عشر ألفاً. رواه عنه الخطيب البغدادي في (الجامع:٢/٢٩٣)، لم يدفن منهم بالبقيع (المدينة المنورة) إلا عشرة آلاف صحابي ما يشي أن جل الصحب الكرام قد حزموا متاعهم، وشمروا سواعدهم ، وامتشقوا سيوفهم خارجين مجاهدين في سبيل الله ينشروه دين الله في أرضه وبين خلقه.

"هذه الفتوحات التي لم تكن بقصد المال ولا السيطرة على الشعوب، ولا غلبتها وقهرها ، ولا سلب أموالها وثرواتها وتراثها ، كما يفتري بعض المستشرقين (من أمثال فيلب حتى في "تاريخ العرب العام"، وبروكلمان في "تاريخ الشعوب الإسلامية" ، ولكن الغاية منها إنقاذها من براثن الجهل والرذيلة إلى نور العلم الصحيح ، والفكر المنير"لا إكراه في الدين"، "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"..

لقد صاحب الجيوش دعاة وعلماء ينشرون تعاليم الإسلام ، ويرشدون الناس إلى دين الحق ، وشهدت هذه الفترة حركة فكرية نشطة ، داخل البلاد وعلى ساحات ومنتديات البلدان المفتوحة ، وكثر عدد حفظة القرآن الكريم" .(٢)

وثمة فارق عظيم في الفكرة التوسعية المنطلقة من فكرة عقدية تكليفية بأمر إلهي، قد ألزم أصحابها بلاغ هذا المنهج، بل هم مسئولون عن تبليغه آفاق الأرض وأطرافها، وهم كذلك محاسبون حين يقصروا في أداء هذا البلاغ، دون أن يكون لهم من وراء ذلك غنيمة إلا أن تكون ثمرة حرب ، ويكون مردها إليهم كما قننها الإسلام وقسمها بينهم؛ أما إذا اقتصرت مهمة البلاغ على الدعوة دون قتال فما لهم من أجر على ذلك إلا أن يكون انتظارا لوعد الله لهم في جنة عرضها السموات والأرض، وكذا عز الدنيا الذي جاء في حديث تميم الداري الذي سبق.

أما التوسع المنطلق من فكرة (امبريالية استعمارية توسعية) طامعة في انتهاب ثروات الشعوب، وسلب مقدراتهم الطبيعية والمكتسبة، بل تتعد إلى ما هو أفظع من ذلك.. استعباد النفوس ، وإزهاق الأرواح ، والتحكم في الرقاب والمصائر والمقدرات، وإذعان الأعناق واسترقاقها لغير خالقها وموجدها، واستحلال الحرمات والأعراض، وإهلاك الحرث والنسل .. ذلك ما حدث مع اكتشاف أمريكا من قبل الأوربيين، وما حدث مع السكان الأصليين (الهنود الحمر) والأفارقة.

هكذا فعلت الفكرة أو فلسفة (الامبريالية) التي أخذت على عاتقها فرض سيطرتها وثقافاتها ودياناتها على الشعوب المستعمرة كما جاء في تعريف ذلك: "فالامبريالية هي : سياسة أو أيدلوجية تهدف لتوسيع نطاق حكم الشعوب والدول الأخرى ، بغية زيادة فرص الوصول السياسي والاقتصادي وزيادة السلطة والسيطرة، ويكون ذلك غالبا من خلال استخدام القوة الصارمة وخاصة القوة العسكرية ، ولكن أيضا من خلال القوة الناعمة؛ ترتبط الامبريالية بمفاهيم الاستعمار والامبراطورية .. كما شهد عصر الامبريالية الذي بدأ حوالي ١٧٦٠م قيام الدول الصناعية الأوربية التي انخرطت في عمليات الاستعمار وضم أجزاء أخرى من العالم والتأثير عليها، كما شهد القرن التاسع عشر السباق في أفريقيا".(٣)

ونقلا عن مجلة (دراسات استشراقية) تقول: "ولم تكن الدعاية لهذا المشروع (الامبريالية في أفريقيا) الضخم للكشف عن نبله وتنوير الرأي العام حول حتميته فحسب ؛ بل يهدف للسيطرة على الرأي العام خوفا من انتقاد الامبريالية وتبخيس غاياتها.. فالامبريالية فعلت فعلتها في الأفراد والجماعات والأعراق، وغيرت مجرى الماضي والحاضر والمستقبل لكثير من الشعوب، كما أنها لا تزال عائقا مرهقا في وجه التنمية في كثير البلدان.. وقد كان مهندسوا الامبريالية في الامبراطوريات الأوربية على وعي تام بالعواقب الوخيمة للعنف الامبريالى والضغوط الدبلوماسية والغزو العسكري ، والاحتلال ، لكنهم تغاضوا عن ذلك في سبيل تحقيق المنافع الاقصادية والسياسية والثقافية المسطرة". (٤).

كذلك لا تخفى على الأجيال الحالية، تلك الصورة الحديثة البغيضة للفكرة الامبريالية (ما يسمى بالامبريالية الحديثة) المتمثلة في السياسات العسكرية والاستراتيجية والثقافية التي تنتهجها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية: وقد قسمت العالم إلى (حليف وعدو)، وحاولت فرض نفوذها على العالم بكل صور الاستعمار العسكري منها والثقافي والاجتماعي؛ فالأولى كما راينا في (فيتنام وأفغانستان والعراق)، والثانية كما رأينا في المنطقة العربية (مشروع الشرق الأوسط الكبير ـ الفوضى الخلاقة ـ المشكلة الفلسطينية)، والصراع النووي والحرب الباردة، والأحلاف العسكرية..

كل هذه آثار من آثار الامبريالية الحديثة التي دفع العالم من أمانه وثرواته (المادية والإنسانية) ما يعز عن الحصر، وما لو صرفت تكاليف هذه الحروب والسياسات على رفاهية العالم ، لكانت كافية بتحويل الصورة الحضارية الحالية القاتمة، إلى صورة رائقة مشرقة .

لكن المد الإسلامي ـ وهذا ما يميزه ـ لم ولن يتأثر بكل ما يدور في الساحة الحضارية الحالية ، والتي أرجعت الإنسان إلى عهود التسلط الامبراطوري الأول (فارس والروم) ، إنما الإسلام كما ذكرنا يمرق إلى القلوب ويصادف الفطر السليمة فينفذ في دهاليزها حتى يتمكن منها ؛ إذ هو يطابق الطبيعة ويوافق الفطرة.

ولم تثن هذه السياسات الهمجية العالمية هذا الدين عن الفكرة التوسعية التي تمتد استجابة للإرادة الربانية القادرة، التي آلت على نفسها أن يتم هذا الأمر، ويظهر هذا الدين على الدين كله "ولو كره المشركون .. ولو كره الكافرون ."

١. تفسير الشيخ الشعراوي
٢. منهجية علم الدعوة (أ د. محمد قاسم الشوم).
٣. نقلا عن موقع (ويكيبديا)
٤. الصادرة عن (المركزالإسلامي للدرسات الاستراتيجية) العدد (١٩)

في الدعوة القرآنية: جهاد أم قتال

ولما كانت الفكرة الإسلامية (عقيدة وشريعة) منوطة بالتبليغ في الأرض كما أمر منزلها ومشرعها، وتلقفها هؤلاء الملهمون من بعد الأنبياء ليقوموا بهذه المهمة على الوجه الذي أمروا، ويحملوا عنت هذا التبليغ على كواهلهم ، ولا يختص بذلك طائفة دون أخرى؛ لكن لكل حظه من البلاغ وقدره حسبما يطيق، ولو كان ذلك في الأدنين من أهله، وقد ذكر القرآن بداية هذا الأمر وتدرجه ومراحله البلاغية التي مر بها ؛ فقال في بداية أمره "وأنذر عشيرتك الأقربين".

وكما جاء في معجم الطبراني من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال " قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَاذَا يُنَجِّي الْعَبْدَ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ مَعَ الْإِيمَانِ عَمَلٌ، قَالَ: «يُرْضَخُ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، لَا يَجِدُ مَا يُرْضَخُ بِهِ؟ قَالَ: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَيِيًّا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: «يَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَخْرَقَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا؟ قَالَ: «يُعِينُ مَغْلُوبًا» ، قُلْتُ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ضَعِيفًا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِينَ مَظْلُومًا؟ فَقَالَ: «مَا تُرِيدُ أَنْ تَتْرُكَ فِي صَاحِبِكَ، مِنْ خَيْرٍ تُمْسِكُ الْأَذَى، عَنِ النَّاسِ» ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَفْعَلُ خَصْلَةً مِنْ هَؤُلَاءِ، إِلَّا أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(معجم الطبراني).

وهنا يؤكد صلى الله عليه وسلم أن الإسلام لا يعرف السلبية ولا الخمول ولا الكمون، ولكن يعرف المسلم المشتبك مع واقعه المخالط للناس في معاشهم وحياتهم، والقائم بحظه من أمر هذا المجتمع الذي يحيا فيه ، فلا يدير له ظهره، ولا يتوانى عن خطر ولا عثر تسرب إلى مجتمعه، أن يصلحه أو يعين على إصلاحه، أو يمد يد العون مهما كان خطرها أو ضعفها.

أما غير أولى الضرر الذين ذكرهم القرآن، الذين نذروا أنفسهم لتبليغ هذا الأمر،فإنهم لم يتركوا لهذا الأمر عبثا كما تملي لهم الأهواء، أو تفرض لهم المصالح الدنيوية (التوسع الاقتصادي والعسكري والثقافي) فيعملون من خلال ما تقتضيه تلكم المصالح، وتدبج لهم الفلسفات (الاشتراكية والرأسمالية والإمبرالية) أو غيرها من المآرب الدنيوية التي تنساق وراءها النفوس؛ ثم لا تجني من ثمارها إلا ما رأينا مما جنته (الامبريالية) على الشعوب المستضعفة في إفريقيا وآسيا وأمريكا.

وهنا تتبدى سنة (المدافعة) التي تظهر نتيجة حتمية لفكرة البلاغ، والمقاومة الطبيعية ، والعناد البشري لكل ما لم تألفه النفوس، حتى وإن كان فيه نفعها ومصلحتها في المعاش والمعاد.. وقد تمثل هذا جليا في التدرج القرآني لمراحل الدعوة في سورة النحل، فقال " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)[النحل].

قال الشيخ الشعراوي في تفسير الآية "إن إلف العادات من طباع النفوس البشرية، وإن تحويل النفوس عن عاداتها الطبيعية (الدينية والأخلاقية والنفسية) أمر جد صعب، ولذلك استعين عليها بحسن البلاغ والإجمال في الرسالة

(الحكمة)، فإذا ما استمرأت النفوس في عنادها واستمسكت بإلفها يلقى إليها ب (الموعظة الحسنة) علها ترتدع أو ترعوي، ثم يكون الجدال بالتي هي أحسن، مع هؤلاء الملأ الذين عنوا بالعلم واختصوا بالعقل لقوة إقناعهم " (١)

أما الجهاد: فهو السنة الطبيعية التي لابد منها حين تلوذ النفوس بما ألفت عليه من عاداتها، وقد تعنتت واستأسدت في الدفاع عن باطلها "وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم " فهنا قد شرع الجهاد دفاعا عن البلاغ واجتهادا في توصيل الدعوة لمن يقبلها، وفي هذه المرحلة حين تنبسط الأرض أمام قوافل الدعوة، وتتنسم القلوب هبات نسائم الإيمان، القابل منها والمعرض، فإن الأمر ليس فيه عنت ، بل قال القرآن فيه "لا إكراه في الدين "، وقال " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر"، "لكم دينكم ولي دين".

لكن الأمر لا يتوقف عند الدعوة لإخراج الناس من أديانهم الفاسدة وعاداتهم الباطلة، إلى الهدي القويم والصراط المستقيم؛ إنما هو الوقوف على كل طريق لهؤلاء الدعاة ، بكامل العدة والعتد للذود عن السيادة والملك والمهابة ومكتسبات الريادة والعراقة والأصالة؛ إن خروج النفوس من هذا الأمر لأشق من قطع الحلاقيم ، وإزهاق الأرواح .. وقد عبر عنه القرآن بلفظة (النزع) كما يعبر به عن نزع الروح، وكأن الملك والروح صنوان، أو أليفان ينزع أحدهما كما ينزع الآخر:" قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)، ولذا نرى القرآن يردهم لأصل الأمر وبدايته أن الملك كله لله، هو وحده الذي يؤتيه وهو وحده الذي ينزعه.

وقد رأينا هذا العناد جليا في بدايات الدعوة من قريش ويهود والأعراب والقبائل حين أجمعوا بخيلهم ورجلهم على إسقاط الدعوة الواعدة ، ووأدها في مهدها خوفا على سلطانهم، وذودا عن مكتسباتهم ؛ ولذا كان القرآن يردهم مذكرا بنعمة ربهم عليهم أن هذه السيادة التي آلت إليهم مردها إلى الله الواحد الذي مكن لهم حرما آمنا"وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)"[القصص].

وكان النبي صلى الله عليه سلم يعدهم بما هو اعظم مما هم فيه من الملك والسيادة، وأنه ـ أي القرآن ـ ذكرٌ لهم ورفعة حتى قيام الساعة كما جاء في كتب السيرة "وَقَالَ المغيرة لِعَامِلِ كِسْرَى: أَمَرَنَا نَبِيُّنَا أَنْ نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية. وقال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِقُرَيْشٍ: «هَلْ لَكُمْ فِي كَلِمَةٍ تَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي الْعَجَمُ إِلَيْكُمْ بِهَا الْجِزْيَةَ؟ قَالُوا: مَا هِيَ؟ قال: لا إله إلا الله»(٢) .

إذن فالملك والسيادة هما الآفة الأولى التي حالت بين العرب وبين أن يذعنوا لأمر الحق، وقد جاءهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ؛ لكن ليس خوف الملك والسيادة فقط ؛ إنما كان ما هو أشد من هذا وهو (شمخة إبليس) بأنفه وهي (الكبر) الذي أبى بهم أن يدخلوا تحت راية قد أتت على يد من يظنون في أنفسهم الخيرية دونه" أهم يقسمون رحمة ربك"، فكان الحسد مانعا لهم أشد من مانع خوف الملك والسيادة ، فيقولون " وَلَمَّا جَاءَهُمُ

الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)"[الزخرف]، " وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١)"[الفرقان].

تلك كانت بعض المقدمات المبينة لم شرع الجهاد في تبليغ هذا الدين؛ إن العرب واليهود والأعراب ، ومن خلفهم فارس والروم ما كانوا ليذروا هذا الدين يشق الصف من بينهم، ويخطف الألباب ، ويستميل العقول، ويطبب النفوس، ويؤلف بينها، ويسوي بين العبيد والسادة دون أن يكون بينهم وبينه حد الحراب والسيوف، ومناجزة أصحابه وأنصاره بالخيل والرجل والأموال والأولاد والقض والقضيض، والخف والحافر؛ حتى يحكم الله بينهم وبينه وأن يأذن لهذا الدين أن يسود، ولهذا الحق أن يستبين.

فجاءت الدعوة بالمناجزة صريحة بعد حين من الدهر، وصبر مرير قد طال أمده ، واستطال باغيه في عهد من الظلم والقهر والتجويع والتخويف ، جاء الإيذان بالصدع بالحق، وإعداد القوة والخيل لخوض غمار هذا الجهاد، وليكون سنة كونية يدفع الحق الناس بعضها ببعض "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله".

جاء الأمر الإلهي بإظهار الدعوة "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)"الحجر، ثم كان من بعدها الأمر بالجهاد"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)"(الحج).

"وقد نص العلماء على أن الجهاد لا يتعين إلا في ثلاث حالات:

١. إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان . لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ).
٢. إذا نزل الكفار ببلد ، تعيّن على أهله قتالهم ودفعهم . لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً).
٣. إذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير . لقوله صلى الله عليه وسلم : وإذا استنفرتم فانفروا . متفق عليه".(٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: –

فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم ، وعلى غير المقصودين لإعانتهم – إلى أن قال :

كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله في تركه لأحد ، كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذي قسمهم فيه إلى قاعد وخارج . بل ذم الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم (يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً) (الأحزاب: من الآية١٣) فهذا دفع عن الدين والحرمة والأنفس ، وهو قتال اضطرار . وذلك قتال اختيار للزيادة في الدين وإعلائه ولإرهاب العدو كغزاة تبوك ونحوها . اهـ (٤)

وقال المرداوي في الإنصاف:

أما جهاد الطلب ، فامتثالا لقوله تعالى : (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون".. وغيرها من الآيات، والأحاديث الدالة على وجوب الجهاد ومُضيِّه مع كل برّ وفاجر إلى يوم القيامة. (٥).

أما القتال: فهذا ما جاء بيانه نقلا عن موقع (طريق الإسلام)، حيث كتب:

" ثمَّة أنواع أخرى من القتال، قد تحصل ولا يكون طرفها الآخر كفارًا أصليين، وتختلف هذه الأنواع من القتال باختلاف بواعثها، وأسبابها. فمن ذلك:

* قتال المرتدّين: ويقع هذا القتال لردّ طائفة مرقَت من الدين، وكفرَت بعد إيمانها، وارتدّت بعد إسلامها، فتُقاتَل تلك الطائفة المُرتدّة لإرجاعها إلى حظيرة الإسلام، والانتظام في سَلْكه من جديد، وهذا مثاله: قتال الصحابة لمُسيلمة مُدّعي النُّبوّة ومَن معه.

* قتال البُغاة أو أهل البَغي، وهم أصناف: – فمنهم: طائفة مرقَت عن جماعة المسلمين وإمامهم –الذين اجتمعوا على الكتاب والسُّنة–، وبغَت على الإمام العدْل، وعمَدت إلى قتالِه لعَزله والإطاحة به، ورأت كُفره وكُفر المسلمين بالذنب، مثل: (الخوارج) الذين كفّروا عليًّا وغيرَه من الصحابة. – ومنهم: طائفة خرجَت على الإمام العدْل، ولهم تأويل وشُبهة، وعندهم شوكة ومَنعة، ويَرون أن الحقَّ معهم، وهذا كان أوّل أمر مَن خرجوا على عليّ. – ومنهم: طائفة مسلمة تُقاتل أخرى مثلها، فتُدعَى كلٌّ منهما إلى حكم الله، وإنصاف المظلومة من الظالمة، فمَن أبَت منهما صارت هي الباغية، وفيها أُنزلَت آيات الحُجرات: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي} [الحجرات من الآية:٩].

* قتال أهل الحِرابة: وهي طائفة تُحارب الآمنين، في أسفارهم وطُرقهم ومصالحهم، وتسطو على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وتقطع الطريق، وتعيث في الأرض فسادًا .

* قتال الطائفة المُمتنعة: وهي طائفة تمتنع عن إقامة شعائر الإسلام، ولو شعيرة واحدة – فلو كانت الشعيرة واجبة؛ فتُقاتل بالإجماع، وإن كانت مُستحبة؛ فتُقاتَل في قول الجمهور – كما حكاه ابن تيمية رحمه الله، وغيره.

* قتال الحاكم المُنحرف عن الإسلام: فمَتى ارتدّ الحاكم أو كفر أو فسق فقد انحلّت بيعته، ووجب خلعه، ولو بالجهاد والاقتتال متى قُدر على ذلك، وقد نصّ عليه القاضي عياض رحمه الله، وغيره" .(٦)

فأين هذا التأصيل والتبيين الذي لا يترك الحياة سدى لاجتهادات النفوس البشرية التواقة ورغباتها، وقد علم أن ليس لها من نفسها رادع حين يغريها دافع القوة ، وعوامل التمكين ، وزهو النصر ، فلا تجعل لنفسها لجاما، ولا تملك لها زماما إلا أن يكون رادعا من دين أو وازعا من سلطان.. ولا يزع السلطان في حال النصر كما يزع القرآن أبدا، فإن

النفس مفطورة على الزهر والغرور حين تحترز النصر، فيعلوها الفخر وتأخذها العظمة وتذهب برأسها الغمرات كل مذهب.

وقد بين القرآن هذا النشوة التي تعقب النصر أو تلازمه حين قال "قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)"[النمل].

فما بالنا إذا كان الدافع الأصلي وراء القتال هي هذه الحالة من البطر وحب الاستحواذ والاستعمار، ونهب مقدرات الأوطان والبلاد وخيراتها ومكتسباتها؛ كما تجلى في الحروب الصليبية التي زعمت كذبا حماية الأقليات النصرانية، والدفاع عن قبر المسيح المهدم من قبل شراذم (المحمديين) ـ على حد زعمهم ـ وكما فعلت أوروبا حال الاستعمار الحديث في أسيا وإفريقيا وأمريكا.

فارق عظيم .. بين حياة منضبطة بمنهج سماوي تعبدي لا تحيد عنه إلا حيدة النفوس حال ضعفها البشري، إلا أن مردها ومآلها أولا وآخرا إليه؛ تصلح ما فسدت وتضبط ما اختل ميزانه؛ وبين حياة متفلتة من كل خلق ودين ، لا يحكمها إلا طمع النفوس في مقدرات غيرها، لا تبالي حين تتفلت أطماعها كالدواب، أي حرث أهلكت وأي نسل قد أبادت؟!!

١. تفسير الشيخ الشعراوي (إذاعة القرآن الكريم ـ بتصرف)
٢. مختصر زاد المعاد (الإمام ابن القيم).
٣. نقلا عن موقع صيد الفوائد ـ عبدالرحمن بن عبدالله السحيم.
٤. نفس المصدر
٥. نفس المصدر
٦. موقع طريق الإسلام (الجهاد تأصيل وأحكام ٢٠١٥/٠٦)

لا انفصام عن الحضارة العالمية

برغم هذه الحالة الواضحة من التميز التي تتفرد بها الحضارة الإسلامية (التاريخية)، أو النموذج الحضاري القرآني؛ إلا أن ثمة فارق أكيد بين التميز و (الانفصام)؛ فالتميز هو مجموعة الخصائص والأسس والنظم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، وهذا أمر طبيعي .. فكما ذكرنا لكل حضارة من خلفها تلك الفكرة التاريخية الثقافية أو الدعوة الروحية التي أنبتتها، وتلك العوامل الجغرافية والمادية التي ساهمت في قيامها واستوائها، ثم المنهج الذي استمرت به، ووتدت من خلاله مجموعة القيم الثقافية التي عاشت واستمرت بها، حتى أذن بفنائها أو استبدالها.

أما الانفصام: فهو حال من الصدام الثقافي والتاريخي الذي ينشأ نتيجة اختلاف أو تضارب الأصول الثقافية التي تميز الحضارات عن بعضها البعض.. فالفكرة الإنسانية قد تختلف بين حضارة الإنسان وغيرها، وكذا الفكرة التوسعية ربما تختلف شكلا ومضمونا عن تلك التي انتهجتها معظم الحضارات في الغرض من انتشارها، والطريقة التي توسعت بها وامتدت أطرافها إلى غيرها من الأقطار والأمم.

يقول صمويل هنتنجتون" إن صدام الحضارات هو الخطر الأكثر تهديدا للسلام العالمي، وإن نظاما عالميا يقوم على الحضارات هو الضمان الأكيد ضد حرب عالمية"(١)..

ولست أدري ما يعني ب (نظاما عالميا)؟ هل يعني تعميم الحالة الحضارية الغربية على الكون، وبالتالي تبعية الدول ما دون الغرب للغرب!! وكذلك ما يعني بعبارة "بالوصول بدون ذلك إلى حرب عالمية".. لا شك أنه يعني كذلك أن الحضارة الغربية ستفرض نفسها على العالم بالقوة إلم يكن هناك انصياع لإرادتها وثقافتها بالسياسة؛ أو أن الصراع الحضاري هو نوع من الحتمية التاريخية التي تفرضها نفسها على الشعوب حتى تصل إلى حال من الصدام بين الأطراف حتى يخضع أحدهما الآخر لثقافته الحضارية.

ويقول: " الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو أن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة".(٢).

ويفسر هذا التأصيل الذي تم في هذا الكتاب عن فكرة (الجهاد والقتال) ومشروعيته في الإسلام، فالكاتب هنا يؤكد أن الخلاف الثقافي الحضاري لابد أن يخلق حالة من الصدام التي تنتهي بفرض أحد الأطراف (القوي غالبا) على فرض هيمنته وخلفياته الثقافية ، وتعميم ذلك على ما يستطيع إخضاعه من الأمم .. وهذا يفسر أيضا فكرة (التوسع الامبريالى الاستعماري) وأهدافها الصدامية التي تحدثنا عنها، وما فعلت أوربا وأمريكا في قارات العالم.

فالفكرة الحضارة القرآنية : قد بزغت واستولدت من هذه الدعوة الروحية السماوية التي جاءت على فترة من انقطاع الوحي، وانقطاع الرسالات.. لكنها جاءت لتعيد تقويم الإنسان الخلقي والنفسي والعقائدي والمادي ، وترده إلى الغاية الأولى التي نزل من أجلها من السماء إلى الأرض، وكذا لتعيد تقويم هذه العلاقة بين الخالق والمخلوق والتي شوبت

بكثير من الطوارئ والواردات والأساطير التي اخترعها العقل البشري المأفون حين غابت عن لبه الفكرة الأصلية لمقدمه، والمنهج القويم الذي يربطه بالسماء وبالأرض رباطا حقيقيا وثيقا.

ولذا جاء الخطاب في قوله " يا أيها الناس" في القرآن فيما يقرب من (عشرين موضعا)؛ يخاطب الناس كافة.. وهذا إيذان حقيقي بأن الدعوة وإن كان مهادها الأول في أرض العرب إلا أنها اختصاصها (للناس كافة)، وكذا في قوله " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)"[سبأ].

ومعنى هذا: أن دعوة القرآن هي احتواء لما قدمته الحضارة الإنسانية على اختلاف منطلقاتها الأولى، ومنهاجها وثقافاتها التي قامت عليها؛ وأن هذا الاحتواء ليس احتواء (ازدراد) أو ابتلاع لكنه احتواء انتقائي، فالقرآن لا يرفض ما أثمرت وما أنتجت وما أينعت وسطرت ودونت ما قبله من الحضارات؛ إنما هو قد وقف بميزان الحق والعدل والقسطاس المستقيم على كل ما أنتجت تلكم الحضارات.. فما وجد فيها من حلال وقيمة بشرية إنسانية، وفائدة مادية، وثقافة وفلسفة ، ومخترعات استفاد منها العقل البشري، وأثمرت في الإضافة العلمية والعملية إلى الحضارة الإنسانية، فقد أخذه مقرا به دون تردد أو ريب.

وما أسرفت البشرية من عقائد باطلة ، وفلسفات مخربة ، وماديات مجحفة، وثقافات منحرفة عن مصحلة الجنس البشري، فهو قد طرحها خلفه ظهريا، بل أقام عليها الحجج الدامغة بالبطلان والفساد قبل أن يأمر بطرحها، ويحذر من الأخذ بها، وينهى عن اقترابها " وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)" [النحل].. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)"[المائدة].. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)"[الحجرات]..

إن حديث القرآن عن القتال في الآية من سورة البقرة الذي يقر فيه أن القتال وإن كان شيئا مفروضا إلا أنه على كره من النفوس وليس حبا أو ترغيبا فيه، أو فيما يتأتى خلفه من غنائم وفوائد وأموال.. فيقول"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)"[البقرة].. وكذا في قوله" وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)"[الأنفال].

فهو يؤكد أن القتال وإن كان على كراهة من النفوس، إلا أنه لم يشرع إلا ليحق الحق ويبطل الباطل، وهو إقرار التوحيد في الكون والعمل بمقتضاه، أو الإذعان لأمره بإعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، ولو كانت في ذلك الشوكة؛ وما

خلاف ذلك فلم يشرع فيه بقتال ولم يؤذن فيه باعتداء طالما لم تتحقق أسبابه، وضوابطه .. وذلكم الفرق الجوهري بين ثقافة القتال في الإسلام وغيره.

يؤكد البعد التاريخي هذا المنطق الاحتوائي (اللاصدامي) وهو ما يسمى ب (عصر الترجمة) والذي عكف فيه المسلمون على علوم اليونان والرومان والهند وغيرهم ، ما عكفوا عليه من دراسة تراث هذه الدول وثقافاتها، ومخلفاتها العلمية الحضارية، ثم ترجمتها إلى اللغة العربية وكان ذلك في عصر الدولة العباسية (دولة العلم).

ينقل لنا د. شوقي ضيف شيئا من حركة الترجمة في العصرين العباسي الأول والثاني فيقول:

"شملت كل ما استطاع العرب نقله منن علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكبر ما نقله عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون في هذا التراث ..

فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة في التشريح، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية، وإذا محمد بن موسى (الخوارزمي) ينشئ عصرا جديدا في التاريخ العالمي للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذي عرف به في العالم كله.

والدولة هي التي هيأت لذلك كله منذ أبي جعفر المنصور، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل، ولم يلبث هارون الرشيد أن أنشأ درا الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى، إذ ألحق بها مرصدا ومكتبة ضخمة، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستولي على معظم النشاط في الترجمة والنقل، حتى أصبحت لها نهائيا الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية" (٣)

ونمضي في العصر العباسي الثاني فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نموا عظيما، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التي تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة .. وكان الذي أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التي كان ينفقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين".(٤)

إن هذا الانفتاح غير المسبوق على الترجمة بكل صنوفها العلمية والأدبية والفلسفية، يعكس بصورة واضحة تلك الفسحة العقلية لهذا الدين، وهذه القدرة المتفردة على استيعاب ما أثر من علوم الحضارات على تنوع صنوفها، واختلاف دياناتها.. كما يعكس قوة هذا الدين الإسلامي الذي قيل فيه "ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"، فقد أثبت من هذه الحركة الانفتاحية على الحضارات والثقافات أنه جاء كما ورد احتواء وهيمنة لما قبله من الديانات والأمم " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ.."[المائدة].. " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)"[التوبة].

أخيرا.. هذا الامتداد الجغرافي الثقافي العجيب الذي يتمدد به الإسلام خاصة في أعتى مناطق العالم حروبا وإرصادا له؛ مع هذه الحالة من التراجع الحضاري التي فرضت عليه لأسباب لا مجال لذكرها، لكن فكرة التوسع التي يتمدد بها الإسلام في الأوساط العالمية خاصة (الأوربية منها) معقل المسيحية العالمية (الفاتيكان)، ومرصد التبشير العالمي، والمناهض الثقافي الأول لحضارة الإسلام، والذي سعى جاهدا منذ قدومه إلى البشرية في تقويضه وتأخير عجلته التاريخية، وإيقاف هذا المد الحضاري الذي دام أكثر من الف وأربعمائة عام.

يؤكد هذا أن ثمة قوة غير طبيعية تكتنف هذا الدين وهذا المنهج القرآني العجيب الذي أذيع عنه إبان زهوه الحضاري ، أنه ما كان إلا دعوة من ورائها السيف ولولا ذلك ما كان له هذا التوسع العجيب.. فكيف يجيب المغرضون عن هذه الهيمنة التي يفرضها هذا الدين على قلوب أتباعه الذين دخلوه منذ فترة النكوص الحضاري والتي لم تكن إلا طوعا لا كرها.. ولا يزال يطرق كل باب وجماعة وبلدة وقطر دون أن يقف في طريق دعوته قوة عسكرية أو دعوة فكرية أو ثقافية .. ليحقق هذه النبوءة العجيبة من ألف وأربعمائة عام والتي قال صاحبها صلى الله عليه وسلم " " لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا " (١)" [مسند أحمد وصحيح ابن حبان].

١. صدام الحضارات (صمويل هنتنجتون)
٢. نفس المصدر
٣. تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الثاني (د. شوقي ضيف)
٤. نفس المصدر

خـاتمـــة

يقول الكاتب / أنيس منصور، مصورا إحدى مراحل حياته في كتابه (في صالون العقاد):" لقد كنا أقرب إلى النمل وأبعد من النحل، فنحن نكدس المعلومات ولا نمتص رحيقها.. ولذلك احتشدت لدينا أبحاثنا الجامعية بالأسماء والمراجع، واختفى منها الاجتهاد أو الرأي الخاص".. وهكذا نحن، كثيرا ما يشغلنا النهم في جمع المادة العلمية والأدبية ، وقد يشغلنا ذلك عن إبداء تصوراتنا الخاصة تجاه هذه المادة وتحليلها، وتقديمها إلى القراء مصبوغة بصبغتنا الخاصة ، ومشروحة من وجهة نظر الكاتب، أي كما قرأها وأضاف إليها من نفسه؛ لا كما نقلها فقط.

لقد وجدت أن عامة الكتابات التي تناولت (الفكرة الحضارية) تناولتها من منظور التاريخ الإسلامي، وهو كما نعلم الصورة العملية البشرية المنعكسة من الفكرة الحضارية المنثورة والمنشورة في الكتاب الأول الجامع (القرآن الكريم).

وثمة فارق أكيد بين الانعكاس البشري لتطبيق الفكرة الحضارية، وهو الذي يعترية النقص والضعف والفتور والتقصير، وبين المنهج السماوي الأصل الذي مثل لهؤلاء الأفذاذ هذه الدفقة الملهمة ، والطاقة المتجددة، والروح الفائرة التي حطت بهم أعلى عروش الأمم ، وجعلتهم أباطرة التاريخ يحركونه كما يشاءون يمنة ويسرة.

وقد آثرت الرجوع إلى المعين الأول أحاول مستخلصا تلك الفكرة التي كانت وراء هؤلاء الذين جاءوا من أقاصي التاريخ، ومن غيبات الحضارة حفاة عراة رعاء الشاء حتى حطت رحالهم فوق سقف الأمم .. لم يكن هذا عن إلهام نفسي ولا عن ذكاء عقلي ، ولا عن وفرة مادية ؛ إنما كان فقط تلك الدفقة الروحية التي ألهمت من هذا الكتاب العظيم.

حاولت أن أعكس الصورة القرائيه ، فبدلا من تناول مظاهر الحضارة الإسلامية تاريخا وتطبيقا آثرت أن أكتب عن التناول المنهجي الذي احتوى هذه الأفكار ودونها في طياته، ثم أوعز إلى أتباعه بتطبيقها ونشرها حتى تحولت في صورتها العملية إلى الصورة التاريخية (المكتملة والناقصة) كما رأينا وشاهدنا في التاريخ.

المراجع :

١. القرآن الكريم
٢. السنة النبوية (مع تخريج الأحاديث من مصادرها)
٣. هيجل [فلسفة التاريخ].
٤. فلسفة التاريخ د. مصطفى النشار (بتصرف).
٥. التفسير الإسلامي للتاريخ . د.عماد الدين خليل.
٦. هيجل [فلسفة التاريخ].
٧. مقدمة ابن خلدون .. بتصرف
٨. فلسفة التاريخ د. مصطفى النشار
٩. الإسلام بين الشرق والغرب: (على عزت بيجوفيتش).
١٠. أوراق ذابلة من حضارتنا (د. عبدالحليم عويس)
١١. درسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف).
١٢. أبو الحسن الندوي ـ (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).
١٣. –فقه السيرة (الغزالي) الجزء الأول.
١٤. فلسفة التاريخ(جوستاف لوبون)
١٥. قصيدة: نهج البردة".أمير الشعراء (أحمد شوقي).
١٦. تاريخ آداب العرب (الرافعي).
١٧. مشكلات الحضارة (مالك بن نبي).
١٨. قصة الحضارة (وول ديورانت).
١٩. (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). أبوالحسن الندوي
٢٠. سر تأخر العرب والمسلمين. (الشيخ محمد الغزالي).
٢١. تفسير الشيخ الشعراوي
٢٢. صراع الحضارات (روجيه جارودي)
٢٣. مقدمة ابن خلدون (بتصرف)
٢٤. رحلة عقل (د. عمرو الشريف)
٢٥. هيجل [فلسفة التاريخ].
٢٦. التفسير الإسلامي للتاريخ . د.عماد الدين خليل.

٢٧. [الكسيس كاريل ـ الإنسان ذلك المجهول].
٢٨. شرح المعلقات للزوزني (معلقة عمرو بن كلثوم)
٢٩. شرح المعلقات للزوزني (معلقة طرفة بن العبد)
٣٠. تفسير روح البيان[الناشر: دار الفكر. بيروت].
٣١. ودخلت الخيل الأزهر. محمد جلال كشك.
٣٢. الناصر صلاح الدين ـ الاتحاد قبل الجهاد (محمد الشافعي).
٣٣. تاريخ الخلفاء للسيوطي
٣٤. د. المسيري (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)
٣٥. فقه السيرة (الشيخ محمد الغزالي)
٣٦. من دورس د. محمد أبوموسى بالأزهر (شرح دلائل الإعجاز)
٣٧. الباقلاني: من شرح الإعجاز د. محمد أبوموسى
٣٨. نظرات جديدة في القرآن ـ (د. محمد عبدالله دراز)
٣٩. القانون الدولى بين الاستقرار والعدالة (د.يوسف عطاري. مركز الكتاب الأكاديمي).
٤٠. سيرة الرواية ورواية السيرة (د. مصطفى شميعة).
٤١. غزوة الحديبية (الجزء الثاني) غريب محمود قاسم
٤٢. عمر بن عبدالعزيز ـ عدله وزهده وحكمته (عمرو اسماعيل محمد)
٤٣. محاضرات د. محمد ابوموسى: (الرسالة البلاغية)
٤٤. ابن حزم وجهوده في البحث التاريخ والحضاري (د. حسين مؤنس).
٤٥. في أصول الأدب ـ محاضرات ومقالات في الأدب العربي: (أحمد حسن الزيات).
٤٦. سيرة ابن اسحاق
٤٧. الإسلام والعقل (د. عبدالحليم محمود).
٤٨. الإسلام والعالم المعاصر. بحث تاريخي حضاري (أنور الجندي)
٤٩. حوار الحضارات (روجيه جارودي).
٥٠. ارتقاء الإنسان (جون بروفسكي)
٥١. في التاريخ فكرة ومنهاج (سيد قطب).
٥٢. دراسات منهجية تاريخية (د. محمد بن موسى الشريف)
٥٣. علي القاضي (حضارة الإسلام ـ إنسانية شامية)
٥٤. صراع الحضارات (صمويل هنتنجتون)
٥٥. التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون (د. عبدالحليم عويس ـ كتاب الأمة العدد ٥٠).
٥٦. منهج كتابة التاريخ الإسلامي (د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت).
٥٧. موسوعة (ويكيبديا).
٥٨. تفسير(الطاهربن عاشور)

٥٩. (د. أحمد محمد الزين المناوي).نقلا عن موقع طريق الإسلام
٦٠. منهجية علم الدعوة (أ د. محمد قاسم الشوم).
٦١. مجلة دراسات تاريخهية : الصادرة عن (المركزالإسلامي للدرسات الاستراتيجية) العدد (١٩)
٦٢. تفسير الشيخ الشعراوي (إذاعة القرآن الكريم ـ بتصرف)
٦٣. مختصر زاد المعاد (الإمام ابن القيم).
٦٤. نقلا عن موقع صيد الفوائد ـ عبدالرحمن بن عبدالله السحيم.
٦٥. موقع طريق الإسلام (الجهاد تأصيل وأحكام ٢٠١٥/٠٦)
٦٦. تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الثاني (د. شوقي ضيف)